

مكتبة مشكاة الإسلامية المقدمة

▲ كتاب اللؤلؤة في السلطان

السلطان زمام الأمور ونظام الحقوق وقوام الحدود والقطب الذي عليه مدار الدنيا وهو حمى الله في بلاده وظله الممدود على عبادته به يمتنع حريمهم وينتصر مظلومهم وينقمع ظالمهم ويأمن خائفهم.

قالت الحكماء: إمام عادل خير من مطر وابل وإمام غشوم خير من فتنة تدوم ولما يزرع الله بالسلطان أكثر ما يزرع بالقرآن.

وقال وهب بن منبه: فيما أنزل الله على نبيه داود عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن كان لي على طاعة جعلت الملوك عليهم نعمة ومن كان لي على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة.

فحق على من قلده الله أزمة حكمه ومملكه أمور خلقه واختصه بإحسانه ويمكن له في سلطانه أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته والاعتناء بمرافق أهل طاعته بحيث وضعه الله عز وجل من الكرامة وأجرى له من أسباب السعادة.

قال الله عز وجل: " الذين إن مكناهم في وقال حذيفة بن اليمان: ما مشى قوم قط إلى سلطان الله في الأرض ليدلوه إلا أذلهم الله قبل وقال عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.

وقال كعب الأحبار: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان والأطناب والأوتاد الناس.

ولا يصلح بعضها إلا ببعض.

وقال الأفوه الأودي: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إلا لم ترس أوتاد فإن تجمع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا نصيحة السلطان ولزوم طاعته قال الله تبارك وتعالى: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ".

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية أمرنا بطاعة الأئمة.

وطاعتهم من طاعة الله وعصيانهم من عصيان الله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من فارق الجماعة أو خلع يداً من طاعة مات ميتة وقال صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة.

قالوا لمن يا رسول الله قال: لله ولرسوله ولأولي الأمر منكم.

فنصح الإمام ولزوم طاعته وإتباع أمره ونهيه في السر والجهر فرض واجب وأمر لازم ولا يتم إيمان إلا به ولا يثبت إسلام إلا عليه.

الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لي أبي: أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وإني موصيك بخلال أربع: لا تفتش له سرا ولا يجربن عليك كذبا ولا تطو عنه نصيحة ولا تغتابن عنده أحداً.

قال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحد خير من ألف.

قال: إي والله ومن عشرة آلاف.

وفي كتاب للهند: أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال أيها الملك إن نصيحتك واجبة في الصغير الحقير والكبير الخطير.

ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمالك ما يسوء موقعه من الأسماع والقلوب في جنب صلاح العامة وتالف الخاصة لكان خرقاً مني أن أقول.

ولكننا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك وأنفسنا متعلقة بنفسك لم نجد بداً من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلني ذلك فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان بثه فقد أخل بنفسه.

وأنا أعلم أن كل ما كان من كلام يكرهه سامعه لا يتشجع عليه قائله إلا أن يثق بعقل المقول له ذلك.

فإنه إذا كان عاقلاً احتمل ذلك لأن ما كان فيه من نفع فهو للسامع دون الفائل.

وإنك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي وتصرف في العلم وبشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره واثقاً بمعرفتك نصيحتي لك وإيثاري إياك على نفسي.

وقال عمرو بن عتبة للوليد حين تغير الناس عليه: يا أمير المؤمنين إنه ينطقني الأنس بك وتسكتني الهيبة لك وأراك تأمن أشياء أخافها عليك أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً قال: كل مقبول منك والله فينا علم غيب نحن صائرون إليه.

فقتل بعد ذلك بأيام.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال خالد بن صفوان: من صحب السلطان بالصحة والنصيحة كان أكثر عدواً ممن صحبه بالغش والخيانة لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد فصديق السلطان ينافسه في مرتبته وعدوه يبغضه لنصيحته.

ما يصحب به السلطان قال ابن المقفع: ينبغي لمن خدم السلطان أن لا يغتر به إذا رضي ولا يتغير له إذا سخط ولا يستقل ما حمله ولا يلحف في مسأله.

وقال أيضاً: لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فإن كنت حافظاً إذا أولوك حذراً إذا قربوك أميناً إذا ائتمنوك ذليلاً إذا صرموك راضياً إذا أسخطوك تعلمهم وكأنك تتعلم منهم وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر وإلا فالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر.

وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملك وإفشاء السر والتعرض للحرم.

وقال ابن المقفع: إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة فإن ذلك يوجب الوحشة ويلزم الانقباض.

وقال الأصمعي: توصلت بالملح وأدركت بالغريب.

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك: إنما السلطان سوق فما نفق عند حمل إليه.

ولما قدم معاوية من الشام - وكان عمر قد استعمله عليها - دخل على أمه هند فقالت له: يا بني إنه قلما ولدت حرة مثلك وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته.

ثم دخل على أبيه أبي سفيان فقال له: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا.

فصرنا أتباعاً وصاروا قادة.

وقد قلدوك جسيماً من أمرهم فلا تخالفن أمرهم فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه.

وقال أبرويز لصاحب بيت المال: إني لا أعذر في خيانة درهم ولا أحمدك على صيانة ألف ألف: لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتقيم أمانتك فإن خنت قليلاً خنت كثيراً.

واحترس من خصلتين: النقصان فيما تأخذ والزيادة فيما تعطى.

مكتبة مشكاة الإسلامية

واعلم أنني لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والقوة على العدو إلا وأنت عندي أمن من موضعه الذي هو فيه وخواتمه التي هي عليه فحقق ظني باختياري إياك أحقق ظنك في رجائك إياي: ولا تتعوض بخير شراً ولا برفعة ضعة ولا بسلامة ندامة ولا بأمانة خيانة.

ولما ولي يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان قال له: إن أباك كفى أخاه عظيماً وقد استكفيتك صغيراً فلا تتكلن على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك.

وإياك مني قبل أن أقول إياي منك فإن الظن إذا أخلف مني فيك أخلف منك في.

وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه وقد أتعبك أبوك فلا تريحن نفسك.

وقال يزيد: حدثني أبي: أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر معاوية حتى أخبر به فرجع إليه.

فلما قرب منه نزل إليه فأعرض عنه فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل.

فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية أنت صاحب الموكل آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: ولم ذاك قال: لأنا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهنهم من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت.

فقال لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب وإن كان باطلاً إنها خدعة أديب وما أمرك به ولا أنهاك عنه.

فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه.

وقال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا من هو من ثقاتهم حتى يرجعوا.

فلما قدمنا أتيت يرفاً فقلت: يا يرفاً أني سائل مسترشد أخبرني أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأوماً إلى الخشونة.

فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف ولثت رأسي بعمامة دكنا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ثم دخلنا على عمر فصفا بين يديه وصعد فينا نظره و صوب فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني فقال: من أنت قلت: الربيع بن زياد الحارثي.

قال: وما تتولى من أعمالنا قلت: البحرين.

قال: فكم ترزق قلت: خمسة دراهم في كل يوم قال كثير فما تصنع بها قلت: أتقوت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لي فما فضل منها فعلى فقراء المسلمين.

فقال: لا بأس ارجع إلى موضعك.

فرجعت إلى موضعي من الصف.

ثم صعد فينا و صوب فلم تقع عينه إلا علي فدعاني فقال: كم سنوك فقلت: ثلاث وأربعون سنة.

قال: الآن حين استحكمت.

ثم دعا بالطعام وأصحابي حديثو عهد بلين العين وقد تجوعت له فأتى بخبز يابس وأكسار بعير.

فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت أكل فأجيد الأكل فنظرت فإذا به يلحطني من بينهم.

ثم سبقت مني كلمة تمنيت أن سخت في الأرض ولم ألفظ بها فقلت: يا أمير المؤمنين إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام هو أليين من هذا فزجرني وقال: كيف قلت قلت: أقول: لو نظرت يا أمير المؤمنين إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ويطبخ لكم اللحم كذلك فتؤتى بالخبر لينا وباللحم غريصاً.

فسكن عن غربه وقال: هذا قصدت قلت: نعم.

قال: يا ربيع إنا لو نشاء لمألنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال: " [أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها](#) " ثم أمر أبا موسى أن يقرني على عملي وأن يستبدل بأصحابي.

قوله: لثتها على رأسي يقال: رجل ألوث إذا كان شديداً وذلك من اللوث ورجل ألوث إذا كان أهوج وهو مأخوذ من اللوثة يقال: لثت عمامة على رأسي يقول: أدرتها بعضها على بعض على غير استواء.

وقول: صلائق هو شيء يعمل من اللحم فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى.

يقال: صلقت اللحم إذا طبخته وصلقته إذا شويته.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقوله: غريضاً يقول: طرياً يقال: لحم غريض تراد به: الطرءة.

قال العتابي: إذا ما فاتني لحم غريض ضربت ذراع بكري فاشتويت وقوله: سبائك يريد الحواري من الخبز وذلك أنه يسبك فيؤخذ خالصه والعرب تسمي الرقاق: السبائك.

الصناب: صباغ يتخذ من الزبيب والخردل ومنها قيل للفرس: صنابي إذا كان ذلك اللون.

قال جرير: تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب وقوله: أكسار بعير فالكسر والعصل والجزل: العظم يفصل ما عليه من اللحم.

وقول: نعى على قوم شهواتهم أي عابهم بها ووبخهم.

ومما يصحب به السلطان: أن لا يسلم على قادم بين يديه وإنما استن ذلك زياد وذلك أن عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد فرحب به معاوية وألطفه وقرب مجلس ولم يكلمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً! قال: لا ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم بين يدي أمرائهم.

فقال له معاوية: كف عنه يا بن عباس فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت.

دخل أبو سلم على أبي العباس وعنده المنصور فسلم على أبي العباس فقال له: يا أبا مسلم هذا أبو جعفر! فقال له: يا أمير المؤمنين هذا موضع لا يقضى فيه إلا حقك.

أبو حاتم عن العتبي قال: قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقعدهما بين يديه وجعل يسألهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية فقال له معاوية: أعملي تعيب وإلي تقصد هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملي.

قال عمرو: فعلت أنه يعملني أبصر مني بعمله وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك فرفعت يدي فلطمت معاوية.

فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك قم يا معاوية فاقتص منه.

قال معاوية: إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونه.

فأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: لهذا بعثت إلي! أخوه وابنه عمه وقد أتى غير كبير وقد وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتفم عنه نصيحة وإن استتقلها وليكن كلامه له كلام رفق لا كلام خرق حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك ولكن يضرب له الأمثال ويخبره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه.

وقالوا: من تعرض للسلطان أرداه ومن تطامن له تخطاه فشبهوا السلطان في ذلك بالريح الشديدة التي لا تضر بما لان لها وتمایل معها من الحشيش والشجر وما استهدف لها قصمته.

قال الشاعر: إن الرياح إذا ما عصفت قصفت عيدان نيع ولا يعبان بالرتم وقالوا: إذا زادك السلطان إكراما فزده إعظاما وإذا جعلك عبد فاجعله ربا.

وقال شبيب بن شيبه: ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وقرأت في كتاب للهند: أنه أهدى لملك ثياب وحلى فدعا بامرأتين له وخير أحظاهما عنده بين اللباس والحلى وكان وزيره حاضرا فنظرت المرأة إليه كالمستشير له.

فغمزها باللباس تغضينا بعينه فلحظه الملك فاختارت الحلية لئلا يفتن للغمزة وصار اللباس للأخرى.

فأقام الوزير أربعين سنة كاسرا عينه لئلا تقرر في نفس الملك وليظن أنها عادة وخلقة.

اختيار السلطان لأهل عمله لما وجه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك فإنه وجهك الذي به تلقى الناس إن أحسن فأنت المحسن وإن أساء فأنت المسيء وصاحب شرطتك فإنه سوطك وسيفك حيث وضعتهما فقد رضعتهما.

عمال القدر.

قال: وما عمال القدر قال أن نختار من كل كورة رجلا لعملك فإن أصابوا فهو الذي أردت وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عدي بن أرطاة: أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني فول القضاء أنفذهما فجمع بينهما فقال له إياس: أيها الرجل سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن البصري وابن سيرين - وكان القاسم يأتي الحسن وابن سيرين وكان إياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أقره مني وأعلم بالقضاء فإن كنت كاذباً فما ينبغي أن توليني وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي فقال له إياس: إنك جئت برجل فوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف.

قال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية دلني على قوم من القراء أولهم فقال له: القراء ضربان: ضرب يعملون للأخرة ولا يعملون لك وضرب يعملون للدنيا فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولهم.

أيوب السختياني قال: طلب أبو قلابة لقضاء البصرة فهرب إلى الشام فأقام حيناً ثم رجع.

قال أيوب: فقلت له: لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران.

قال: يا أيوب إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يسبح! وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه: دلوني على رجل أستعمله.

فقال له روح بن زنباع: أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم وإن تركتموه لم يأتكم ليس بالملحف طلباً ولا بالممعن هرباً: عامر الشعبي.

فولاه قضاء البصرة.

وسأل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان.

فقال له: ما تقول في فلان قال: مصنوع له وليس بصاحبها.

قال: ففلان قال: سريع الغضب بعيد الرضا يسأل الكثير ويمنع القليل و يحسد أمه وينافس أباه ويحقر مولاه.

قال: ففلان قال: يكافئ الأكفاء ويعادي الأعداء ويفعل ما يشاء.

قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

وأراد عمر بن عبد الخطاب رضي الله عنه أن يستعمل رجلاً.

فبدر الرجل فطلب منه وطلب رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله فقال له: إنا لا نستعمل على عملنا من يريده.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبي ولاية.

فقال: يا عم نفس تحيها خير من ولاية لا تحيها.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فر من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يختار للجنلة إلا زاهد غير طالب لها.

وقال إياس بن معاوية: أرسل إلى إلي عمر بن هبيرة فأتته فساكتني فسكت فلما أطلت قال: هيه.

قلت: سل ما بدا لك.

قال: أتقرأ القرآن قلت: نعم.

قال أتقرض الفرائض قلت: نعم.

قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً قلت: نعم.

قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً قلت: أنا بها أعرف.

قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي.

قلت إن خلافاً ثلاثاً لا أصلح معها لليل.

قال: و ما هي قلت: دميم كما ترى وأنا حديد وأنا عي.

قال: أما دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن الناس بك وأما العي فإني أراك تعرب عن نفسك وأما الحدة فإن السوط يقومك.

قم قد وليتك.

قال: فولاني وأعطاني مائة درهم.

فهي أول مال تمولته.

وقال الأصمعي: ولي سليمان بن حبيب المحاربي قضاء دمشق لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز رحمه الله وبزيد وهشام.

وأراد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مكحولاً على القضاء فأبى عليه.

قال له: وما يمنعك قال مكحول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقض بين الناس إلا ذو شرف في قومه وأنا مولى.

ولما قدم رجال من الكوفة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون سعد بن أبي وقاص قال: من يعذرني من أهل الكوفة إن وليت عليهم التقى ضعفوه وإن وليت عليهم القوي فجرروه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال له المغيرة: يا أمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه.
والقوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره.

قال: صدقت فأنت القوي الفاجر فاخرج إليهم.

فخرج إليهم فلم يزل عليهم أيام عمر وصدرا من أيام عثمان وأيام معاوية
حتى مات المغيرة.

حسن السياسة وإقامة المملكة كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن
يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته.

فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي فأدنبت السيد المطاع في قومه
ووليت الحرب الحازم في أمره وقلدت الخراج الموفر لأمانته.

وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيه حظاً من لطيف عنايتي
ونظري.

وصرفت السيف إلى النطف المسيء والثواب إلى المحسن البريء فخاف
المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

وقال أردشير لابنه: يا بني: إن الملك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر
فالملك أس والعدل حارس.

والبناء ما لم يكن له أس فمهذوم والملك ما لم يكن له حارس فضائع.

يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب وعطيتك لأهل الجهاد وبشرك لأهل
الدين وسرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول.

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان أن يلتزمه العدل في ظاهر أفعاله
لإقامة أمر سلطانه وفي ضميره لإقامة أمر دينه.

فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان ومدار السياسة كلها على العدل
والإنصاف لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما مع
ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها.

وينبغي لمن كان سلطاناً أن يقيم على نفسه حجة الرعية ومن كان رعية أن
يقيم على نفسه حجة السلطان.

وليكن حكمه على غيره مثل حكمه على نفسه.

وإنما يعرف حقوق الأشياء من يعرف مبلغ حدودها ومواقع أقدارها.

ولا يكون أحد سلطان حتى يكون قبل ذلك رعية.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال عبد الملك بن مروان لبيه: كلكم يترشح لهذا الأمر ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول ومال مبدول وعدل تطمئن إليه القلوب.

ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل في وعد ولا وعيد ولا أمر ولا نهى ولا عاقبت للغضب واستكفيت وأثبت على الغناء لا للهوى وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت ووداً لم تشبه جراً وعممت بالقوت ومنعت الفضول.

وذكر أعرابي أمير فقال: كان إذا ولي لم يطابق بين جفونه وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم فالمحسن راج والمسيء خائف.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلح لهذا الأمر إلا اللين من غير ضعف القوي من غير عنف.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت ما السياسة قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها وكتب أرسطوطاليس إلى الإسكندر: أن املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها فإن طلبك ذلك منها بإحسانك هو أدام بقاء منه باعتسافك.

وأعلم أن تقول قدرت على أن تفعل فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل.

وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضا وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أكرم قريش وابن كريمها من يضحك في الغضب ولا ينام إلا على الرضا ويتناول ما فوقه من تحته.

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً.

فقيل له: وكيف ذلك قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها.

وقال عمرو بن العاص رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها فوقف في قلب عسكره فجعل يلحظ ميمنته فيرى فيها الخلل فيبدر إليه من يسده ثم يفعل ذلك بميسرته فتغنيه اللحظة على الإشارة.

فدخله زهو مما رأى فقال: يا ابن العاص كيف ترى هؤلاء وما هم عليه فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا فما رأيت أحد تآتى له من طاعة رعيته ما تآتى لك من هؤلاء.

فقال: أفتدري متى يفسد هذا وفي كم ينتقض جميعه قلت: لا.

قال: في يوم واحد.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فأكثر التّعجب.

قال: إي والله وفي بعض يوم قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين قال: إذا كذبوا في الوعد والوعيد وأعطوا على الهوى لا على الغناء فسد جميع ما ترى.

وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي إذ ولاه الناس أمرهم بعد علي رضي الله عنه: أن شمر للحرب وجاهد عدوك واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك وول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائهم.

وقالت الحكماء: أسوس الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرغبة.

وقال أبرويز لابنه شيرويه: لا توسعن على جندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيقن عليهم ضيقاً يضجون به منه ولكن أعطهم عطاء قصداً وامنعهم منعاً جميلاً وابسط لهم في الرجاء ولا تبسط لهم في العطاء.

ونحو هذا قول المنصور لبعض قواده: صدق الذي قال: أجمع كليك يتبعك وسمنه يأكلك.

فقال له أبو العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجمته أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه من الحبس: اعلم أن كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقن دماً وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك.

فاحترس في غضبك من قولك أن يخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يخف فإن الملوك تعاقب حزماً وتعفو حلماً.

واعلم أنك تجل من الغضب وأن ملكك يصغر عن رضاك فقدر لسخطك من العقاب كما تقدر لرضاك من الثواب.

وخطب سعيد بن سويد بحمص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن للإسلام حائطاً منيعاً وباباً وثيقاً فحائط الإسلام الحق وبابه العدل.

ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان.

وليسيت شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل.

وقال عبد الله بن الحكم: إنه قد يضطغن على السلطان رجلان: رجل أحسن في محسنين فأثبوا وحرّم ورجل أساء في مسيئين فعوقب وعفي عنهم.

فينبغي للسلطان أن يحترس منهما.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وفي كتاب التاج: أن أبرويز كتب لابنه شيرويه يوصيه بالرعية: و ليكن من تختاره لولايتك امراً كان في ضعة فرفعته أو ذا شرف كان مهملاً فاصطنعته.

ولا تجعله امراً أصبته بعقوبة فاتضع لها ولا امراً أطاعك بعد ما أذلتته ولا أحداً ممن يقع في قلبك أن إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوته.

وإياك أن تستعمله ضرعاً غمراً كثيراً إعجابه بنفسه قليلاً تجربته في غيره ولا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السن من جسمه.

بسط المعدلة ورد المظالم الشيباني قال: حدثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فنظر المأمون إلى يحيى بن أكرم.

فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله تكلمي بحاجتك.

فقالت: يا خير منتصف يهدى له الرشد وبا إماماً به قد أشرق البلد تشكو إليك - عميد القوم - أرملة عدي عليها فلم يترك لها سبب وابتز مني ضياعي بعد منعها ظلماً وفرق مني الأهل والولد فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول: في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وأقرح مني القلب والكبد هذا أذان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد فالمجلس السبت - إن يقض الجلوس لنا ننصفك منه - وإلا المجلس الأحد قال: فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومات إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم.

فجعل كلامها يعلو كلام العباس.

فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاحفضي من صوتك.

فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه.

ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وظلم العباس بظلمه لها وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي بلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

العتبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم ابن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه فقال: إن أمير المؤمنين جراني في خصومة بينه وبين إبراهيم.

فقال القاضي شاهديك على الجراية.

فقال: أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل وليس بيني وبينه إلا هذه السفرة! قال: لا ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا بيينة.

قال: فقام الحرسى فدخل على هشام فأخبره.

فلم نلبث أن تقععت الأبواب وخرج الحرسى وقال: هذا أمير المؤمنين.

وخرج هشام فلما نظر إليه القاضي قام فأشار إليه وبسط له مصلى فقعد عليه وإبراهيم بين يديه.

وكنا حيث نسمع بعض كلامهم وبخفى عنا بعضه قال: فتكلما وأحضرا البيينة فقضى القاضي على هشام بن عبد الملك.

فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرق فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك.

فقال له هشام: هممت أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك.

قال: أما والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق.

فقال هشام: يا إبراهيم استرها علي.

قال: لا ستر الله علي إذا ذنبي يوم القيامة إن سترتها.

قال: فإني معطيك عليها مائة ألف.

قال إبراهيم: فسترتها عليه أيام حياته ثمناً لما أخذت منه وأذعتها بعد مماته تزيينا له.

قال: وورد على الحجاج بن يوسف سليك بن سلكة فقال: أصلح الله الأمير أرعني سمعك واغضض عني بصرك واكفف عني غربك.

فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة.

قال: قل.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمي وهدم منزلي وحرمت عطائي.

قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر: جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب فقال: أصلح الله الأمير إنني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا.

قال: وما ذاك قال: قال الله تعالى: " يا أيها العزيز إن له أياً شيخاً كسراً فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين.

قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون "

قال الحجاج: علي بيزيد بن أبي مسلم.

فمثل بين يديه.

فقال: افكك لهذا عن اسمه واصكك له بعطائه وابن له منزل ومر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال معاوية: إنني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصرأ إلا الله.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته.

فكتب إليه: حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم.

وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم وهو والي أرض فارس: يا ربيع آثر الحق والنزم القصد وابسط العدل وارفق بالرعية واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه وأظلمهم من ظلم الناس لغيره.

وقال ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال: استعمل ابن عامر عمرو بن أصبغ على الأهواز فلما عزله قال له: ما جئت به قال له: ما معي إلا مائة درهم وأثواب.

قال: كيف ذلك قال: أرسلتني إلى بلد أهله رجلاً: رجل مسلم له ما لي وعليه ما علي ورجل له ذمة الله ورسوله فوالله ما دريت أين أضع يدي.

قال: فأعطاه عشرين ألفاً.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الظلم ظلمات يوم القيامة.

▲ صلاح الرعية بصلاح الإمام

قالت الحكماء: الناس تبع لإمامهم في الخير والشر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سوق فما نفق عنده جلب إليه.

ولما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال: إن الذي أدى هذا لأمين! قال له رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين الله يؤدون إليك ما أدبت إلى الله تعالى فإذا رتعت رتعوا.

ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العين صلحت سواقيها.

الأصمعي قال: كان يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء.

واطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فأنكر شيئاً فقال لوكيله: ويحك! إن لأطنك تخونني.

قال: أفتظن ذلك ولا تستيقنه قال: وتفعله قال: نعم والله إنني لأخونك وإنك لتخون أمير المؤمنين وإن أمير المؤمنين ليخون الله فلعن الله شر الثلاثة.

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه قالت الحكماء لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالموودة والنصيحة ولا تنفع الموودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف.

ثم على الملوك بعد ذلك ألا يتركوا محسناً ولا مسيئاً ما دون جزاء فإنهم إذا تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الأمر وبطل العمل.

وقال الأحنف بن قيس.

من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ومن غص بالماء فلا مساع له ومن خانه ثقاته فقد أتى من مأمنه.

وقال العباس بن الأحنف: قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أحزاني وأوجاعي كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي وقال آخر: كنت من كربتي أفر إليهم فهم كربتي فأين الفرار وأول من سبق إلى هذا المعنى عدي بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر: وقال آخر: إلى الماء يسعى من يغص بريقه فقل أين يسعى من يغص بماء وقال عمرو بن العاص: لا سلطان إلا بالرجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل.

وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأواجه.

وقالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحب يحسن القول ولا يحسن الفعل.

و لا خير في القول إلا مع الفعل ولا في المال إلا مع الجود ولا في الصدق إلا مع الوفاء ولا في الفقه إلا مع الورع ولا في الصدقة إلا مع حسن النية ولا في الحياة إلا مع الصحة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقالوا: إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سواء امتنع خيره من الناس ولم ينتفع منه بمنفعة وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح فلا يستطيع أحد أن يدخله وإن كان محتاجاً إليه.

▲ صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفرع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها الذي يرتاد لها أطيب المراعي ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ويكنها من أذى الحر والقر.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرقيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله وبسمعهم وينظر إلى الله ويربهم وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاه من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك يسلمونك في قعره فريداً وحيداً.

فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه.

وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه واذكر يا أمير المؤمنين " [إذا بعث ما في القبور](#).

مكتبة مشكاة الإسلامية

وحصل ما في الصدور " فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فتبوء بأوزارك مع أوزارك وتحمل أثقالك مع أثقالك.

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك وبأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك.

و لا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبال الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي فلم ألك شفقة ونصحا فأنزل كتابي إليك كمدأوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هيبة الإمام في تواضعه قال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أكبر من شرفك.

وقال عبد الملك بن مروان: إن أفضل الرجال من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وأنصف عن قوة.

و ذكر عن النجاشي أمير الحبشة: أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه فأعظم ذلك أساقفته فقال لهم: إني وجدت فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام يقول له: " إذا أنعمت على عبدي نعمة فتواضع لها أتمتها عليه "

وإني ولد لي الليلة غلام فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى.

وقال ابن قتيبة: لم يقل في الهيبة مع التواضع بيت أبدع من قوال الشاعر في بعض خلفاء بني أمية: يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلم إلا حين يتسم وأحسن منه عندي قول الآخر.

وقال أبو العتاهية: يا من تشرف بالدنيا وطينتها ليس التشرف رفع الطين بالطين إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في زي مسكين ذاك الذي عظمت في الله نعمته وذاك يصلح للدنيا وللدن قال الحسن بن هانئ في هيبة السلطان مع محبة الرعية: إمام عليه هيبة ومحبة ألا حبذا ذاك المهيب المحب وقال آخر في الهيبة وإن لم تكن في طريق السلطان:

مكتبة مشكاة الإسلامية

بنفس من لو مر برد بنانه على كيدي كانت شفاء أنامله ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله ولا بن هرمة في المنصور: له لحظات عن حفاقي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل كريم له وجهان وجه لدى الرضا أسيل ووجه في الكريهة باسل فأم الذي أمنت أمنة الردى وأم الذي أوعدت بالثكل تاكل وليس بمعطى العفو من غير قدرة ويعفو إذا ما مكنته المقاتل أهاشم يا فتى دين ودنيا ومن هوى في اللباب من اللباب أهابك أن أبوح بذات نفسي وتركي للعتاب من العتاب وقال أشجع بن عمرو في هيبة السلطان: منعت مهابتك النفوس حديثها بالشيء تكرهه وإن لم تعلم ومن الولاة مفخم لا يتقى والسيف تقطر شفرتها من الدم وقال أيضا لهارون الرشيد: وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام وقال الحسن بن هانئ في الهيبة فأفرط: ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان ما تنطوي عنه القلوب بفجرة إلا يكلمه بها اللحظان حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئاً وأحبه أحبه بسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه ودمه وجميع أعضائه فالنطف التي في الأصلاب داخلة في هذه الجملة.

قال ألا ترثي لمكتئب يحبك لحمه ودمه ألا ترثي لمكتئب يحبك لحمه ودمه وقال المكفوف في آل محمد عليه السلام: أحبكم حباً على الله أجره تضمنه الأحشاء واللحم والدم وفي مثل هذا قول الحسن بن هانئ: وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق فإذا خافه أهل الشرك خافته النطف التي في أصلابهم على المجاز الذي ذكرناه.

ومجاز آخر: أن النطف التي أخذ الله عليها ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هي لا بد فاعلة من قبل أن تفعله كما جاء في الأثر: إن الله عز وجل عرض على آدم ذريته فقال: هؤلاء أهل الجنة ويعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء أهل النار ويعمل أهل النار يعملون.

ومن قولنا في الهيبة: يا من يجرد من بصيرته تحت الحوادث صارم العزم رعت العدو فما مثلت له إلا تفرع منك في الحلم أضحي لك التدبير مطرداً مثل اطراد الفعل للاسم رفع الحسود إليك ناظره فرأك مطلعاً مع النجم تسمو العيون إلى إمام عادل معطى المهابة نافع ضرار ونرى عليه إذا العيون لمحنه سيما الحليم وهيبة الجبار حسن السيرة والرفق بالرعية قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: " [ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك](#) ".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير كله.

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما: أشيرا علي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً فبر أباك واحفظ أخاك وارحم ابنك.

وقال له محمد بن كعب: أحب للناس ما تحب لنفسك واکره لهم ما تكره لنفسك واعلم أنك لست أول خليفة.

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت ما لك لا تنفذ في الأمور فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور.

فقال له عمر: لا تعجل يا بني فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه وتكون فتنة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة أما بعد فإن أمكنتك القدرة على المخلوق وقال المنصور لولده عبد الله المهدي: لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه فإن فكرة العاقل مرآة تریه حسناته وسيّاته.

واعلم أن الخليفة لا تصلحه إلا التقوى والسلطان لا تصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل.

وأولى الناس بالعفو أقدّره على العقوبة وانقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

وقال خالد بن عبد الله القسري لبلال بن أبي بردة: لا يحملنك فضل المقدرة على شدة السطوة ولا تطلب من رعيّتك إلا ما تبذله لها فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى دين يحجزه وحياء يكفه وعقل يعقله وإلى تجربة طويلة وعين حفيظة وأعراق تسري إليه وأخلاق تسهل الأمور عليه وإلى جليس شفيق وصاحب رفيق وإلى عين تبصر العواقب وقلب يخاف الغير.

ومن لم يعرف لؤم الكبر لم يسلم من فلتات اللسان ولم يتعاضم ذنباً وإن عظم ولا ثناء وإن سمح.

وكتب أردشير إلى رعيّته: من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين والأساور الذين هم حفظة البيضة والكتاب الذين هم زينة المملكة وذوي الحرث الذين هم عماد البلاد: السلام عليكم فإننا بحمد الله إليكم سالمون.

فقد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتها الموظفة عليها ونحن مع ذلك كاتبون بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو ولا تحتكروا فيشملمكم القحط وتزوجوا في الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب ولا

مكتبة مشكاة الإسلامية

تعدوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تبقى على أحد ولا ترفضوها فإن الآخرة لا تدرك إلا بها.

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر وقال له حين ودعه: أرسل حكيماً ولا توصه.

أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندكم حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم.

وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق.

واستشير جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى.

وإن كان بك غضب على أحد من رعيك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمره فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة.

ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض.

أقول هذا واستخلف الله عليك.

أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبي قال: قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة استعملت رجلاً فكسر خراجه فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه.

فكتبت إليه: إن هذا أدب سوأ من قبلي.

فكتب إلي: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية ولا نشئد جميعاً فنحمل الناس على المهالك ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرفافة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جده هزله وغلب رأيه هواه وجعل له الفكر صاحباً يحسن له العواقب وأعرب عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده.

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولي عهده: يا بني اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توان.

وقالوا: لا ينبغي للعاقل أن يستصغر شيئاً من الخطأ أو الزلل فإنه متى ما استصغر الصغير يوشك أن يقع الكبير فقد رأينا الملوك تؤتى من العدو

مكتبة مشكاة الإسلامية

المحتقر ورأينا الصحة تؤتى من الداء اليسير ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيتها إلا لإحدى ثلاث: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضغناً أو لئيم بلغ به إلى ما لا يستحق فأورثه ذلك بطراً أو رجل منع حظه من الإنصاف فشكا تفريطاً.

ومن كتاب للهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيف حولها النسور.

وقيل لملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك فقال: دفع شغل اليوم إلى غد والتماس عدة بتضييع عدد واستكفاء كل مخدوع عن عقله.

والمخدوع عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه أو أثيب ثواباً لا يستوجه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مر السحاب ولا تطلبوا أثراً بعد عين.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزم الخلفاء.

كانت عائشة رضي الله عنها إذا ذكر عمر قالت: كان والله أحوزياً نسيج وحده وقد أعد للأمور أقرانها.

وقال المغيرة بن شعبة: ما رأيت أحداً هو أحزم من عمر كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يخدع.

وقال عمر: لست بخب والخب لا يخدعني.

ومر عمر رضي الله عنه ببنيان يبني بآجر وجص فقال: لمن هذا قيل: لعاملك على البحرين.

فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.

فأرسل فشاطره ماله.

وكان سعد بن أبي وقاص يقال له: المستجاب لقول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا دعوة سعد.

فلما شاطره عمر ماله قال له سعد: لقد هممت.

قال له عمر: بأن تدعو علي قال: نعم.

قال: إذا لا تجدني بدعاء ربي شقياً.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وهجا رجل الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية فقال: ألم تر أن الله أظهر دينه وسعد باب القادسية معصم فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه فقطعت يده وبكم لسانه.

ولما عزل عمر أبا موسى الأشعري عن البصرة وشاطره ماله وعزل أبا هريرة عن البحرين وشاطره ماله وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أنهما عندك إحداهما عقيلة والأخرى من بنات الملوك قال: أما عقيلة فإنها جارية بيني وبين الناس وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردت بها غلاء الفداء.

قال: فما جفتان تعملان عندك قال: رزقتني شاة في كل يوم فيعمل نصفها غدوة ونصفها عشية.

قال: فما مكيالان بلغني أنهما عندك قال: أما أحدهما فأوفي به أهلي وديني. وأما الآخر فيتعامل الناس به.

فقال: ادفع إلينا عقيلة والله إنك لمؤمن لا تغل أو فاجر مبل أرجع إلى عملك عاقصاً بقرنك مكتسعاً بذنبك.

والله إن بلغني عنك أمر لم أعدك.

ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت.

قال: قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده.

قال: ليس لك ذلك.

قال بلى والله وأوجع ظهرك.

ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه ثم قال: إيت بها.

قال: احتسبتها عند الله.

قال: ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً.

أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين! ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر.

وأميمة أم أبي هريرة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وفي حديث أبي هريرة قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدو الله وعدو كتابه سرقت مال الله قال: فقلت: ما أنا عدو الله ولا عدو كتابه ولكنني عدو من عاداهما ما سرقت مال الله.

قال: فمن أين لك عشرة آلاف قلت: خيل تنتاجت وعطايا تلاحقت وسهام تتابعت.

قال: فقبضها مني.

فلما صليت الصبح استغفرت لأمير المؤمنين.

فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل قلت: لا.

قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلوات الله عليه.

قلت: قال: ثم دعا الحارث بن كعب بن وهب فقال: ما قلاص وأعبد بعثها بمائتي دينار قال: خرجت بنفقة معي فتجرت فيها.

فقال: أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين! أدها.

فقال: أما والله لا عملت عملاً بعدها أبداً.

قال: انتظر حتى استعملك.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد فإنه بلغني أنك فشيت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد.

وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك فاكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين.

سلام عليك.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد.

فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي.

وإني اعلم أمير المؤمنين أنني ببلد السعر به رخيص وأني من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله وليس في رزق أمير المؤمنين سعة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك فأقصر أيها الرجل فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك إن رجعنا إليها عشنا بها.

ولعمري إن عندك من لا يذم معيشتته ولا تدم له.

وذكرت أن عنك من المهاجرين الأولين من هو خير مني فأنى كان ذلك ولم نفتح قفلك ولم نشركك في عملك.

فكتب إليه عمر: أما بعد فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ونسقك الكلام في غير مرجع! وما يغني عنك أن تزكي نفسك وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك.

فإنكم أيها الرهط الأمراء جليستم على عيون المال ثم لم يعوزكم عذر تجمعون لأبنائكم وتمهدون لأنفسكم.

أما تجمعون العار وتورثون النار والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيراً.

فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئاً.

فقال له عمر: أتحرمون طعامنا فقال: لو قدمت إلي طعام الضيف أكلته ولكنك قدمت إلي طعاماً هو مقدمة شر.

والله لا أشرب عندك الماء فإكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه.

فشاطره ماله بأجمعه حتى بقيت نعلاه.

فأخذ إحداهما وترك الأخرى.

فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة قبح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل.

والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها وما منهما إلا في نمرة لا تبلغ رسغيه والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزوراً بالذهب والفضة.

قال له محمد ابن مسلمة: اسكت والله عمر خير منك وأما أبوك وأبوه ففي النار.

والله لولا الزمان الذي سبقك فيه لألفيت مقتعد شاة يسرك غزرها ويسوءك بكؤها.

فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلم يخبر بها عمر.

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على الشام بمال وأدهم وكتب إلى أبي سفيان أن يدفع ذلك إلى عمر - يعني بالأدهم القيد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين - وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد.

قال الفرزدق: أو لجدل الأدهم - فخرج الرسول حتى قدم على سفيان بالمال والأدهم قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر واحتبس المال لنفسه.

فلما قرأ عمر الكتاب قال له: فأين المال يا أبا سفيان قال: كان علينا دين ومعونة ولنا في بيت المال حق فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به.

فقال عمر: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال.

قال: فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال.

فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم.

فلما قدم الرسول على معاوية قال له: رأيت أمير المؤمنين اعجب بالأدهم قال: نعم وطرح فيه أباك.

قال: ولم قال جاءه بالأدهم وحبس المال قال: إي والله والخطاب لو كان لطرحة فيه.

زار أبو سفيان معاوية بالشام فلما رجع من عنده دخل على عمر.

فقال: أجزنا أبا سفيان.

قال: ما أصبنا شيئاً فنجيزك منه.

فأخذ عمر خاتمه فبعث به إلى هند وقال للرسول: قل لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخرجين اللذين جئت بهما فأحضرهما.

فما لبث عمر أن أتى بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم.

فطرجهما عمر في بيت المال.

فلما ولي عثمان ردهماً عليه.

فقال أبو سفيان: ما كنت لآخذ مالا عابه علي عمر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ولما ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن أبي سفيان الطائف وصدقاتها ثم عزله تلقاه في بعض الطريق فوجد معه ثلاثين ألفاً فقال: أنى لك هذا قال: والله ما هو لك ولا للمسلمين ولكنه مال خرجت به لضيعة اشتريها.

فقال عمر: عاملنا وجدنا معه مالاً ما سيبه إلا بيت المال ورفع.

فلما ولى عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهاً قال: والله إن بنا إليه لحاجة ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك.

الفحزمي قال: ضرب عمر رجلاً بالدرة فنادى: يا لقصي.

فقال أبو سفيان: يا بن أخي لو قبل اليوم تنادي قصياً لأتتك منها الغطاريف.

فقال له عمر: اسكت لا أبالك.

قال أبو سفيان: ها ووضع سبابته على فيه.

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلي مروان بن محمد - وبلغه عنه تلو في بيعته -: أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام.

فأنته بيعته.

ولما منع أهل مرو أبا غسان الماء وزجته إلى الصحاري كتب إليهم أبو غسان: إلى بني الأستاه من أهل مرو ليمسني الماء أو لتصبحنكم الخيل.

فما أمسى حتى أتاه الماء.

فقال: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.

وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي: أما بعد فقد بلغني ما كان من قطع الفسقة الطريق ما بلغ فلا الطريق تحمي ولا اللصوص تكفي ولا الرعية ترضي وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمنفسح الأمل! وأيم الله لتكفيني من قبلك أو لأوجهن إليك رجلاً لا تعرف مرة من جهم ولا عدي من رهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد فإن وكيع بن حسان كان بالبصرة منه ما كان ثم صار لصاً بسجستان ثم صار إلى خراسان فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه.

وكان على شرطة قتيبة فعزله وولى الضبي عم مسعود بن الخطاب.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وبلغ الحجاج أن قوماً من الأعراب يفسدون الطريق فكتب إليهم: أما بعد فإنكم قد استخفتم الفتنه فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنهون وإني أهم أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى والديار خراباً.

فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق.

التعرض للسلطان والرد عليه

قالت الحكماء: من تعرض للسلطان أرداه ومن تطامن له تخطاه وشبهوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضر بما لان له من الشجر ومال معها من الحشيش وما استهدف لها من الدواح العظام قصفته.

قال الشاعر: إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نبع ولا يعبان بالرم وقال حبيب بن أوس - وهو أحسن مل قيل في السلطان -: هو السيل إن واجهته انقدت طوعه وتقتاده من جانبه فيتبع وقال آخر: هو السيف إن لاينته لان منته وحداه إن خاشنته خشنان وقال معاوية لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت فقال: لقد أكلت في عرس أمك يا أمير المؤمنين.

قال: عند أي أزواجها قال: عند حفص ابن المغيرة.

قال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب العصبي ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هذا هو القائل في معاوية بن أبي سفيان: نميل على جوانبه كأننا نميل إذا نميل على أينا وقدام عقيبة الأسدي على معاوية ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات: معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد أكلتم أرضنا فجردتمونا فهل من قائم أو من حصيد أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود فهبنا أمة هلكت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد فدعا به معاوية فقال: ما جرأك علي قال: نصحتك إذ غشوك وصدقتك إذ كذبوك.

فقال: ما أظنك إلا صادقاً وقضى حوائجه.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اتقوا الله.

فقام إليه رجل من عرض الناس فقال: أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين.

فأجاب أبو جعفر بلا فكرة ولا روية: سمعاً وطاعة لمن ذكر بالله وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وأما أنت فوالله ما الله أردت بها ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر وأهون بها لو كانت وأنا أحذرکم أيها الناس أختها فإن الموعظة علينا نزلت ومنا أخذت.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ثم رجع إلى موضعه من وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة فقال: " كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ".

فأمر به فضرب مائة سوط.

فكان يئن الليل كله ويقول: الموت! الموت! فأخبر هارون الرشيد أنه رجل صالح فأرسل إليه فاستحله فأحله.

المدائني قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن الوقت لا ينتظرك وإن الرب لا يعذرك.

قال صدقت: ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك.

من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه الرياشي عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هندي! ففعل ذلك.

فلما إنفقت معاوية عن صلته قال: لا يا بن أخي إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل فخذ ما جعلوا لك فأخذه.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها أمير من أبوك ففعل.

فقال له زياد: هذا يخبرك وأشار إلى صاحب الشرطة فقدمه فضرب عنقه.

فلما بلغ معاوية قال: ما قتله غيري ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية.

وخاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيها الأمير من أمك ففعل.

فقال له: النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل فولدت فأنجبت فإن كانوا جعلوا شيئاً فخذ.

دخل خريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان فنظر معاوية إلى ساقه فقال: أي ساقين لو أنهما على جارية! فقال له خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين.

قال: واحدة بأخرى والبادئ أظلم.

▲ تحلم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

مكتبة مشكاة الإسلامية

زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس فأتينا فدخلنا عليه فإذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق.

فأموا إلينا: أن اجلسا.

فجلسنا.

فأطرق عنا طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس فقال له: حدثني عن أبيك.

قال: نعم سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله.

فأمسك ساعة.

قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه.

ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عطني يا ابن طاوس.

قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: " ألم تر كيف فعل ربك بعاد.

إرم ذات العماد.

التي لم يخلق مثلها في البلاد.

وتمود الذين جابوا الصخر بالواد.

وفرعون ذي الأوتاد.

الذين طغوا في البلاد.

فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك ليالمرصاد "

قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه.

فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه.

ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة.

فأمسك عنه ثم قال: ناولني هذه الدواة: فأمسك عنه.

فأمسك عنه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: ما يمنعك أن تناولنيها قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها.

فلما سمع ذلك قال: قوماً عني قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.
قال مالك: فما زلت أعرف لا بن طاوس فضله.

أبو بكر بن أبي شيبة قال: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له: أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل ثم قال: اسمعوا من أميركم.

فرج بن سلام بن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدثني رجل من أهل المدينة كان ينزل بشق سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو بنظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش فقالوا لأبي جعفر: اجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب.

فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان قال أشرار من أهل بيت أشرار.

قالوا: أسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة - قال: ما تقول في الحسن بن زيد قال: يأخذ بالإحنة ويقضي بالهوى.

فقال الحسن: يا أمير المؤمنين والله لو سألته عن نفسك لرماك بدهية أو وصفك بشر.

قال: ما تقول في قال: اعفني.

قال: لا بد أن تقول.

قال: لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية.

قال: فتغير وجه أي جعفر.

فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين.

قال: اقعد يا بني فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور.

قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام فقال: يا أمير المؤمنين دعنا مما نحن فيه بلغني أن لك ابناً صالحاً بالعراق يعني المهدي.

قال: أما إنك قلت ذلك إنه الصوام القوام البعيد ما بين الطرفين.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج.

فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه.

قال الأصمعي: ابن أبي ذئب من بني عامر بن لؤي من أنفسهم.

قال: ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد - وذكر قوله فلم يعجب المأمون - فقال: لقد تيست فيها وتيس مالك.

قال الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أتيس.

فتغير وجه المأمون.

وقام الحارث بن مسكين فخرج وتندم على ما كان من قوله.

فلم يستقر منزله حتى أتاه رسول المأمون فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه ثم أقبل حتى دخل عليه فقربه المأمون من نفسه ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني فقال لنبية موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون: "[فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى](#)".

فقال: يا أمير المؤمنين أبوء بالذنب وأستغفر الرب.

قال: عفا الله عنك انصرف إذا شئت.

وأرسل أبو جعفر إلى سفيان الثوري فلما دخل عليه قال: عظني أبا عبد الله قال: وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت فأعظك فيما جهلت فما وجد له المنصور جواباً.

ودخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبد الله على عامل للخليفة فقال له: أبا النضر إنا تأتين كتب من عند الخليفة فيها وفيها ولا نجد بداً من إنفاذها فما ترى قال له أبو النضر: قد أتاك كتاب الله تعالى قبل كتاب الخليفة فأيهما اتبعت كنت من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشعبي: أن زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري وكان على الصائفة: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة واقسم ما سوى ذلك.

فكتب إليه: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقاً على عبد فاتقى الله لجعل له منهما مخرجاً.

ثم نادى في الناس فقسم فيهم ما اجتمع له من الفيء.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وإلى الشعبي فقال له: ما ترى أبا سعيد في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها فإن أنفذتها وافقت سخط الله وإن لم أنفذها خشيت على دمي فقال له الحسن: هذا عندك الشعبي فقيه أهل الحجاز.

فرق له الشعبي وقال له: قارب وسدد فإنما أنت عبد مأمور.

ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد فقال الحسن: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله.

يا ابن هبيرة إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله.

يا ابن هبيرة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فأعرضه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه وما خالف كتاب الله فلا تنفذه فإن الله أولى بك من يزيد وكتاب الله أولى بك من كتابه.

فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة.

وأمر للحسن بأربعة آلاف درهم وأمر للشعبي بألفين.

فقال الشعبي: رققنا فرفق لنا.

ونظير هذا قول الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في استخلاف يزيد فسكت عنه.

فقال: ما لك لا تقول فقال: إن صدقناك أسخطناك وإن كذبتناك أسخطنا الله فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله.

فقال له: صدقت.

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية أما بعد: فإنه من يلتمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس.

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإنه من يعمل بمساخت الله يصير حامده من الناس ذاماً له والسلام.

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزهري يوماً من عند هشام فقال: ما رأيت مثل أربع كلمات تكلم به اليوم إنسان عند هشام.

قيل له: و ما هن قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك فقال هاتهن.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها.

قال: هذه واحدة فهات الثانية.

قال: لا يغررك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً.

قال: هات الثالثة.

قال: إن للأعمال جزاء فاتق العواقب.

قال هات الرابعة.

قال: واعلم أن للأمور بغتات فكن على حذر.

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له رجل: يا أمير المؤمنين نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستوص به خيراً.

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذاب في كذا وكذا - يعني ابن الزبير - فقال: ما كان كذاباً.

فقال له يحيى بن الحكم: من أمك يا حار قال: هي التي تعلم.

قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أمك.

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات.

قال: باطل يا أمير المؤمنين أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي قل: بل نبي خليفة.

قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام: " [يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.](#)

[إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب "](#).

فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي قال: إن الناس ليغووننا عن ديننا.

الأصمعي عن إسحاق بن يحيى عن عطاء بن يسار قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: كذبت.

فقلت: أو المشورة قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما ندم من استشار ولا خاب من استخار.

وقدر أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي والحزم فقال: " وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله "

ولما هممت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمان بن أبي العاص وكان مطاعاً فيهم فقال لهم: لا تكونوا آخر العرب إسلاماً وأولهم ارتداداً.

فنفعهم الله برأيه.

وسئل بعض الحكماء: أي الأمور أشد تأييداً للفتى وأيتها أشد إضراراً به فقال: أشدها تأييداً له ثلاثة: مشاورة العلماء وتجربة الأمور وحسن التثبت.

وأشدها إضراراً به ثلاثة أشياء: الاستبداد والتهاون والعجلة.

وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه.

فقال له: لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره وسهله بوعره ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره.

وقد وعيت النصح وقبلته إذ كان مصدره من عند من لا يشك في مودته وصفاء غيبه ونصح جيبه وما وكان عبد الله بن وهب الراسي يقول: إياكم والرأي الفطير.

وكان يستعيز بالله من الرأي الدبري.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.

وأوصى ابن هبيرة ولده فقال: لا تكن أول مشير وإياك والهوى والرأي الفطير ولا تشيرن على مستبد ولا على وغد ولا على متلون ولا لجوج وخف الله في موافقة هوى المستشير.

فإن النماس موافقته لؤم وسوء الاستماع منه خيانة.

وكان عامر بن الظرب حاكم العرب يقول: دعوا الرأي يغب حتى يختمر وإياكم والرأي الفطير.

يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يطاع.

وكان المهلب يقول: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يبصره.

العتبي: قال: قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم.

قال الشاعر: الرأي كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي إلا بإصباح فاضم مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح العتبي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخل على الخليفة وآخر خارج من عنده.

قال: ثم رأيت أنه ليتقى كما يتقى البعير الأجرى فقال لي: يا أخا العراق اتهمنا القوم في سريرتنا ولم يقبلوا منا علانيتنا ومن ورائهم وورائنا حكم عدل.

ومن أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سبع لأهل الإمامة بعد إيقاع خالد بهم: يا بني حنيفة بعدا لكم كما بعدت عاد وثمود.

أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه كأنني أسمع جرسه وأبصر غيبه ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة وإني لما رأيتكم تتهمون النصح وتسفهون الحليم استنشعرت منكم اليأس وخفت عليكم البلاء.

والله ما منعكم الله التوبة ولا أخذكم على غرة ولقد أمهلكم حتى مل الواعظ ووهن الموعوظ.

وكنتم كأنما يعنى بما أتم فيه غيركم فأصبحتم وفي أيديكم من تكذبي التصديق.

ومن نصيحتي الندامة وأصبح في يدي من هلاككم البكاء ومن ذلكم الجزع وأصبح ما فات غير مردود وما بقي غير مأمون.

وقال القطامي في هذا المعنى: ومعصية الشفيق عليك مما تزيدك مرة منه استماعاً وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعاً كذاك وما رأيت الناس إلا إلى ما جر غاوبهم سراعاً وكان يقال: لا تستنشر معلماً ولا حائكاً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.

وأنشد في المعلمين: وكيف يرجى العقل والرأي عند من يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها.

وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق وهو الذي ضغطه الخف ولا لحاقب وهو الذي يحد رزا في بطنه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وينشد في الرأي بعد فوته: وعاجز الرأي مضياغ لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا ومن قولنا في هذا المعنى: فلئن سمعت نصيحتي وعصيتها ما كنت أول ناصح معصي وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم: لم يالكم مالك صفحاً ومغفرةً ولو ينفخ قين الحي في فحم

▲ حفظ الأسرار

وقالوا: سرك من دمك فانظر أين تريقه.

يعنون أنه ربما كان في إفشائه سفك دمك.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: ولا تفيش سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحا فإني رأيت غواة الرجال لا يتركون أديماً صحيحاً وقالت الحكماء: ما كنت كاتمهم من عدوك فلا تطلع عليه صديقك.

وقال عمرو بن العاص: ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته لأنني كنت أضيق صدراً منه حين استودعته إياه حتى أفشاه.

وقال الشاعر: إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر قال: ما قلبي له إلا قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملوك وإفشاء السر والتعرض للحرم.

وقال الوليد بن عتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسر إلي حديثاً ولا أراه يطوي عنك أفلا أحدثك به قال: لا يا بني إنه من كتم سره كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكاً.

وفي كتاب التاج.

أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحد إلا خالياً به فإنه أموت للسر وأحزم للرأي وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض.

فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة لأن الواحد رهن بما أفشي والثاني مطلق عنه بذلك الرهن والثالث علاوة فيه فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة ورهبة وإن كان اثنين دخلت على الملك الشبهة.

واتسعت على الرجلين المعاريض فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له وعن الآخر ولا حجة معه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومن أحسن ما قالت الشعراء في السر قول عمر بن أبي ربيعة: فقالت وأرخت جانب الستر إنما معي فتحدث غير ذي رقبة أهلي فقلت لها ما بي لهم من ترقب ولكن سرى ليس يحمله مثلي وقال أبو محجن الثقفي: قد أظعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق وقال الحطيئة يهجو: أغربالاً إذا استودعت سراً وكانونا على المتحدثينا الإذن قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس قال: على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب.

قال فمن تؤخر قال: من لا يعبا الله بهم.

قال: ومن هم قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء.

وكان سعيد بن عتبة بن حصين إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانباً فقيل له: إنك لتباعد من الآذن جهدك.

قال: لأن أدعى من بعيد خير من أن أقصى من قريب ثم قال: وإن مسيري في البلاد ومنزلي هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب ولسنت وإن أدنيت يوماً ببائع خلاقي ولا ديني ابتغاء التحب وقد عده قوم تجارة رابح ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي وقال آخر: ونحن جلوس ساكنون رزانة وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله.

فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إنني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله.

وإنما كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه.

وقال هشام الرقاشي: أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام قدمت قبلي رجلاً ما يكون لهم في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي لو عد قوم وقوم كنت أقربهم قربي وأبعدهم من منزل الدام حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت بباب قصرك أدلوها بأقوام قيل لمعاوية: إن أذنك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس.

قال: وما عليه إن المعرفة لتتفع في الكلب العقور والسبع الهصور والجمل الصؤول فكيف في رجل حسيب ذي كرم ودين وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحمل الأذى ويكظم وقالوا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

وقال الشاعر: كم من فتى قصرت في الرزق خطوته أصبته بسهام الرزق قد فلجا إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا لا تياسن

مكتبة مشكاة الإسلامية

- وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر - أن ترى فرجا أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفاً في الشمس عند باب المنصور فقال له: قد طال وقوفك في الشمس فقال: ليطول وقوفي في الظل.

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان فقال له: أمثلك يرضى بهذا فقال: أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ولا يكرم النفس الذي لا يهينها وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يقرب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبعدهم ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم فيقرب البعيد لنفعه ويبعد القريب لضره وشبهوا ذلك بالجرذ الذي هو في البيت مجاور فمن أجل ضره نفي والبازي الذي هو وحشي فمن أجل نفعه اقتني.

استأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال: أألج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان وقل له يقول: السلام عليكم أدخل.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع.

وقال النبي عليه السلام الأولى أذن والثانية مؤامرة والثالثة عزمة إما أن يأذنوا وإما أن يرجع.

الحجاب قال زياد لحاجبه: يا عجلان إني ولينك حجابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادى إلى الله في الصلاة والفلاح لا تحجبه عني فلا سلطان لك عليه وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان في تلك الساعة ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي وإن كنت في لحافي وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد.

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين فحجبه.

فقال له رجل وأراد أن يغريه: يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مضر فيحجبك.

فقال أبو سفيان: لا عدت من قومي من أقف ببابه فيحجبني.

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه فقال: من يغش أبواب الملوك يتم ويقعد ومن يجد وقال محمود الوراق: شاد الملوك قصورهم فتحصنوا من كل طالب حاجة أو راغب غالوا بأبواب الحديد لعزها وتنوقوا في قبح وجه الحاجب فإذا تلمظ للدخول عليهم راج تلقوه بوعد كاذب فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن بادي الضراعة طالباً من طالب سعيد بن مسلم قال: كنت واليا بإرمينية فغير أبو هفان أياما ببابي ولا أعلم به فلما وصل إلي مثل قائماً بين السماطين وقال: والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سف التراب يقيم

مكتبة مشكاة الإسلامية

من أود أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشي.

أما والله إني لبعيد الوثبة بطيء العطفة.

إن الله ما يثنيني عنك إلا ما يصرفك عني ولأن أكون مقللاً مقرباً أحب إلي من أكون مكثراً مبعداً.

والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ولا مالاً ونحن أكثر منه.

وهذت الأمر الذي قد صار إليك وفي يدك كان في يد غيرك قبلك فأمسوا والله حديثاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فتجنب إلى عباد الله وبغضهم موصول ببغضه لأنهم شهداء الله على خلقه ورقبائه على من اعوج عن سبيله.

أبو مسهر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان فحجبت فكتبت إليه: وقد علمت بأنني لم أرد و - لا والله - ما رد إلا العلم والأدب فأجابني محمد بن عبد الله بن عبد كان فقال: لو كنت كافات بالحسنى لقلت كما قال ابن أوس وفيما قاله أدب: ليس الحجاب بمقص عنك أي أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب وقف بباب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه فكتب إليه: علي أي باب أطلب الإذن بعد ما حجت عن الباب الذي أنا حابه وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن فقبل له: تكون لك عودة فقال: لئن عدت بعد اليوم إني لظالم سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم متى يظفر الغادي إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم ونظير هذا المعنى للعتابي حيث يقول: قد أتيناك للسلام مراراً غير من منا بذاك المزار فإذا أنت في استتارك باللي - ل على مثل حالنا بالنهار وقف رجل بباب أبي دلف فأقام حيناً لا يصل إليه فتلطف برقعة أوصلها إليه وكتب فيها: إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم إذا كان الكريم قليل مال ولم يعذر تعلق بالحجاب وأبواب الملوك محجبات فلا تستعظم حجاب بابي وقال حبيب الطائي في الحجاب: سأترك هذا الباب ما دام إذنه على ما أرى حتى يلين قليلاً فما خاب من لم يأتته متعمداً ولا فاز من قد نال منه وصولاً ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئ حمى بابه من أن ينال دخولا إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً وجدنا إلى ترك المجيء سبيلاً وأنشد أبو بكر بن العطار: مالك قد حلت عن وفائك واس - تبدلت يا عمرو شيمة كدره لستم ترجون للحساب ولا يوم تكون السماء منفطره قد كان وجهي لديك معرفة فاليوم أضحي بابا من النكرة وقال غيره: أتيتك للتسليم لا أنني امرؤ أردت بإتيانك أسباب نائك وقال أبو نواس الحسن بن هانئ: أيها الراكب المغذ إلى الفض - ل ترفق فدون فضل حجاب ونعم هبك قد وصلت إلى الفض - ل فهل في يدك إلا التراب وقال آخر وهو محمد البغدادي: حجابك من مهاتته عسير وخيرك في تزيده يسير خرجت كما دخلت إليك إلا غبار طار في خفي كثير وقال آخر وهو العتابي: حجابك ليس يشبهه حجاب وخيرك دون مطلبه السحاب ونومك نوم من ورد المنايا فليس له إلى الدنيا إياب وقال غيره: أنا

مكتبة مشكاة الإسلامية

بالباب واقف منذ أصبح - ت على السرح ممسكاً بعناني وبعين البواب كل الذي بي ويراني كأنه لا يراني وقال غيره: إذا ما أتيناها في حاجة رفعنا الرقاع له بالقصب وقال أبو بشير: حجبني بعض كتاب العسكر فكتبت إليه: إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجاب.

وأنا أرفعك عن هذه المنزلة وأرغب بقدرك عن هذه الخليفة وكل من قام منزلك عظم قدره أو صغر وحاول حجاب الخليفة أمكنه.

فتأمل هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها في أقبح صورة وأدنى منزلة.

وقد قلت في ذلك: إذا كنت تأتي المرء تعظم حقه ويجهل منك الحق فالهجر أوسع وفي الناس أبدال وفي الهجر راحة وفي الناس عمن لا يواتيك مقنع وإن امرأ يرضى الهوان لنفسه حري بجذع الأنف والأنف أسنع وقال آخر: يا أبا موسى وأنت فتى ماجد حلو ضرائبه كن على منهاج معرفة إن وجه المرء حاجبه فيه تبدو محاسنه وبه تبدو معايبه وأنشد حسين الجمل - وبكر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سعوة وحمدويه - قال: لا ولا عن طعامه التافه النز - ر الذي حوله لطام بنيه بل حجبتا به عن الخسف والمس - خ وذاك التبريق والتمويه فجزى الله حاجباً لك فظاً كل خير عنا إذا يجزيه فلقد سرنى دخول أبي سع - وة دوني وبعده حمدويه إن ذبحي نذالة قد تأتي من صباحي بقبح تلك الوجوه وقال أحمد بن محمد البغدادي في الحسن بن وهب الكاتب: ومستتب عن الحسن بن وهب وعما فيه من كرم وخير أتاني كي أخبره بعلمي فقلت له سقطت على الخير هو الرجل المهذب غير أنني أراه كثير إرخاء الستور وأكثر ما يغنيه فتاه حسين حين يخلو للسرور: ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تفرع بالذكور ومن قولنا في هذا المعنى: ما بال بابك محروساً ببواب يحميه من طارق يأتي ومنتاب ووقف حبيب بن أوس الطائي بباب مالك بن طوق فحجب عنه.

فكتب إليه يقول: قل لا بن طوق رحي سعد إذ طحنت نوائب الدهر أعلاها وأسفلها: أصبحت حاتمها جوداً وأحنفها حلماً وكيسها علماً ودغفلها ما لي أرى القتبة البيضاء مقفلة دوني وقد طالما استفتحت مقفلها أظنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فأدخلها

▲ باب من الوفاء والغدر

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك تدعوهم إلى حسن الظن بك فإن استطعت أن تنفعي في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد موتي.

فقال عبد الحميد: إن الذي أمرت به أنفع الأشياء لك وأقبحها بي وما عندي غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأنشأ يقول: أسر وفاء ثم أظهر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره أبو الحسن المدائني قال: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب إليه أماناً وأشهد شهوداً قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني قال: أمر قد فات دركه.

قال: لتقولن.

قال: حزم لو قتلته وحييت.

قال: أو لست بحي فقال: ليس بحي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ولا بعقد.

قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلى أمسكت.

المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوماً ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم وما زلت منتظراً لهذه الدعوة.

فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه.

فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه.

عجبا لمن يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدرًا.

وقال أبو جعفر لسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم قال سلم: " [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا](#) " قال حسبك الله أبا أمية.

قال أبو عمرو بن العلاء: كان بنو سعد بن تميم أغدر العرب وكانوا يسمون الغدر في الجاهلية: كيسان فقال فيهم الشاعر: إذا كنت في سعد وخالك منهم غريباً فلا يغرك خالك من سعد إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم إلى الغدر أدنى من شبابهم المرد الولاية والعزل قال النبي صلى الله عليه وسلم: ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة فنعمت وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث أحبها لرفع الأولياء ووضع الأعداء واسترخاض الأشياء.

وأكرهها لروعة البريد وموت العزل وشماتة الأعداء.

وقال ولد ابن شبرمة القاضي: كنت جالساً مع أبي قبل أن يلي القضاء فمر به طارق بن أبي زياد في موكب نبيل وهو وإلى البصرة فلما رآه أبي تنفس

مكتبة مشكاة الإسلامية

الصعداء وقال: أراها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم.

فلما ابتلى بالقضاء قلت له يا أبت أتذكر يوم طارق قال: يا بني إنهم يجدون خلفاً من أبيك وإن أباك حط في أهوائهم وأكل من حلوائهم.

قيل لعبد الله بن الحسن: إن فلاناً غيرته الولاية قال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

ولما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى قال له: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين قال: لا عن واحدة منهما ولكنني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذت العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة يعرض له بالحجاز - فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شمال زياد.

فخرجت في ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة فقال له: ألا تعمل قال: لا أريد العمل.

قال: قد طلب العمل من هو خير منك يوسف عليه الصلاة والسلام.

قال: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم.

المدائني قال: كان بلال بن أبي بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القسري فكان لا يركب خالد إلا رآه في موكب فبرم به فقال لرجل من الشرط: إئت ذلك الرجل صاحب العمامة السوداء فقل له: يقول لك الأمير: ما لزومك بابي وموكبي! إني لا أوليك ولاية أبداً.

فأتاه الرسول فأبلغه.

فقال له بلال: هل أنت مبلغ عني الأمير كما بلغتني عنه قال: نعم.

قال: قل له: والله لئن وليتني لا عزلتني.

فأبلغه ذلك.

فقال خالد: قاتله الله! إنه ليعد من نفسه بكفاية.

فدعاه فولاه.

وأراد عمر ابن الخطاب أن يستعمل رجلاً فبادر الرجل فطلب منه العمل.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال له عمر: والله لقد كنت أردتك لذلك ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من النبي ولاية فقال له: يا عم نفس تحبها خير من ولاية لا تحبها.

وطلب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: إنا لا نستعين على عملنا بمن يريده.

وقال زياد لأصحابه: من أغبط الناس عيشا قالوا: الأمير وأصحابه.

قال: كلا إن لأعواد المنبر لهيبة ولقرع لجام البريد لفرعة.

ولكن أغبط الناس عيشا رجل له دار يجري عليه كراؤها وزوجة قد وافقته في كفاف من عيشه لا يعرفنا ولا نعرفه فإن عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه آخرته وديناه.

وكتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد فقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وسفهني سفهاء قريش فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت شبابك وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان وأما ما ذكرت من سفهاء قريش فحلماؤها أحلوك ذاك المحل وأما ما ذكرت من أمر العمل فضح رويداً يدرك الهيجا حمل وهذا مثل للعرب وقد وقع تفسيره في كتاب الأمثال.

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه فأذن له فخرج وخرجنا معه.

فلما دخل عليه قال له: يا مغيرة كبرت سنك ورق عظمك ولم يبق منك شيء ولا أراني إلا مستبدلاً بك.

قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه فأخبرنا بما كان من أمره قلنا له: فما تريد أن تصنع قال: ستعلمون ذلك.

فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها وبراح ولست في زمن أبي بكر ولا عمر فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد.

فقال: يا أبا محمد انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك.

فأقبلنا تركض علي النجب فالتفت فقال: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

▲ باب من أحكام القضاء

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إذا كان في القضاء خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله ونزاهة عن الطمع وحلم على الخصم واقتداء بالأئمة ومشاورة أهل العلم والرأي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه فلعله قد فقئت عيناه جميعاً.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية كتاباً في القضاء يقول فيه: إذ تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه.

وتعاهد الغريب فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله وإنما ضيع حقه من لم يرفق به.

وأس بين الناس في لحظك وطرفك وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

العتبي قال: تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن أبي داود القاضي في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد فزرى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي داود.

فأحفظه ذلك فقال: يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت إليه بيد وليكن قصدك أمماً وطريقك نهجاً وربحك ساكنة.

ووف مجالس الحكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجه إلى الواجب فإن ذلك أشبه بك وأشكل لمذهبك في محتدك وعظم خاطرک.

ولا تعجل فرب عجلة تهب ريثاً والله يعصمك من الزلل وخطل القول والعمل ويتم نعمته عليك ما أتمها على أبوك من قبل إن ربك حكيم عليم.

قال إبراهيم: أصلحك الله أمرت بسداد وحضنت على رشاد ولست بعائد إلى ما يلثم مروءتي عندك ويسقطني من عينك ويخرجني عن مقدار الواجب إلى الاعتذار فما أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه باخع بجرمه فإن الغضب لا يزال يستفز بمودة فيردني مثلك بحلمه وقد رهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يقوم بارش الجناية ولن يتلف مال أفاد موعظة.

وبالله التوفيق.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري - رواها ابن عيينة -: أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك الخصم فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

أس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً أو حرم حلالاً.

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التماذي على الباطل.

الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر.

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيماً في ولاء أو قرابة أو نسب فإن الله عز وجل ولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والأيمان.

ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله عز وجل بها الأجر ويحسن بها الذخر فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطانهم فاحذر أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة.

أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار وأخف الفساد واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً وإذا كانت بين القبائل ثائرة فنادوا: يا لفلان فإنما تلك نجوى من الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله عز وجل وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام.

واستدم النعمة بالشكر والطاعة بالتألف والمقدرة بالعفو والنصرة بالتواضع والمحبة للناس وبلغني أن ضبة تنادي: يا لضبة.

وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا صرف بها شراً.

فإذا جاءك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفقهوا وألصق بغيلان بن خرشة من بينهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وعد مرضي المسلمين واشهد جنائزهم وياشر أمورهم بنفسك وافتح لهم بابك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً.

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشيت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها في السمن والسمن حتفها.

واعلم أن العامل إذا زاع زاعت رعيته وأشقى الناس من يشقى به الناس والسلام.

أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يغزو قوماً في البحر فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عامله على مصر: يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير دود على عود.

فقال الشعبي قال: كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديداً.

فقلت: أصلحك الله ما أراها إلا مظلومة.

قال: وما علمك قلت: لبكائها.

قال: لا تفعل فإن أخوة يوسف جاءوا آباءهم عشاء يبكون وهم له ظالمون.

وكان الحسن بن أبي الحسن لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يخرجه المشهود عليه.

فأقبل إليه رجل فقال: يا أبا سعيد إن إياساً رد شهادتي.

فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا وائلة لم رددت شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو مسلم له ما لنا وعليه ما علينا فقال: يا أبا سعيد إن الله عز وجل يقول: " [ممن ترضون من الشهداء](#) " وهذا ممن لا يرضى.

ودخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي في مجلس الحكومة فقال: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا وأجلسه معه.

فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث فقال له شريح: قم فاجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك.

قال: بل أكلمه من مجلسي.

فقال له: لتقومن أو لآمرن من يقيمك.

فقال له الأشعث: لشد ما ارتفعت! قال: فهل رأيت ذلك ضرك قال: لا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك.

وأقبل وكيع بن أبي سعود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة فقال: مرحباً وأهلاً بأبي مطرف وأجلسه معه ثم قال له: ما جاء بك قال: لأشهد لفلان.

فقال: مالك وللشهادة إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة.

قال: صدقت وانصرف من عنده.

ف قيل له: خدعك إنه لا يقبل شهادتك.

قال: لو علمت ذلك لعلوته بالقضيب.

دخل عدي بن أرطأة على شريح فقال: أين أنت أصلحك الله قال: بينك وبين الحائط.

قال: إني رجل من أهل الشام.

قال: نائي الدار سحيق المزار.

قال: قد تزوجت عندكم.

قال: بالرفاء والبنين قال: وولد لي غلام.

قال: ليهنئك الفارس.

قال: وأردت أن أرحلها.

قال: الرجل أحق بأهله قال: وشرطت لها دارها قال: الشرط أملك.

قال فاحكم الآن بيننا.

قال: قد فعلت قال: على من قضيت قال: على ابن أمك.

قال: بشهادة من قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

يريد إقراره على نفسه.

سفيان الثوري قال: جاء رجل يخاصم إلى شريح في سنور قال: بينتك.

قال: ما أجد بينة في سنور ولدت عندنا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال شريح: فآذهبوا بها إلى أمها فأرسلوها فإن استقرت واستمرت ودرت فهي سنورك وإن هي اقشعرت وازبارت وهرت فليست بسنورك.

سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى شريح فقال: ما تقول في شاة تأكل الدبى قال: لبن طيب وعلف مجان.

ودخل رجل على الشعبي في مجلس القضاء ومعه امرأته وهي من أجمل النساء فاختصما إليه فأدلت المرأة بحجتها وقربت بينها.

فقال الشعبي للزوج: هل عندك من مدفع فأنشأ يقول: فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها فتنته بدلال وبخطي حاجبها قال للجلواز قرب - ها وأحضر شاهديها فقاضى جوراً على الخص - م ولم يقض عليها قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان فلما نظر إلي تبسم وقال: فتن الشعبي لم رفع الطرف إليها ثم قال: ما فعلت بقائل هذه الأبيات قلت: أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وبما افتري به علي.

قال: أحسنت.

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها وقود الجيوش وتدريبها وما على المدير لها من أعمال الخدعة وانتهاز الفرصة والتماس الغرة وإذكاء العيون وإفشاء الطلائع واجتناب المضايق وطول تجربته لها و لمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش وعلمه أن لا درع كالصبر ولا حصن كاليقين.

ثم نذكر كرم الإقدام ومحمود عاقبته ولؤم الفرار ومذموم مغبته.

والله المعين.

▲ صفة الحرب

الحرب رحي ثقالها الصبر وقطبها المكر ومدارها الاجتهاد وثقافها الأناة وزمامها الحذر ولكل شيء من هذه ثمرة فثمره الصبر التأييد وثمره المكر الظفر وثمره الاجتهاد والتوفيق وثمره الأناة اليمن وثمره الحذر السلامة.

ولكل مقام مقال ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سجال والرأي فيها أبلغ من القتال.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال عمرو بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن معد يكرب: صف لنا الحرب قال: مرة المذاق إذا كشفت عن ساق من صبر فيها عرف ومن نكل عنها تلف ثم أنشأ يقول: الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزاً ذات خليل شمطاء جزت رأسها وتكرت مكروهة للثم والتقبيل وقيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب.

فقال: أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى.

وقال الكميت: والناس في الحرب شتى وهي مقبلة ويستوون إذا ما أدبر القبل كل بأمسيها طب مولية والعاملون بذئ غدويها قتل وقال نصر بن سياد صاحب خراسان يصف الحرب ومبتدا أمرها: أرى خلل الرماد جمر فيوشك أن يكون له ضرام فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام فقلت من التعجب ليت شعري أبقاظ أمية أم نيام وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: الشر حلو أوله: مر آخره.

والعرب تقول: الحرب غشوم لأنها تنال غير الجاني وقال حبيب: والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفية به بالف حلیم في ساعة لو أن لقماناً بها وهو الحكيم لكان غير حكيم وقال أكنم بن صيفي حكيم العرب: لا حلم لمن لا سفية له.

ونحو هذا قول الأحنف بن قيس: ما قل سفهاء قوم قط إلا ذلوا.

وقال: لأن يطيعني سفهاء قومي أحب إلي من أن يطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار.

وقال النابغة الجعدي: ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر وأنشد هذا الشعر للنبي صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى هذا البيت قال له النبي صلى الله عليه وسلم وقال النابغة الذبياني يصف الحرب: تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام إظلام يريد بقوله: " تبدو كواكبه والشمس طالعة " شدة الهول والكرب كما تقول العامة: أريته النجوم وسط النهار.

قال الفرزدق: " أريك نجوم الليل والشمس حية " وقال طرفة بن العبد: " وتريك النجم يجري بالظهر " وإليه ذهب جرير في قوله: والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر يقول: الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل لشدة الغم والكرب الذي فيه الناس.

ومن قولنا في صفة الحرب: ومغبر السماء إذا تجلى يغادر أرضه كالأرجوان وكل مشطب المتنين صاف كلون الملح منصلت يمانى كأن نهاره ظلماً ليل كواكبه من السمر اللذان وفي صفة المعترك: ومعترك تهز به المنايا ذكور الهند في أيدي ذكور لوامع يبصر الأعمى سناها ويعمي دونها طرف البصير وخافقة الذرائب قد أنافت على حمراء ذات شبا طير تحوم حولها عقبان

مكتبة مشكاة الإسلامية

موت تخطف القلوب من الصدور بيوم راح في سربال ليل فما عرف
الأصيل من البكور وعين الشمس ترنو في قتام رنو البكر من بين الستور
فكم قصرت من عمر طويل به وأطلت من عمر قصير العمل في الحرب
قيل لأكثم بن صيفي: صف لنا العمل في الحرب.

قال: أقلوا الخلاف على أمرائكم فلا جماعة لمن اختلف عليه.

واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل فتثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين ورب
وقال شبيب الحروري: الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع.

وكان إذا أمسى يقول لأصحابه: أتاكم المدد يعني الليل.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الجمل وسمعت منازعة أصحابها
وكثرة صياحهم: المنازعة في الحرب خور والصياح فيها فشل وما برأيي
خرجت مع هؤلاء.

وقال عتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم: أما ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الحيات.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أكثر النظر في العواقب لم
يشجع.

وقال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو: إني هاز لكم الراية فليصلح
كل رجل منكم من شأنه وليشد على نفسه وفرسه ثم إني هازها لكم الثانية
فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه وموضع عدوه ومكان فرصته ثم إني
هازها لكم الثالثة وحامل فاحملوا على اسم الله.

وللنعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذ تكاملت
عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها -: لأقلدن أعتتها رجلاً يكون
عداء لأول أسنة يلقاها.

فقلدها النعمان بن مقرن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمر مر
السحاب ولا تطلبوا أثراً بعد عين.

وقال بعض الحكماء: انتهز الفرصة فإنها خلسة وثب عند رأس الأمر ولا تثب
عند ذنبه.

وإياك والعجز فإنه أذل مركب والشفيع المهين فإنه والله أضعف وسيلة.

وخرجت خارجة بخراسان على قتبية بن مسلم فأهمه ذلك فقبل له: ما يهملك
منهم! وجه إليهم وكيع بن أبي سود فإنه يكفيكم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: لا إن وكيعاً رجل به كبر يحتقر أعداءه ومن كان هكذا قلت مبالته بأعدائه فلم يحترس منهم فيجد عدوه غرة منه.

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال: مخالطة العدو عن الريف وإعداد العيون على الرصد وإعطاء المبلغين أماناً على مستأمن ولا تشدهنك الغنيمة عن المحاذرة.

وفي بعض كتب العجم: أن حكيماً سئل أشد الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها فقال: تعود القتال وكثرته وأن يكون لها مواد من ورائها.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان فقال معاوية: شجاع إذا ما أمكنتني فرصة وإن لم تكن لي فرصة فجبان قال هذبة العذري: ولا أتمنى الشر والشر تاركه ولكن متى أحمل على الشر أركب ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب الصبر والإقدام في الحرب جمعت الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال: "[يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا](#) [واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون](#)."

[وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين](#)."

وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة.

واعتبر من ذلك أن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

والعرب تقول: الشجاع موقى والجبان ملقى.

وقال أعرابي: الله نخلف ما أتلّف الناس والدهر متلف ما جمعوا وكم من منية علتها طلب الحياة وحياة سببها التعرض للموت.

وكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يذمر الناس ويقول: يا أهل الإسلام إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن مع الصبر النصر.

وكتب أنو شروان إلى مرارته عليكم بأهل الشجاعة والسخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله.

وقال حسان بن ثابت: ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما وقال العلوي في هذا المعنى: محرمة أكفال خيلي على القنا ودامية لباتها ونحوها حرام على أرماحنا طعن مدبر وتغرق منها في الصدور صدورنا وكانوا يتمادحون بالموت قعصا ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه: مات فلان حتف أنفه وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وخطب عبد الله بن الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب أخيه فقال: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه.

إنا والله لا نموت حتفاً ولكن نموت قعصاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف.

وإن يقتل مصعب فإن آل الزبير خلفاً منه.

وقال السموأل بن عدياء: ما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل تسيل على حد الطببات نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل وقال آخر: وقال الشنفرى: فلا تدفوني إن دفني محرم عليكم ولكن خامري أم عامر إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثم سائري هنالك لا أبغي حياة تسرني سحيس الليالي مبسلاً بالجرائر قوله: خامري أم عامر هي الضيع.

يعني بقوله: إذا قتلتوني فلا تدفوني ولكن ألقوني إلى التي يقال لها: خامري أم عامر وهي الضيع وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام - وقيل له: أتقتل أهل الشام بالعدة وتظهر بالعشي في إزار ورداء - فقال: أبا الموت تخوفوني! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي.

وقال لابنه الحسن عليهما السلام: لا تدعون أحداً إلى المبارزة وإن دعيت إليها فأجب فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أنمى عدداً وأطيب ولداً.

يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددهم ونمى ولدهم.

ومما يستدل به على صدق قوله: ما عمل السيف في آل الزبير وآل أبي طالب وما كثر من وقال أبو دلف العجلي: إني امرؤ عودني مهري ركوب الغلس يحمدني سيفي كما يحمد كرى فرسي سيفي بليبي قبسي وفي نهاري أنسى وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان: لست لربحان ولا راح ولا على الجار بنجاح فإن أردت الآن موقفاً فيبين أسياف وأرماح ترى فتى تحت ظلال القنا يقبض أرواحاً بأرواح وقال أشهب بن رميلة: أسود شرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأسود وقيل للمهلب بن أبي صفرة: ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول: وسائلة بالغيب عني ولو درت مقارعتي الأبطال طال نحيبها إذا ما التقينا كنت أول فارس يجود بنفس أثقلتها ذنوبها وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو قال: ما سلمت في ذلك من ذعر ينه علي حيلي ولم يغشني ذعر قط سليني رأيي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال هشام: صدقت هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنتم يوم الفروق قال: كنا مائة لم نكثر فنتكل ولم نقل فنذل.

وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام: تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما وقالت الخنساء: نهين النفوس وبذل النفوس يوم الكريهة أبقى لها وقيل لعباد بن الحصين - وكان من أشد أهل البصرة - : في أي عدة كنت تريد أن تلقى عدوك قال: في أجل مستأخر: وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله عنه يوم صفين.

أبت لي شيمتي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الربيح وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيخ وقولي كلما جيشات وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة: وقولي كلما جيشات لنفسى من الأبطال ويحك لا تراعي فإنك لو سألت حياة يوم سوى الأجل الذي لك لم تطاعي وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول: أي يومي من الموت أفر يوم لا يقدر أو يوم قدر يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجي الحذر ومثله قول جرير: قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجي وهذا البيت في شعره الذي أوله: " هاج الهوى لفؤادك المهتاج " ومدح فيه الحجاج فلما أنشده: " قل للجبان إذا تأخر سرجه " قال: جرأت علي الناس يا بن اللخناء.

قال: والله ما ألقيت لها بالاً أيها الأمير إلا وقتي هذا.

وكان عاصم بن الحدثان عالماً ذكياً وكان رأس الخوارج بالبصرة وربما جاءه الرسول منهم من وهم إذا كسروا الجفون أكارم صبر وحين تحلل الأزرار يغشون حومات المنون وإنها في الله عند نفوسهم لصغار يمشون بالخطي لا يثنيهم والقوم إذ ركبوا الرماح تجار فقال له الفرزدق: ويحك! اكتم هذا لا يسمعه النساخون فيخرجوا علينا بحقوقهم.

فقال أبوه: يا فرزدق هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين.

ونظير هذا مما يشجع الجبان قول عنتره الفوارس: بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل فاقني حياءك لا أبالك واعلمي أنني امرؤ ساموت إن لم أقتل ومن أحسن ما قالوه في الصبر قول نهشل بن حري بن ضمرة النهشلي: ويوم كان المصطلين بحره وإن لم تكن نار ووقوف على جمر صبرنا له حتى يبوخ وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر وأحسن من هذا عندي قول حبيب: فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت إخمصيك الحشر وأحسن من هذا القول: يستعذبون مناياهم كأنهم لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا وقوله في هذا المعنى: قوم إذا لبسوا الحديد حسبتهم لم يحسبوا أن المنية تخلق انظر فحيث ترى السيوف لوامعاً أبداً ففوق رؤوسهم تتألق وقال الحجاج بن حكيم: شهدن مع النبي مسومات حيناً وهي دامية الحوامي

مكتبة مشكاة الإسلامية

ووقعة راھط شهدت وھلت سناېكهن بالبلد الحرام تعرض للطعان إذا التقينا خدوداً لا تعرض للطام أخذه من قولهم: ضربة بسيف في عز خير من لطفة في ذل.

ومن أحسن ما وصفت به رجال الحرب قول الشاعر: رويداً بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيلي على سفوان تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى إذا ما عدت في المازق المتداني إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أم بأي مكان قوم إذا نزل الغريب بدارهم تركوه رب صواهل وقيان وإذا دعوتهم ليوم كربة سدوا شعاع الشمس بالفرسان لا ينكتون الأرض عند سؤالهم لتطلب العلات بالعيدان بل يسفرون وجوههم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوان ومن أحسن المحدثين تشبيها في الحرب مسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد بن مزيد: تلقى المنية في أمثال عدتها كالسيل يقذف جلموداً بجلمود بجود بالنفس إذ ظن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود وقوله أيضاً: موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلي أمل ينال بالرفق ما تعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل وقال أبو العتاهية: كأنك عند الكرف في الحرب إنما تفر عن السلم الذي من ورائك كأن المنيا ليس تجري لدى الوغى إذا التقت الأبطال إلا برائك وقد علمت سلامة أن سيفي كربه كلما دعيت نزال أحادثه بصقل كل يوم وأعجمه بهامات الرجال وقال أبو محلم السعدي: تقول وصكت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس فقلت لها لا تعجلي وتبيني بلاني إذا التفت علي الفوارس ألسنت أرد القرن يركب رده وفيهن سنان ذو غرارين نائس إذا هاب أقوام تقحمت غمرة يهاب حمياها الألد المداعس لعمر أيبك الخير إني لخدم لصيفي وإني إن ركبت لفارس وقال آخر يمدح المهلب بالصبر: وإذا جدت فكل شيء نافع وإذا حدت فكل شيء ضائر وإذا أتاك مهلب في الوغى في كفه سيف فنعم الناصر ومن قولنا في القائد أبي العباس في الحرب: نفسي فداؤك والأبطال واقفة والموت يقسم في أرواحها النقما ومن قولنا في وصف الحرب: سيوف يقيل الموت تحت طباتها لها في الكلى طعم وبين الكلى شرب إذا اصطفت الرايات حمراً متونها ذرائبها تهفو فيهبو لها القلب ولم تنطق الأبطال إلا بفعلها فالسنها عجم وأفعالها عرب إذا ما التقوا في مازق وتعانقوا فلقياهم طعن وتقبيلهم ضرب ومن قولنا في رجال الحرب وأن الوغى قد أخذت من أجسامهم فهي مثل السيوف في رقتها وصلابتها: سيف تقلد مثله عطف القضيب على القضيب هذا تجز به الرقاب وذا تجز به الخطوب ومن قولنا أيضاً: تراه في الوغى سيفاً صقيلاً يقلب صفحتي سيف صقيل ومن قولنا أيضاً: سيف عليه نجاد سيف مثله في حده للمفسدين صلاح ومن قولنا أيضاً في الحرب وذكر القائد: تبخرت في قميص من دلاص وترفل في رداء من نجاد كأنك للحرب رضيع ثدى غذتك بكل داهية ناد فكم هذا التمني للمنايا وكم هذا التجلد للجلاد لئن عرف الجهاد بكل عام فإنك طول دهرك في جهاد وإنك حين أبت بكل سعد كمثل الروح أب إلى الفوائد رأينا السيف مرتدياً بسيف وعابنا الجواد على الجواد وقد وصفن الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم إليه ومعني بديع لا نظير له وذلك قولنا: وجيش كظهر اليم تنفحه الصبا يعب عبواً من قنا وقنابل فتنزل أولاه وليس بنازل وترحل أخراه وليس براحل ومعترك ضنك تعاطت كمامته كؤوس دماء من

مكتبة مشكاة الإسلامية

كلى ومفاصل يديرونها راحاً منى الروح بينهم بيض رقاق أو بسمر ذوايل وتسمعهم أم المنية وسطها غناء صليل البيض تحت المناصل وصل يحن الإلف من بغضه شوقاً إلى الهجران والصرم حتى إذا نادهم سيفه بكل كأس مرة الطعم ترى حمياها بهاماتهم تغور بين الجلد والعظم على أهازيح ظبا بينها ما شئت من حذف ومن خرم طاعوا له من بعد عصيانهم وطاعة الأعداء عن رغم وكم أعدوا واستعدوا له هيهات ليس الخضم كالقضم ومن قولنا في شبهه: كم ألحم في أبناء ملحمة ما منهم فوق متن الأرض ديار وأورد النار من أرواح مارقة كادت تميز من غيظ لها النار كأنما صال في ثنبي مفاضته مستأسد حنق الأحشاء هدار لما رأى الفتنة العمياء قد رحبت منها على الناس آفاق وأقطار وأطبقت ظلم من فوقها ظلم ما يستضاء بها نور ولا نار تفوت بالثار أقواماً وتدركه من آخرين إذ لم يدرك الثار فانساب ناصر دين الله يقدمهم وحوله من جنود الله أنصار كتائب تتبارى حول رايته وجحفل كسواد الليل جرار قوم لهم في مكر الليل غمغمة تحت العجاج وإقبال وإدبار يستقدمون كراديساً مكردسة كما تدفع بالتيار تيار من كل أروع لا يرعى لها جسة كأنه مخدر في الغيل هصار في قسطل من عجاج الحرب مد له بين السماء وبين الأرض أستار فكم بساحتهم من شلو مصرح كأنه فوق ظهر الأرض إجار كأنما رأسه أفلاق حنظلة وساعده إلى الزندين جمار وكم على النهر أوصالاً مقسمة تقسمتها المنايا فهي أشطار قد فلقنت بصفيح الهند هامهم فهن حوامى الخيل أعشار ومن قولنا في الحروب: كأنما بأضت نعام الفلا منهم بهام فوق أذراع تراهم عند احتماس الوغى كأنهم جن بأجرع بكل مأثور على متنه مثل مدب النمل في القاع يرتد طرف العين من حده عن عكوكب للموت لماع ومن قولنا في الحرب: ورب ملتفة العوالي يلتمع الموت في ذراها إذا توطت حزون أرض طحطحت الشم من رباها يقودها منه ليث غاب إذا رأى فرصة قضاها تمضي بأرائه سيوف يستبق الموت في ظباها بيض تحل القلوب سوداً إذا ابتضى عزمه انتضاها تتبعه الطير في الأعادي تجنى كلا العشب من كلاها أقدم إذ كاع كل ليث عن حومة الموت إذ رآها فرسان العرب في الجاهلية والإسلام كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكرم من بني فراس بن غنم ابن مالك بن كنانة وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد غيره.

وقال حسان بن ثابت وقد مر على قبره: نفرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب لا تنفري يا ناق منه فإنه شريب خمر مسعر لحروب لولا السفار وطول قفر مهمه لتركها تحبو على العرقوب وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم.

وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخب.

أبدلكم الله بي من هو شر لكم وأبدلني بكم من هو خير منكم.

وددت والله أن لي بجمعكم - وأنتم مائة ألف - ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومن فرسان العرب في الجاهلية: عنترة الفوارس وعتيبة بن الحارث ابن شهاب وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة وزيد الخيل وبسطام بن قيس والأحيمر السعدي وعامر بن الطفيل وفي الإسلام: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير وطلحة ورجال الأنصار وعبد الله بن خازم السلمى وعباد بن الحصين وعمير بن الحباب وقطري بن الفجاءة والحريش بن هلال السعدي وشيب الحروري.

وقالوا: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم وقطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة.

وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء والأحنف بن قيس بالحلم وخريم بالنعمة وعمير بن الحباب بالشدة.

وبينما عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دخل عليه بجرذ أبيض.

فعجب منه عبيد الله وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا ونظر إليه.

فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ واصفر كأنه جرادة ذكر.

فقال عبيد الله: أبو صالح يعصى الرحمن ويتهاون بالسلطان ويقبض على الثعبان ويمشي على الليث الورد ويلقى الرماح بنحره وقد اعتراه من جرد ما ترون أشهد أن الله على كل شيء قدير.

وكان شيب الحروري يصيح في جنبات الجيش فلا يلوي أحد على أحد.

وفيه يقول الشاعر: إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدرًا والريح عاصفة والموج يلتطم ولما قتل أمر الحجاج بشق صدره فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل.

فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المئانة المنوخة.

ورجال الأنصار أشجع الناس.

قال عبد الله بن عباس: ما استلت السيوف ولا زحفت الزحوف ولا أقيمت الصفوف حتى أسلم ابنا قيلة.

يعني الأوس والخزرج.

وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر من الأزد.

العتبي قال: لما أسن أبو براء عامر بن مالك وضعفه بنو أخيه وخرفوه ولم يكن له ولد يحميه أنشأ يقول: دفعتكم عني وما دفع راحة بشيء إذا لم تسنعن بالأنامل يضعفني حلمي وكثرة جهلكم علي وأني لا أصول بجاهل وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ رأى همدان وغناءها في الحرب

مكتبة مشكاة الإسلامية

يوم صفين: ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب كالهندواني لم تغفل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب وقال ابن براقه الهمداني: كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم وقال تأبط شراً: قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك يبيت بموماه ويضحى بغيرها جحيشا ويعروري ظهور المهالك إذا حاص عينيه كعري النوم لم يزل له كالمئ من قلب شيخان فاتك ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حد أخلق باتك إذا هزه في عظم قرن تهللت نواجد أفواه المنايا الضواحك وقال أبو سعيد المخزومي وكان شجاعاً: وما يرى بنو الأغبار من رحل بالجمر مكتحل بالنبل مشتمل لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل ونظير هذا قول بشار العقيلي: فتى لا يبيت على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم وقال عبد الله بن الزبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل فيما ضربته ضربة حتى ضربني وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بحياة ابن الزبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف درهم.

وذكر متمم بن نويرة أخاه مالكاً وجلده فقال: كان يخرج في الليلة الصنبر عليه الشملة الفلوت بين المزداتين على الجمل الثفال.

معتقل الرمح الخطي.

قالوا: وأبيك إن هذا لهو اجلد.

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن وهو على الصائفة: أن استعن في حربك بعمر بن معد يكرب وطليحة الأزدي ولا تولهما من الأمر شيئاً فإن كل صانع أعلم بصناعته.

وقال عمر بن معد يكرب يصف صبره وجلده في الحرب: أعادل عدني بزي ورمحي وكل مقلص سلس القيادة أعادل إنما أفنى شبابي إجابتي الصريخ إلى المنادي مع الأبطال حتى سل جسمي وأفرح عاتقي حمل النجاد ويبقى بعد حلم القوم حلمي ويفنى قبل زاد القوم زادي ومن عجب عجت له حديث بديع ليس من بدع السداد تمنى أن يلاقيني أبي وددت وأينما مني ودادي تمناني وسابغتي قميصي كأن قتيها حدق الجراد فلو لاقيتني للقيت ليثاً هصوراً ذا ظباً وشباً حداد ولاستيقنت أن الموت حق وصرح شحم قلبك عن سواد أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد ومن قوله في قيس بن مكشوح المرادي: تمناني على فرس عليه جالساً أسده علي مفاضة كانه ي أخلص ماءه جدده فلو لاقيتني للقيت ليثاً فوقه لبدته سبنتي ضيغماً هصرأ صلخدأ ناشراً كتده يسامي القرن إن قرن تيممه فيعتضده فيأخذه فيرديه فيخفضه فيقتصده فيدمغه فيحطمه فيخضمه فيزدرده المكيدة في الحرب قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة.

وقال المهلب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب فإنها خير من النجاة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكان المهلب يقول: أناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمراً قط بحزم قط فظلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة علي ولا أخذت أمراً قط وضيعت الحزم فيه إلا لمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكاييد فيها أحزم قال: إذكاء العيون وإفشاء الغلبة واستطلاع الأخبار وإظهار السرور وإماتة الفرق والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن يستنصح ولا استنصاح لمن يستغش واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال يحذر المواثبة إن قرب والغارة إن بعد والكمين إن انكشف والاستطراد إن ولى.

وقال المأمون للفضل بن سهل.

قد كان لأخي رأى لو عمل به لظفر.

فقال له الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين قال: لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري وديباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة لم نخل نحن من إحدى خصلتين إما ردونا فعله ولم نلتفت إليه فعصانا أهل هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطي منه من معنا وتفرق جندنا ووهي أمرنا.

فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره.

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم والجناء من أولي الحزم فإن الجبان لا يألوا برأيه ما يقي مهجكم والشجاع لا يعدو ما يشد بصيرتكم.

ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرفة الجبان وتهور الشجعان فتكون أنفذ من السهم الزالج والحسام الواج.

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هدمها وقتل أهلها حتى مر بمدينة كان مؤدبه فيها.

فخرج إليه فألطفه الإسكندر وأعظمه.

فقال له: أصلح الله الملك إن أحق من زين لك أمرك وأعانك على كل ما هويت لأنا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك فأحب أن تشفعني فيهم وأن لا تخالفني في كل ما سألتك لهم.

فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه.

فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تهدمها وتقتل أهلها.

قال: وقيل: صالح سعيد بن العاص حصناً من حصون فارس على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة فبعث إليه عالجها: أن أبعث إلي رجلاً من أصحابك أكلمه.

ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري.

قال: فخرج حتى دخل على العالج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله.

فقال العالج: حدثني: هل في أصحابك أحد مثلك قال: لا تسأل عن هذا إني حين عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له ولا يدرون ما تصنع بي قال: فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب: إذ مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه.

فخرج من عنده فمر من رجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج.

ففطن عمرو لما أراه فرجع.

فقال له الملك: ما ردك إلينا قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي فأردت أن أتيتك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد.

فقال: صدقت أعجل بهم.

وبعث إلى البواب أن خل سبيله.

فخرج عمرو وهو يلتفت حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبداً.

فلما صالحه عمرو ودخل عليه العالج قال له: أنت هو! قال: نعم على ما كان من غدرك.

وقال: ولما أتني بالهرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحب رستم.

فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحاً لك في عاجلك وأجلك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام رهبة.
فدعا له عمر بالسيف.

فلما هم بقتله قال: يا أمير المؤمنين شربة ماء أفضل من قتلى على ظمأ.
فأمر له عمر بشربة ماء.

فلما أخذها قال له: أنا آمن حتى أشربها قال: نعم.

فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج.

قال: صدقت لك التوقف عنك وأنظر في أمرك ارفعوا عنه السيف.

فلما رفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده.

قال عمر: أسلمت خير إسلام فيما أحرک قال: كرهت أن يظن أنني إنما
أسلمت جزعاً من السيف وإيثاراً لدينه بالرهبة.

فقال عمر: إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك ثم أمر
به أن يبر ويكرم.

فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به معن بن زائدة في جملة الأسرى فأمر
بقتلهم فقال له أقتل الأسرى عطاشاً يا معن فأمر بهم فسقوا.

فلما شربوا قال: أقتل أضيافك يا معن فخلى سبيلهم.

وذكروا أن ملك من ملوك العجم كان معروفاً ببعده الغور ويقظة الفطنة
وحسن السياسة وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث
عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يظهر إلى محاربتة فيكشف عن ثلاث خصال
من حاله فكان يقول لعيونه: انظروا هل ترد على الملك أخبار رعيته على
حقائقها أم يخدعه عنها المنهي ذلك إليه وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو
من رعيته أفيمن اشتد أنفه وقل شرهه أم فيمن قل أنفه واشتد شرهه
وانظروا في أي صنف رعيته القوام بأمره أفيمن نظر ليومه وغده أم من
شغله يومه عن غده فإن قيل له لا يخدع عن أخبار رعيته والغنى فيمن قل
شره واشتد أنفه والقوام بأمره من نظر ليومه وغده قال: اشتغلوا عنه
بغيره.

وإن قيل له ضد ذلك قال: نار كامنة تنتظر موقد وأضغان مزملة تنتظر
مخرجاً اقصدوا له فلا حين أحين من سلامة مع تضييع ولا عدو أعدى من أمن
أدى إلى اغترار.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ ثم نزلت بابل ثم نزل أردشير بن بابك فارس فصارت دار مملكتهم وصار بخراسان ملوك الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك الفرس وكان غزاهم.

فكاده ملك الهياطلة بأن عمد إلى رجل ممن عرفه بالمكابدة وحسن الإدارة فأظهر السخط عليه ووقع به على أعين الناس توقيعاً قبيحاً ونكل به تنكيلاً شديداً ثم أرسله وقد واطأه على أمر أبطنه معه وظاهره عليه.

فخرج حتى أتى فيروز في طريقه فأظهر له النزوع إليه والاستنصار به من عظيم ما يناله.

فلما رأى فيروز ما به من التوقيع والنكاية فيه وثق به واستنام إليه.

فقال له: أنا أدلك أيها الملك على غرة القوم وعورتهم وأعلمك مكان غفلتهم.

فسلك به سبيل مهلكة معطشة.

ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثر أصحابه.

فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبداً ونصب لهم حجراً جعله حداً بينه وبينهم وحلف لهم أن لا يجاوزه هو ولا جنوده وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته.

فمنوا عليه وأطلقوه ومن معه.

فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفة مما أصابه فعاد إلى غزوهم ناكثاً لعهد غادراً بذمته إلا أنه لطف في ذلك بحيلة ظنها مجزية في أيمانه فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فيل في مقدمة عسكره وتأول في ذلك أنه لا يجاوزه.

فلما صار إليهم ناشدوه الله وذكروه الأيمان به وما جعل على نفسه من عهدته ودمته.

فأبى إلا لجأً ونكثاً.

فواقعوه فضفروا به فقتلوه وقتلوا حماته واستباحوا عسكره.

أسامة بن زيد اللبثي: قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقاً وهو يريد أخرى ويقول: الحرب خدعة.

زياد عن مالك بن أنس: كان مالك عبد الله الخثعمي وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل فيحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يقول: إني دارب بالغداة إن شاء الله تعالى درب كذا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فتتفرق الجواسيس عنه بذلك.

فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقاً أخرى.

فكانت الروم تسميه الثعلب.

▲ وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال: اغزوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً.

فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله امضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر فقاتلوا في سبيل الله لا من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ولما وجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيعه راجلاً.

فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل.

فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له - يعني الرهبان - وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف.

ثم قال له: إني موصيك بعشير: لا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ولا تقرن شاة ولا بغيراً إلا ما أكلتم ولا تحرقن نخلاً ولا تخربن عامر ولا تغل ولا تبخس.

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة: سر على بركة الله فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة.

واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه واحترس من البيات فإن في العرب غرة: وأقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك.

واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

كتب خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: الحمد لله الذي فض حرمتكم وفرق جمعكم وأوهن بأسكم وسلب ملككم وأذل عزكم.

فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا إلى الجزية وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم يقوم كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيذة في الحرب.

وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم.

وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوتونا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم.

أسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم على منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم فإنهم ساءرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع.

وأقم ومن معك في كل جمعة يوم وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قري أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحداً أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة إيتليتيم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً.

ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت لأرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم.

وليكن عندك العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خيره وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم وموافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم.

وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل.

فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاء لا تخص بها أحداً يهوى فيضيع من أمرك ورأيك أكثر مما حايت به أهل خاصتك.

ولا تبغثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية.

فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلته وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك.

ثم أذك أحراسك على عسكريك وتيقظ من البيات جهديك.

ولا تؤتي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدو الله وعدوك.

والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر وإلا تحفظ برأس المال.

ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.

وكان زياد يقول لقواده: تجنبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء وبطون الأودية.

وأغزى الوليد بن عبد الملك جيشاً في الشتاء فغنموا وسلموا فقال لعباد: يا أبا حرب أين رأى زياد من رأينا فقال: يا أمير المؤمنين قد أخطأت وليس كل عورة تصاب.

العتبي قال: جاشت الروم وغزوا المسلمين برأً وبحراً فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي قال: أتخذه إماماً لا أعصيه.

قال: اردد علي عهدي.

ثم بعث إلى سفیان بن عوف الغامدي فكتب له عهده ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي قال: أتخذه إماماً أمام الحزم فإن خالفه خالفته.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال معاوية: هذا الذي لا يكفكف من عجلة ولا يدفع في ظهره من خور ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثفال.

وقال دريد الصمة لمالك بن عوف النصرى قائد هوازن يوم حنين: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام.

مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وبعار الشاء قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

قال: ولم ذاك قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاقل عنهم.

فأنقض به وقال: راعى ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ويحك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوزان إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم ثم الق الصباء على متون الخيل.

فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك.

قال: لا والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرت وذهل عقلك.

قال: دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفنتي ثم أنشأ يقول: يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع أقود وطفاء الزرع كأنها شاة صدع وكان قتيبة بن مسلم يقول لأصحابه: إذ غزوتهم فأطيلوا الأظفار وقصروا الشعور والحظوا الناس شزراً وكلموهم رمزاً واطعنوهم وخرأ.

وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر وأكثرها ذكر الضغائن وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصروا الأعنة واشحدوا الأسنان تأكلوا القريب وبرهكم البعيد.

وقال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لمحاربة ابني عبد الله بن الحسن وجعل يوصيني ويكثر قلت: يا أمير المؤمنين إلى متى توصيني: إني أنا ذاك الحسام الهندي أكلت جفني وفريت غمدي فكل ما تطلب عندي عندي المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزمك قال: لم يطمع فينا ولم يؤمن منا.

قال: فما مبلغ حفظكم قال: يدفع الرجل منا عن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه.

قال عبد الملك: مثلك من يصف قومه.

وقال عبد الملك بن مروان لابن مطاع الغزني: أخبرني عن مالك بن مسمع.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال له: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب.

قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.

قال: ولم يل قط مالك بن مسمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان.
وكانت العرب تمتدح بالذب عن الجار فيقولون: فلان منيع الجار حامى الذمار.

نعم حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره فسمي مجير الجراد.

وقال مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مفاخر بني شيبان ومنعهم لمن استجار بهم: هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل وقال آخر: هم يمنعون الجار حتى كأنه كثيبة زور بين خافيتي نسر وذكر أن معاوية ولى كثير بن شهاب المذحجي خراسان فاختان مالا كثيراً ثم هرب فاستتر عند هانئ بن عروة المرادي: فبلغ ذلك معاوية فهدر دم هانئ.

فخرج إلى معاوية فكان في جواره ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه فلما نهض الناس ثبت مكانه.

فسأله معاوية عن أمره فقال: أنا هانئ بن عروة.

فقال: إن هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك: أرجل جمتي وأجر ذيلي وتحمل شكيتي أفق كميته وأمشي في سراة بني عطيف إذا ما ساءني أمر أبيت قال: أنا والله يا أمير المؤمنين اليوم أعز مني ذلك اليوم.

فقال: بم ذلك قال: بالإسلام.

قال: أين كثير بن شهاب قال: عندي وعندك يا أمير المؤمنين.

قال: انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضاً وسوغه بعضاً وقد أمناه ووهبناه لك.

الشيباني قال: لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصير إليه معاوية معاوية بن حديج الكندي تفرق عن محمد من كان معه فتغيب.

فدل عليه فأخذه وضرب عنقه وبعث برأسه إلى وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه فاستجار بأخواله من خثعم فغيبوه.

وكان سيد خثعم يومئذ رجلاً في ظهره بزخ من كسر أصابه فكان إذا مشى ظن الجاهل أنه يتبختر في مشيته فذكر لمعاوية أنه عنده فقال له: أسلم إلينا هذا الرجل: فقال: ابن اختنا لجأ إلينا لنحقن دمه عنك يا أمير المؤمنين.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به.

قال لا والله لا أتيك به.

قال: كذبت.

والله لتأتيني به إنك ما علمت لأوره.

قال: أجل إنني لأوره حين أقاتلك على ابن عمك لأحقن دمه وأقدم ابن عمي
دونه تسفك دمه.

فسكت عنه معاوية وخلي بينه وبينه.

الشيباني قال: قال سعيد بن سلم: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة
كان يسعى في فساد دولته وجعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف درهم.

قال: فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام فكان ظاهراً
كغائب خائفاً مترقباً.

فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه
فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال: هذا بغية أمير المؤمنين فأمكن الرجل من
قيادته ونظر إلى الموت أمامه.

فبينما هو على الحالة إذ سمع وقع الحوافر من وراء ظهره فالتفت فإذا معن
بن زائدة فقال: يا أبا الوليد أجرتني أجاك الله فوقف وقال للرجل الذي تعلق
به: ما شأنك قال: بغية أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن دل عليه
مائة ألف.

فقال: يا غلام انزل عن دابتك واحمل أخانا.

فصاح الرجل: يا معشر الناس يحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال
له معن: اذهب فأخبره أنه عندي.

فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبره
فأمر بحبس الرجل ووجه إلى معن من يحضر به.

فأنته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقربت إليه دابته فدعا أهل بيته
ومواليه فقال: لا يخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف.

ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي فلم يرد عليه.

فقال: يا معن أتجير علي قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: ونعم أيضاً! واشتد غضبه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال معن: يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً ولي أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي وحسن غنائني فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لي رجلاً واحداً استجار بي فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سري عنه فقال: قد أجرنا من أجرت.

قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه فعل.

قال: قد أمرنا له بخمسين ألف.

قال: يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء تكون على قدر جنایات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة.

قال: قد أمرنا له بمائة ألف.

قال: فتعجلها يا أمير المؤمنين فإن خير البر عاجله.

فأمر بتعجيلها.

فدعا لأمير المؤمنين بأفضل دعاء ثم انصرف ولحقه المال.

فدعا الرجل فقال له: خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

قال عمرو بن معد يكرب: الفرعات ثلاث: فمن فزعته في رجليه فذلك الذي لا تقله رجلاه ومن كانت فزعته في رأسه فذلك الذي يفر عن أبويه ومن كانت فزعته في قلبه فذلك الذي يقاتل.

وقال الأحنف بن قيس: أسرع إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار.

وقامت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها فأف للجناء! أف للجناء! وقال الشاعر: يفر الجبان عن أبيه وأمه ويحتمي شجاع القوم من لا يناسبه ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل أقرابه وقال خالد بن الوليد عند موته.

لقد لقيت كذا وكذا زحفاً وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم هأنذا أموت حتف أنفى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء.

ومن أشعار الفرارين الذين حسنوا فيها الفرار على قبحة حتى حسن قول الفرار السلمي: وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي هل ينفعني أن تقول نساؤهم وقتلت دون رجالها: لا تبعد وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ما اعتذر أحد من الفرارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول: الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مزبد وعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي فصدفت عنهم والأحبة

مكتبة مشكاة الإسلامية

فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد وهذا الذي سمعه رتبيل فقال: يا معشر العرب حسنتم كل شيء فحسن حتى الفرار.

وبعد هذا يأتي قول حسان في ذلك.

وأسلم الجارث يوم فتح مكة وحسن إسلامه وخرج في زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله مجاهداً فأتبعه أهل مكة فيكون فرق وبكى وقال: أما لو كنا نستبدل داراً بدارنا أو جاراً بجارنا ما رأينا بكم بدلاً ولكنها النقلة إلى الله.

فلم يزل هنالك مجاهداً حتى مات.

وقال آخر: قامت تشجعتني هند وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطب لا والذي منع الأبصار رؤيته ما يشتهي الموت عندي من له أدب ولست منهم ولا أبغي فعالهم لا القتل يعجبني منهم ولا السلب وقال محمود الوراق: أيها الفارس المشيخ المغير إن قلبي من السلاح يطير ليس لي قوة على رهج الخيل إذا ثور الغبار مثير واستدارت رحى الحروب يقوم فقتيل وهارب وأسير حيث لا ينطق الجبان من الذعر وعلو الصياح والتكبير أنا في مثل ذا وهذا بليد وليب في غيره بحرير وقال أيمن بن خريم: إن للفتنة ميطاً بيناً فرويد الميط منها يعتدل فإذا كان عطاء فاتهم وإذا كان قتال فاعتزل إنما يوقدها جهالها حطب النار فدعها تشتعل ومما يحتج به الفرارون ما قاله صاحب كليله ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بدأً منه لأن النفقة فيه من النفس والنفقة في غيره من المال.

ومن الفرارين: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فر من الأزارقة وكان في عشرة آلاف وكان قد بعث إليه المهلب: يا بن أخي خندق على نفسك وعلى أصحابك فإني عالم بأمر الخوارج ولا تغتر.

فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك وهم أهون علي من ضربة الجمل.

فبيته قطري صاحب الأزارقة فقتل من أصحابه خمسمائة وفر لا يلو على أحد.

فقال فيه الشاعر: تركت ولداننا تدمى نحورهم وجئت منهزماً يا ضرطة الجمل ومن الفرارين: أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

فر يوم مرداء هجر من أبي فديك.

فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسي المهرجان من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام.

فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير فلو ركبت النيروز لسرت إليها في يوم واحد.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما دخل عليه أهل البصرة لم يروا كيف يكلمونه ولا ما يلقونه من القول أيهنتونه أم يعزونه حتى دخل عليه عبد الله بن الأهثم فاستشرف الناس له وقالوا: ما عسى أن يقال للمنهم فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخدول الذي خذله قومه الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرضت للشهادة جهدي ولكن علم الله تعالى حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخدلان من معك لك.

فقال أمية بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرني عن نفسي غيرك.

إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد أتى الحجاج بدواب أمية قد وسم على أفخاذها عدة فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: للفرار.

وقال أبو دلامة: كنت مع مروان أيام الضحاك الحروري فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله ثم ثان فقتله ثم ثالث فقتله فانقبض الناس عنه وجعل يدنو ويهدر كالفحل المغتلم.

فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف قال: فلما سمعت عشرة آلاف هانت علي الدنيا وسخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه فإذا عليه فرو قد أصابه المطر فارمعل ثم أصابته الشمس فاقفعل وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان.

فلما رأيته فهم الذي أخرجني فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول: وخارج أخرجته حب الطمع فر من الموت وفي الموت وقع " من كان ينوي أهله فلا رجع " فلما رأيته قنعت رأسي ووليت هارباً ومروان يقول: من هذا الفاضح لا يفتكم فدخلت في غمار الناس.

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو قال: وكيف يكونون لي عدواً وما أعرفهم ولا يعرفوني وقيل لآخر: ألا تغزو العدو قال: والله إنني لأبغض الموت على فراشي فكيف أحب إليه راكضاً.

ومما قيل في الفرارين والجناء من الشعر قول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام بفراره يوم بدر وقد تقدم ذكر ذلك: إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث هشام ترك الأحية لم يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام ملأت به الفرجين فارمدت به وثوى أحبته بشر مقام وقال بعض العراقيين في رجل أكل جبان: إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد وقال فيه: ضعيف القلب رعديد الخلق والمنظر رأى في النوم عصفوراً فواري نفسه أشهر وقال آخر: لو جرت خيل نكوصاً لجرت خيل ذفاه وقال آخر: خرجنا نريد مغاراً لنا وفينا زياد أبو صعصعة فسته رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة ولم يقل أحد في وصف الجبن والفرار مثل قول الطرماح في بني تميم: تميم بطرق اللؤم أهدي من القطلا ولو سلكت طرق المكارم ضلت ولو أن برغوثاً على ظهر قملة رآته تميم يوم زحف لولت ولو جمعت يوماً تميم جموعها على ذرة معقولة لاشمعلت وليس

مكتبة مشكاة الإسلامية

يعاب الشجاع والبهمة البطل بالفرة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة وقليلة لا عادة كما قال زفر بن الحارث وفر يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال: أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح أيامي وحسن بلائيا ولم تر مني زلة قبل هذه فراري وتركني صاحبي ورائيا وفر عمر بن معد يكرب من عباس بن مرداس السلمى وأسر أخته ربحانة.

وفيهما يقول عمرو: أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع وفر عن بني عبس وفيهم زهير بن جذيمة العيسبي وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير أجاعلة أم الثوير خزاية علي فراري إذ لقيت بني عبس لقيت أبا شأس وشأساً ومالكاً وقيساً فجاشت من لقاءهم نفسي لقونا فضموا جانبينا بصادق من الطعن مثل النار في الحطب اليس ولما دخلنا تحت فيء رماهم خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس وقال أيضاً: ولقد أجمع رجلي بها حذر الموت وإني لفرور ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هدير كل ما ذلك مني خلق وبكل أنا في الروع جدير وابن صبح سادراً يوعدني ما له في الناس ما عشت مجير وقال الحارث لامرأته وذلك أنها نظرت إليه وهو يحد حربة يوم فتح مكة فقالت له: ما تصنع بهذه قال: أعددتها لمحمد وأصحابه.

فقال: ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء! قال: والله إنني لأرجو أن أخدمك بعضهم قم أنشأ يقول: فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل فلامته امرأته فقال: إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة وأبو يزيد قائم كالموتمة ولحقتنا بالسيوف المسلمة يفلقن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة وكان أسلم بن زرعة وجهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين وأبو بلال في أربعين رجلاً فشدوا عليه شدة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه فما دخل على ابن زياد عنقه في ذلك وقال: أتمضي في ألفين وتنهزم.

عن أربعين! فخرج عنه وهو يقول لأن يذمني ابن زياد حياً خيراً من أن يمدحني ميتاً.

وفي رواية أخرى: أن يشتمني الأمير وأنا حي أحب إلي من أن يدعو لي وأنا ميت.

فقال شاعر الخوارج: أألفا مؤمن لستم كذاكم ولكن الخوارج مؤمنونا هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا ومثل ذلك قول عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي وكان فر يوم الحرة من جيش مسلم بن أبي بكر فررت يوم الحرة والشيخ لا يفر إلا مرة فاليوم أجرى فرة بكره لا بأس بالكرة بعد الفره فلم يزل يقاتل حتى قتل.

وأحسن ما قيل في الفرار كله ما قال قيس بن الخطيم: إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب أجالدهم يوم الحديد حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب وفر عتبية بن الحارث بن شهاب يوم ثبرة عن ابنه

مكتبة مشكاة الإسلامية

حزوة وقال: يا حسرتا لقد لقيت حسرة يا لتمام غشيتني غمره نعم الفتى غادرته بثرة نجيت نفسي وتركت حزرة هل يترك الحر الكريم بكره وفر أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه ورصدوه بعرفات فقال: رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت - وأنكرت الوجوه - هم هم وقلت وقد جاوزت أصحاب فائد وأعجزت أولى الخيل أم أنا أحلم وفر خبيب بن عوف يوم مرداء هجر من أبي فديك فقال: بذلت لهم يا قوم حولي وقوتي ونصحي وما ضمت يداي من التبر فلما تناهى الأمر بي من عدوكم إلى مهجتي وليت أعداءكم ظهري وطرت ولم أحفل ملامة عاجز يقيم لأطراف الردينية السمر فلو كان لي روحان عرضت واحداً لكل رديني وأبيض ذي أثر رجع بنا القول إلى الفرارين والجناء وما قيل فيهم.

فر خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة فقال فيه الفرزدق: وكل بني السوداء قد فر فرة فلم يبق إلا فرة في است خالد فضحتم أمير المؤمنين وأنتم تمررون سودانا غلاظ السواعد وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدم.

فأنشأ يقول: وقالوا تقدم قلت لست بفاعل أخاف على فخارتي أن تحطما فلو كان لي رأسان أتلفت واحداً ولكنه رأس إذا راح أعقما ولو كان متاعاً لدى السوق مثله فعلت ولم أحفل بأن أتقدما وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع الجذامي: عجبا منك! كيف سودك قومك وأنت جبان غيور قال: أما الجبن فإن لي نفساً واحدة فأنا أحوطها وأما الغيرة فما أحق بها من كانت له امرأة حمقاء مثلك مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حجره.

وقال كعب بن زهير: بخلاً علينا وجبناً من عدوكم لبئست الخلتان: البخل والجبين فضائل الخيل قال النبي صلى الله عليه وسلم في صفة الخيل: أعرفها أذفاؤها وأذنبها مذايها والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: عليكم بإنات الخيل فإن بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها.

وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أريد أن اشتري فرساً أعده في سبيل الله.

فقال له: اشتره أدهم أو كميئاً أقرح أرثم أو محجلاً مطلق اليمين فإنها ميامن الخيل.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف قال فرس يتبعها فرس في بطنها فرس.

صفة جياذ الخيل

مكتبة مشكاة الإسلامية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيل الشقر.

وقال: لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا أشقر.

وسأله رجل: أي المال خير قال: سكة مأبورة ومهرة مأمورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال في الخيل.

ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نعس وإذا حركته طار.

وأرسل مسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً.

فقال له: لا علم لي بالخيل.

فقال: ألسنت صاحب قنص قال: بلى.

قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكلب في الفرس.

فأتى بخيل لم يكن في العرب مثلها.

وقال بعض الضبيين في وصف فرس: متقاذف عبل الشوى شنج النسا سباق
أندية الجياد عميثل وإذا تعلل بالسياط جيادها أعطاك نائله ولم يتعلل سأل
المهدي مطر بن دراج عن أي الخيل أفضل قال: الذي إذا استقبلته قلت نافر
وإذا استدبرته قلت زاخر وإذا استعرضته قلت زافر.

قال: فأى هذه أفضل قال: الذي طرفه إمامه وسوطه عنانه.

وقال آخر: الذي إذا مشى ردى وإذا عدا دحا وإذا استقبل ألقى وإذا استدبر
جى وإذا استعرض استوى.

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صوحان: أي الخيل أفضل! قال:
الطويل الثلاث القصير الثلاث العريض الثلاث الصافي الثلاث.

قال: فسر لنا.

قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام.

وأما القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب.

وأما العريض الثلاث فالجبهة والمنخر والورك وأما الصافي الثلاث فالأديم
والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب: كيف معرفتك بعراب الخيل
قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأمر بأفراس فعرضت عليه.

فقال: قدموا إليها الماء في التراس فما شرب ولم يكتف فهو من العراب وما تنى سنبكه فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العتاق والهجن فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره.

فأمر سلمان بطست من ماء فوضع بالأرض ثم قدم إليه الخيل فرساً فرساً فما تنى سنبكه وشرب هجنه وما شرب ولم يثن سنبكه عربه.

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس: بكل كميت جوزه نصف خلقه أقب طوال مشرف في الحواريك وقال زهير: وملجمننا ما أن ينال قذاله ولا قدماه الأرض إلا أنامله وقال آخر: له ساقا ظليم خاضب فوجئ بالرعب وقال آخر: هريت قصير عذاب اللجام أسيل طويل عذار الرسن لم يرد بقوله.

قصير عذار اللجام قصر خده وإنما أراد طول شق الفم.

وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.

وقال آخر: بكل هريت نقي الأديم طويل الحزام قصير اللبب وقال أبو عبيدة يستدل على عنق الفرس برقة جحافله وأرنبته وسعة منخرية وعري نواهقه ودقة حقويه وما ظهر من أعالي أذنيه ورقة سالفتيه وأديمه ولين شعره.

وأبين من ذلك كله لين شكير ناصيته وعرفه.

وكانوا يقولون.

إذا اشتد نفه ورحب متنفسه وطال عنقه واشتد حقوه وانهرت شدقه وعظمت فخذاه وانشبت أنساؤه وعظمت فصوصه وصلبت حوافره ووقحت ألحق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المقرف قال: نعم أما الكريم فالجواد الجيد الذي نهز نهز العير وأنف تأنيف السير الذي إذا عدا اسلهب وإذا أقبل أجلب وإذا انتصب اتلاب.

وأما المقرف: فإنه الذلول الحجة الضخم الأرنبة الغليظ الرقبة الكثير الجلبة الذي إذا أرسلته قال: أمسكني وإذا أمسكته قال: أرسلني.

وكان محمد بن السائب الكلبي يحدث: أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان بن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه فلما عرضت ألته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب فعرقها إلا أفراساً لم تعرض عليه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فوفد عليه أقوام من الأزدي وكانوا أصهاره فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبي الله إن أرضنا شاسعة فزودنا زاداً يبلغنا.

فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتكم بطعامكم فساروا بالفرس فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبهم أحدهم للقنص فلا يفلته شيء وقعت عينه عليه من ظبي أو بقر أو حمار إلى أن قدموا إلى بلادهم فقالوا.

ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب.

فسموه زاد الراكب.

فأصل فحول العرب من نتاجه.

ويقال إن أعوج كان منها وكان فحلاً لهلال بن عامر أنتجته أمه ببعض بيوت الحي فنظروا إلى طرف يضع جحفلة على كاذتها على الفخذ مما يلي الحياء فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم لعظم أعوج وطول قوائمه.

فقاموا إليه فوجدوا المهر فسموه أعوج.

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أغير على أهل النصار وأعوج موثق بثمامة فجال صاحبه في منته ثم زجره فاقتلع الثمامة فخرجت تحف في منته كالخذروف وراءه.

فغدا بياض يومه وأمسى يتعشى من جميم قباء.

وقال الشاعر في وصف فرس: وأحمر كالديباج أما سماؤه فريا وأما أرضه فمحول قوله سماؤه: أعلاه وأرضه: أسفله.

يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول: مبتل متن وصهوتين إلى جوافر صلبة له ملس فهو لدى الروع والحلائب ذو أعلى مندى وأسفل يبس أو أدهم فيه كمتة أمم كأنه قطعة من الغليس صهصلق في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على جرس وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهدها إليه الحسن بن وهب الكاتب: ما مقرب يختال في أشطانه ملآن من صلف به وتلهوق بجوافر حفر وصلب صلب وأشاعر شعر وحلق أحلق ذو ألق تحت العجاج وإنما من صحة إفراط ذاك الأولق تغرى العيون به ويفلق شاعر في نعته عفواً وليس بمفلق بمصعد من حسنه ومصوب ومجمع في خلقه ومفروق قد سالت الأوضح سيل قراره فيه فمفترق عليه وملتقى صافي الأديم كأنما ألبسته من سندس ثوباً ومن إستبرق مسود شطر مثل ما اسود الدجى مبيض شطر كابيضاض المهرق فكان فارسه يصرف إذ بدا في منته ابناً للصباح الأبلق إملسه إمليده لو علق في صهوتيه الصين لم تتعلق يرقى وما هو بالسليم ويغتدي دون

مكتبة مشكاة الإسلامية

السلاح سلاح أروع مملق وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البذ وتحتة فرس أدهم وعليه نضح الدم.

فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد: كم ذا تجرعه المنون ويسلم لو يستطيع
 شكا إليك الأدهم في كل منبت شعرة من جلده نمق ينمقه الحسام المخدم
 ما تدرك الأرواح أدنى سيره لا بل يفوت الريح فهو مقدم رجعت أطراف
 الأسنان أشقراً واللون أدهم حين ضرجه الدم قال: فأمر له بعشرة ألف
 درهم.

ومن قولنا في وصف الفرس: ومقرية يشقر في النقع كمتها ويخضر حيناً
 كلما بلها الرشح تطير بلا ريش إلى كل صيحة وتسبح في البر الذي ما به
 سح وقال عدى بن الرقاع: يخرج من فرجات النقع دامية كان أذنها
 أطراف أقلام وطلب البحترى الشاعر من محمد بن حميد بن عبد الحميد
 الكاتب فرساً ووصف له أنواعاً من الخيل في شعره فقال: لأكلفن العيس
 أبعد همة يجري إليها خائف أو مرتجى وإلى سراة بني حميد إنهم أمسوا
 كواكب أشرقت في مذبح والبيت لولا أن فيه فضيلة تعلق البيوت بفضلها لم
 يحج فأعن على غزو العدو بمنطو أحشاؤه طي الرداء المدرج متسرل شية
 طلعت أعطافه بدم فما تلقاه غير مضرج أو أدهم صافي الأديم كأنه تحت
 الكمي مظهر بيرندج ضرم يهيج السوط من شؤبويه هيج الجنائب من حريق
 العرفج خفت مواقع وطئه فلو أنه يجري برملة عالج لم يرهج أو أشهب يقق
 بضئ وراءه متن كمتن اللجة المترجرج تخفى الحجول ولو بلغن لبانه في
 أبيض متألج كالدملج أوفى يعرف أسود متفرد فيما يليه وحافر فيروزي أو
 أبلق ملاً العيون إذا بدا من كل لون معجب بنموذج جذلان تحسده الجياد إذا
 مشى عنقاً بأحسن حلة لم تنسج وعريض أعلى المتن لو عليته بالزئبق
 المنهال لم يترجرج خاضت قوائمه الوثيق بناؤها أمواج تحنّب بهن مدرج
 ولأنت أبعد في السماحة همة من أن تضن بموكف أو مسرج كان على
 المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل مكر مفر مقبل مدبر
 معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه
 بخيط موصل كميّ يزل اللبد عن حال منته كما زلت الصفواء بالمتنزل
 فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فحدوا عليه فقال طفيل
 الخيل: إني وإن قل مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طول تقربها
 المرطى والجوز معتدل كأنه سبد بالماء مغسول أو ساهم الوجه لم تقطع
 أباجله يسان وهو ليوم الروع مبدول وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي
 المناديل أفضل فقال: بعضهم: مناديل مصر التي كأنها غرقئ البيض وقال
 بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع.

فقال: ما صنعت شيئاً أفضل المناديل مناديل عبدة ابن الطيب حيث يقول:
 لما نزلنا ضربنا ظل أخبية وفار باللحم للقوم المراجيل ورداً وأشقر لم ينهئه
 طابخه ما قارب النضح منها فهو مأكول وقال الأصمعي: ما سبق في الرهان
 فرس أهضم قط.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأنشد لأبي النجم: منتفج الجوف عريض كلكله قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق فسبقته له فرس أنثى وصلت أختها ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال: علي بالشعراء.

قال أبو النجم: فدعينا فليل لنا: قولوا في هذه الفرس وأختها.

فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى يقولوا فقلت له: هل لك في رجل ينقذك إذا استنستوك قال: هات.

فقلت من ساعتني: أشاع للغراء فينا ذكرها قوائم عوج أطعن أمرها وما نسينا بالطريق مهرها حين نقيس قدره وقدرها وصبره إذا عدا وصبرها والماء يعلو نحره ونحرها مملومة شد المليك أسرها أسفلها وبطنها وظهرها قد كاد هاديها يكون شطرها قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن علي بن جعفر البصري قالوا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة.

قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر.

فجاء فرس أدهم يقال له الربد لهارون الرشيد سابقاً.

فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك في وجهه وقال: علي بالأصمعي.

فنوديت له من كل جانب.

فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه.

فقال: يا أصمعي خذ بناحية الربد ثم صفه من قونسه إلى سنبكه فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً ومن أسماء الطير.

قلت: نعم يا أمير المؤمنين وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حذرة.

قال: فأنشدنا لله أبوك.

قال: فأنشدته: وأقب كالسرحان تم له ما بين هامته إلى النسر الأقب: اللاحق المخطف البطن وذلك يكون من خلقة وربما حدث من هزال أو بعد قود والأنثى قباء والجمع: قب والمصدر: القيب.

والسرحان: الذئب شبهه في ضموره وعدوه به وجمعه سراحين وقد قالوا: سراح.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والهامة: أعلى الرأس وهي أم الدماغ وهي من أسماء الطير.

والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النوى والحصى وهو من أسماء الطير وجمعه نسور.

رحبت نعامة ووفر فرخه وتمكن الصردان في النحر رحبت: اتسعت.

ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ وهي من أسماء الطير.

وقوله: ووفرة فرخه.

الفرخ: هو الدماغ وهو من أسماء الطيور.

ووفر: أي تمم يقال: وفرت الشيء ووفرت به بالتخفيف فهو موفور.

والصردان: عرقان في أصل اللسان يجري منهما الريق ونفس الرئة وهما من أسماء الطير.

وفي الظهر صرد أيضاً وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدبر يقال: فرس صرد إذا كان ذلك به والنحر: موضع القلادة من الصدر وهو البرك.

وأناف بالعصفور من سعف هام أشم موثق الجذر أناف: أشرف.

والعصفور: أصل منبت الناصية والعصفور أيضاً: عظم ناتئ في كل جبين والعصفور: من الغرر أيضاً وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقرحة وهو من أسماء الطير والسعف يقال: فرس بين السعف وهو الذي سالت ناصيته.

وهام أي سائل منتشر.

وأشم: مرتفع.

والشمم في الأنف: ارتفاع قصبته.

ويروى: هاد أشم يريد عنقاً مرتفعاً وجمعه: هواد وقوله: موثق أي شديد قوي.

والجذر: الأصل من كل شيء.

قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالديكين صلصله ونبت دجاجته عن الصدر ازدان: افتعل من قولك زان يزين وكان الأصل ازتان فقلبت التاء دالا لقرب نخرجها من مخرج الزاي وكذلك ازداد من زاد يزيد.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والديكان واحدهما ديك وهو العظم الناتئ خلف الأذن وهو الذي يقال له الخششاء والخشاء.

والصلصل: بياض في طرف الناصية ويقال: هو أصل الناصية.

والدجاجة: اللحم الذي على زوره بين يديه.

والديك والصلصل والدجاجة من أسماء الطير.

والناهضان أمر جلزهما فكأنما عثما على كسر الناهضان: واحدهما ناهض وهو لحم المنكبين ويقال: هو اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما والجمع: نواهض ويقال في الجمع: أنهض على غير قياس.

والناهض: فرخ القطا وهو من أسماء الطير.

وقوله: أمر جلزهما أي فتل وأحكم يقال: أمررت الحبل فهو ممر أي فتلته.

والجلز: الشد.

وقوله: " فكأنما عثما على كسر " أي كأنهما كسراً ثم جبراً.

يقال: عثمت يده.

العثم: الجبر على عقدة وعوج وعثمان فعلان منه.

مسحنفر الجنين ملتئم ما بين شيمته إلى الغر مسحنفر الجنين: أي منتفخهما.

ملتئم أي معتدل.

وشيمته: نحره.

والشيمة أيضاً: من قولك: فرس أشيم بين الشيمة وهي بياض فيه ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده.

والغر في الطير يسمى الرخمة وهي عضلة الساق.

وصفت سماناه وحافزه وأديمه ومنابت الشعر السمانى: طائر وهو موضع من الفرس لا أحفظه إلا أن يكون أراد السمامة وهي دائرة تكون في سالفة الفرس وهي عنقه والسمامة من الطير أيضاً.

والأديم: الجلد.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وسما الغراب لموقعيه معاً فأبين بينهما على قدر سما الغراب أي ارتفع والغراب: رأس الورك.

ويقال للصلوين: الغرابان وهما مكنفا عجب الذنب.

ويقال: هما ملتقى أعالي الوركين.

والموقعان منه في أعالي الخاصرتين فأبين أي فرق بينهما على قدر أي على استواء واعتدال.

واكتن دون قبيحه خطافه ونأت سماته عن الصقر اكن: أي استتر.

والقبيح: ملتقى الساقين ويقال أنه مركب الذراعين في العضدين.

والخطاف: من أسماء الطير وهو حيث أدركت عقب الفرس إذا حرك رجليه.

ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المركلان.

ونأت أي بعدت.

والسمامة: دائرة تكون في عنق الفرس وقد ذكرناها وهي من أسماء الطير.

والصقر: أحسبها دائرة في الرأس وما وقفت عليها وهي من أسماء الطير.

القطاة: مقعد الردف وهي من أسماء الطير والحر: من الطير يقال إنه ذكر الحمام وهو من الفرس سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسما على نقويه دون حداته خربان بينهما مدى الشبر النقوان: واحدهما نقو والجمع.

أنقاء وهو عظم ذو مخ وإنما عنى هاهنا عظام الوركين لأن الخرب هو الذي تراه مثل المدهن في ورك الفرس.

وهو من الطير: ذكر الحبارى.

والحدأة: من الطير وأصله الهمز ولكنه خفف وهي سالفة الفرس وجمعها حداء على وزن فعال كما تقول: عطاء وعطاء ويقال: عطاية.

وإذا فتحت الفاء قلت: حدأة وهي الفأس ذات الرأسين وجمعها: حدأ مثل نواة ونوى وقطاة وقطا.

يدع الرزيم إذا جرى فلقاً بتوائم كمواسم سمر الرزيم: الحجارة.

والفلق: المكسورة فلقاً.

مكتبة مشكاة الإسلامية

بتوائم: جمع توأم وقد قالوا.

تؤم على وزن فعال جمع توأم وهي على غير قياس.

يقول: هي مثنى مثنى يعني حوافره.

والمواسم: جمع ميسم الحديد من وسمت أي إنها كمواسم الحديد في صلابتها.

وقوله: سمر أي لون الحافر وهو أصلب الحوافر.

ركبن في محص الشوى سبط كفت الوثوب مشدد الأسر الشوى هاهنا: القوائم والواحدة: شواة.

ويقال: فرس محص الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة.

سبط: سهل.

كفت الوثوب أي مجتمع من قولك: كفت الشيء إذا جمعته وتممته.

مشدد الأسر أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وسبق يوماً فرس للرشيد يسمى المشمر وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي فقال أبو العتاهية: جاء المشمر والأفراس يقدمها هوناً على سرعة منها وما انتهرا وخلق الريح حسرى وهي تتبعه ومر يختطف الأبصار والنظرا وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس وهو أجود شعر يصف الحلبة: ثم سمعنا برهان نامله قيد له من كل أفق جحفله فقلت للسائس قده أعجله وأغد لنا في الرهان نرسله فظل مجنوناً وظل جملة بين شعيبين وزاد يزمله نعلو به الحزن ولا نسهله إذا علا الأخشب صاح جندله ترنم النوح تبكي مثكله كان في الصوت الذي يفصله طي التجار العصب إذ تنخلة وقد رأينا فعلهم فنفعله نطويه والطبي الرقيق يجدله نضمر الشحم ولسنا نهزله حتى إذا الليل تولى أثلجه وأتبع الأيدي منه أرجله قمنا على هول شديد وجله نمد حبلاً فوق خط نعدله نقوم قدم ذا وهذا أدخله وقام مشقوق القميص يعجله فوق الخماسي قليلاً يفضله أدرك عقلاً والرهان عمله حتى إذا أدرك خيلاً مرسله ثار عجاج مستطير قسطله تنفث منه الخيل ما لا تغزله مرأً يغطيها ومرأً تنعله مر القطا انصب عليه أجده وهو رخي البال ساج وهله قدمه مثلاً لمن يتمثله تطيره الجن وحيناً ترجله تسبح أخراه ويطفو أوله ترى الغلام ساجياً ما يركله يعطيه ما شاء وليس يسأله كأنه من زبد يسربله والجن عكاف به تقبله وقال آخر في فرس أبي الأعور السلمي: مر كلعع البرق سام ناظره تسبح أولاه ويطفو آخره " فما يمس الأرض منه حافره " وقول هذا أشبه من قول أبي نجم لأنه يقول: " تسبح أخراه ويطفو

مكتبة مشكاة الإسلامية

أوله " وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكساح أسرع منه لأن اضطراب مؤخره قبيح.

وقال الأصمعي كان أبو النجم وصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت.

وقد غلط رؤية أيضاً في الفرس فقال يصف قوائمه: " يهوين شتى ويقعن وفقاً " ولما أنشده مسلم بن قتيبة.

قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف جعلته مقيداً.

فقال: قرني من ذنب البعير.

وأنشد الأصمعي: لما أتيت الحي في متبه كأن عرجوناً بمثنى يدي أقبل يختال على شأوه يضرب في الأقرب والأبعد كأنه سكران أو عابس أو ابن رب حدث المولد وقال غيره: أما إذا استقبلته فكأنه جذع سما فوق النخيل مشذب وإذا اعترضت له استوت أقطاره وكأنه - مستديراً - متصوب وقال ابن المعتز: وقد يحضر الهيجاء بي شنج النساء تكامل في أسنانه فهو قارح له عنق يغال طول عنانه وصدر إذا أعطيته الجري سايح إذا مال عن أعطافه قلت شارب عناه بتصرف المدامة طافح وقال أيضاً: ولقد وطئت الغيث يحملني طرف كلون الصبح حين وقد يمشي فيعرض في العنان كما صدف المعشوق ذو الدلال وصد الحلبة والرهان والحلبة: مجمع الخيل.

ويقال: مجتمع الخيل.

ويقال: مجتمع الناس للرهان.

وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا إذا اجتمعوا.

ويقال منه: حلب الحالب اللبن في القدر أي جمعه فيه.

والمقوس: الحبل الذي يمد في صدور الخيل عند الإرسال للسباق.

والمنصب: الخيل حين تنصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن لأن الرجل يراهن يصاحبه في المسابقة يضع هذا رهناً وهذا رهناً فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه.

والرهان: مصدر راهنته مراهنه ورهاناً كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالاً.

وهذا كان من أمر الجاهلية وهو القمار المنهي عنه فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شيء وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما محلاً وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ويسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيباً وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين معاً وإن سبق هو لم يكن عليه شيء.

ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً لا يأمنان أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محلاً.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول والمصلي: الثاني الذي يتلوه.

قال: وإنما قيل له مصل لأنه يكون عند صلوي السابق وهما جانباً ذنبه عن يمينه وشماله.

ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر فإنه يسمى سكيماً.

قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسماً لشيء منها إلا الثاني والعاشر فإن الثاني اسمه المصلي والعاشر السكيت وما سوى ذلك يقال: الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع ثم السكيت.

ويقال السكيت بالتحديد والتخفيف.

فما جاء بعد ذلك لم يعتد به.

والفسكل بالكسر: الذي يجيء آخر الليل والعامة تسميه الفسكل بالضم.

وقال أبو عبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل وهو الفسكل وإنما قيل للسكيت سكيتم لأنه آخر العدد الذي يقف العاد عليه.

والسكت: الوقوف.

هكذا كانوا يقولون فأما اليوم فقد غيروا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير: إذا شئت أن تمسحوا وجه سابق جواد فمدوا في الرهان عنانياً ومن قولنا في هذا المعنى: خلوا عناني في الرهان ومسحوا مني بغرة أبلق مشهور وصف السلاح كانت درع علي صدرًا لا ظهر لها.

فقيل له في ذلك.

فقال: إذا استمكن دعوي من ظهري فلا يبقي.

ورئي الجراح بن عبد الله قد ظاهر بين درعين.

فقيل له في ذلك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري.

واشترى زيد بن حاتم أدرعاً وقال: إني لست أشتري أدرعاً وإنما أشتري أعماراً.

وقال حبيب بن المهلب لبيه لا يقعدن أحدكم في السوق فإن كنتم لا بد فاعلين فإلى زراد أو سراج أو وراق.

العتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة. فبعث به إليه.

فلما ضرب به وجهه دون ما كان يبلغه عنه فكتب إليه في ذلك.

فرد عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً عن السلام: فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له قال: ما تقول في الترس قال: هو المجن الدائر. وعليه تدور الدوائر.

قال: فما تقول في الرمح قال: أخوك وربما خانك فانقصف.

قال: فالنبل قال: منايا تخطئ وتصيب.

قال: فما تقول في الدرع قال: مثقلة للراجل متعبة للفارس وإنها الحصن الحصين.

قال فما تقول في السيف قال: هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة وقال: بل لا أم لك.

قال: الحمى أضرعتني لك.

الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معد يكرب الذي يقال له الصمصامة لموسى الهادي. فدعا به فوضع بين يديه مجرداً ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء.

فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه. فبدرهم ابن يامين فقال: حاز صمصامة الزبيدي عمرو من جميع الأنام مواسي الأمين سيف عمرو وكان فيما سمعنا خبر ما أعمدت عليه الجفون أخضر المتن بين حديه نور من فرند تمتد فيه العيون أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الذعاف القيون فإذا ما سللته بهر الشمس فلم تكد تستبين فكائن الفرند والرونق الجاري في صفحته ماء معين نعم مخراق ذي الحفيظة في الهي جاء يسطو به أم يمين فأمر له ببدة وخرجوا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس.

فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب. يريد أن العمل ليده لا لسيفه.

وقال: متى تلقني يعدو ببزي مقلص كميث بهيم أو أغر محجل تلاق أمراً إن تلقه فبسيفه تعلمك الأيام ما كنت تجهل وقال أبو الشيص: ختلته المنون بعد اختيال بين صفين من قنا ونصال في رداء من الصفيح صقيل وقميص من الحديد مزال وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر فوجه إليهم ابنه الأغر وقال: يا بني كن يداً لأصحابك على من قاتلهم وإياك والسيف فإنه ظل الموت واتق الرمح فإنه رشاء المنية ولا تقرب السهام فإنها رسل لا تؤامر مرسلها.

قال: فيماذا أقاتل قال: بما قال الشاعر: جلاميد يملأن الأكف كأنها رعوس رجال حلقت في المواسم أقبلت الفحول تمشي مشي الوعول فلما تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهاها.

وقال آخر يذكر قوماً أسروا: استنزلوهم عن الجياد بلينة الخرصان ونزعوهم نزع الدلاء بالاشيطان.

وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم: احتنوا كل جمالية عيرانة كيما يخصفون أخفاف المطي بحوافر الخيل.

حتى أدركوهم بعد ثالثة فجعلوا المران أرشية المنايا فاستقوا بها أرواحهم.

ومن أحسن ما قيل في السيف قول حبيب: ونبهن مثل السيف لو لم تسله يدان لسلته ظباه من الغمد وقال في صفة الرماح: مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القضا ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف: يقد السلوقي المضاعف نسجه وبوقد في الصفاح نار الحجاب فذكر أنه يقد الدرع المضاعف نسجها والفارس والفرس ويقع بها في الأرض فيقدح النار من الحجارة.

تظل تحفر عنه إن ضرب به بعد الذراعين والساقين والهادي وقد جمع العلوي وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجود حيث يقول: بحسبي من مالي من الخيل أعيط سليم الشطي عاري النواهي أمعط وأبيض من ماء الحديد مهند وأسمر عسال الكعوب عنطنط وبيضاء كالضحاح زعف مفاضة يكفتها عني نجاد مخطط ومعطوفة الأطراف كبداء سمحة منفة الأعضاء صفراء شوحط فيا ليت مالي غير ما قد جمعته على لجة تيارها يتغطط ويا ليتني أمسى على الدهر ليلة وليس على نفسي أمير مسلط ومن قولنا في وصف الرمح والسيف: بكل رديني كأن سنانه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع تقاصرت الأجال في طول متنه وعادت به الآمال وهي فجائع وساءت ظنون الحرب في حسن ظنه فهن ظبات للقلوب قوارع وذي شطب تقضي المنايا بحكمه وليس لما تقضي المنية دافع إذا ما التقت أمثاله في وقية

مكتبة مشكاة الإسلامية

هنالك ظن النفس بالنفس واقع ومن قولنا في وصف السيف: بكل مآثور على متنه مثل مدب النمل بالقاع يرتد طرف العين من حده عن كوكب للموت لماع وقال إسحاق بن خلف البهراني في صفة السيف: ألقى بجانب خصره أمضى من الأجل المتاح وكأنما ذر الهباء عليه أنفاس الرياح ومن جيد صفات السيف قول الغنوي: حسام غداة الروع ماض كأنه من الله في قبض النفوس رسول كان على إفرنده موج لجة تقاصر في ضحضاحه وتطول كأن جيوش الذركسرن فوقه قرون جراد بينهن ذحول النزع بالقوس إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعة له بواسطة في مغرم لزمه للخليفة فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة فإن كفاك ما في هذا الخرج وإلا فاكتب إلي أمدك بالمال.

فخرج فلما أصحر عن البيوت لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة فقال له: إلى أين تتوجه فقال: إلى واسط.

قال: فهل لك في الصحبة قال: نعم.

فسارا حتى فوزا فعنت لهما ظياء فقال له الأعرابي: أي هذه الظباء أحب إليك المتقدم منها أم المتأخر فأزكيه لك قال له: المتقدم.

فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتويا وأكلا.

فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابي.

ثم عنت لهما زفة قطا فقال: أيها تريد فأصرعها لك فأشار إلى واحدة منها.

فرماها فأقصدها ثم اشتويا وأكلا.

فلما انقضى طعامهما فوق له الأعرابي سهماً ثم قال له: أين تريد أن أصيبك فقال له: اتق الله عز وجل واحفظ زمام الصحبة.

قال: لا بد منه.

قال: اتق الله ربك واستبقني ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً.

قال: فاخلع ثيابك.

فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً حتى بقي مجرداً.

قال له: اخلع أمواقك وكان لابساً خفين مطابقين.

فقال له: اتق الله في ودع الخفين أتبلغ بهما من الحر فإن الرمضاء تحرق قدمي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: لا بد منه.

قال: فدونك الخف فأخلعه.

فلما تناول الخف ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عاتقه وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهبت مثلاً.

وكان هذا الأعرابي من رماة الحدق.

وحدث العتبي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة.

فأتي بأعرابي كان معروفاً بالسرقة فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك.

قال: عجائبي كثيرة.

ومن أعجبها أنه كان لي بعير لا يسبق وكانت لي خيل لا تلحق فكنت أخرج فلا أرجع خائباً فخرجت يوماً فاحترشت ضبا فعلقته علي فتبني ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل.

فلما أمسيت إذا بإبل وإذا شيخ عظيم البطن شثن الكفين ومعه عبد أسود وغد.

فلما رأني رحب بي ثم قام إلى ناقة فاحتلبها وناولني العلية فشربت ما يشرب الرجل فتناول الباقي فضرب بها جبهته ثم احتلب تسع أينق فشرب ألبانها ثم نحر حواراً فطبخه فأكلت شيئاً وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضاً.

وجئنا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غط غطيظ البكر.

فقلت: هذه والله الغنيمة ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته ثم قرنته ببعيري وصحت به فاتبعني الفحل واتبعته الإبل إرباباً به في قطار فصارت خلفي كأنها حبل ممدود.

فمضيت أبادر ثنية بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع ولم أزل أضرب ببعيري مرة بيدي ومرة برجلي حتى طلع الفجر فأبصرت الثنية وإذا عليها سواد فلما دنوت منه إذا الشيخ قاعد وقوسه في حجره.

فقال: أضيفنا قلت: نعم.

قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل قلت: لا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأخرج سهماً كأنه لسان كلب ثم قال: انظره بين أذني الضب المعلق في القتب ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه فقال لي: ما تقول قلت: أنا على رأيي الأول قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى ثم رمى به فكأنما قدره بيده ثم وضعه بإصبعه.

ثم قال: رأيك فقلت: إني أحب أن أستثبت.

قال: انظر هذا السهم الثالث في عكوة.

ذنبه والرابع والله في بطنك.

ثم رماه فلم يخطئ العكوة.

قلت: أنزل آمناً قال: نعم.

فدفعت إليه ختام فحله وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة وأنا متى يرميني بسهم يقصد به قلبي.

فلما تباعدت قال: أقبل فأقبلت والله فرقاً من شره لا طمعاً في خيره.

فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة.

قلت نعم.

قال فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيتك.

قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخيرك عن نفسك فلا والله ما رأيت أعرابياً قط أشد ضرراً ولا أعدى رجلاً ولا أرمى يداً ولا أكرم عفواً ولا أسخى نفساً منك.

فصرف وجهه عني حياء وقال: خذ الإبل برمتها مباركاً لك وقال النبي صلى الله عليه وسلم: اركبوا وارموا.

وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا.

وقال: كل لهو المؤمن باطل إلا ثلاث: تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته فإنه حق.

إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب والقوي به سبيل الله أي والرامي به في سبيل الله.

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكان أرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال " اللهم سدد رميته وأجب دعوته " فكان لا يرد له دعاء ولا يخيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا يا بني إسماعيل فقد كان أبوك رامياً وأنا مع ابن الأدرع.

فتعدى القوم فقالوا: يا رسول الله من كنت معه فقد نضل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا وأنا معكم كلكم.

فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل.

وقال عمر: ائتروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا وارموا الأغراض وألقوا الركب وانزوا على الخيل نزوا وعليكم بالمعدية - أو قال بالعربية - ودعوا التنعم وزى العجم.

وقال أيضاً: لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم.

يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسي.

وجنى قوم من أهل اليمامة جناية فأرسل السلطان إليهم جنداً من محاربة ابن زياد.

فقام رجل من أهل البادية يذمر أصحابه فقال: يا معشر العرب وبا بني المحصنات.

قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم فوالله إن ظهر هؤلاء عليكم لا يدعون بها لبنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض ولاعتراكم من نشاب معهم في جعاب كأنها أيور الفيلة ينزعون في قسي كأنها الغبط تنط إحداهن أطيظ الزرنوق يمعط أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبطيه ثم يرسل نشابة كأنها رشاء منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنفض عينه أو ينصدع قلبه منزلة.

فخلع قلوبهم فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان أيام تحاملت عليهم العمال وأعنف فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا ببيعتهم ونقضوا موثقتهم وطرردوا العمال والتواوا بما عليهم من الخراج وحمل المهدي ما يحب من مصلحتهم ويكره من عنثهم على أن أقال عثرتهم واعتفر

مكتبة مشكاة الإسلامية

زلتهم واحتمل دالتهم تطولا بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحجة ورفقاً بالسياسة.

ولذلك لم يزل منذ حمله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقا بمدار سلطانه بصيراً بأهل زمانه باسطاً للمعدلة في رعيته تسكن إلى كنفه وتأنس بعفوه وتثق بحلمه.

فإذا وقعت الأفضية اللازمة والحقوق الواجبة فليس عنده هواده ولا إغضاء ولا مدهانة أثره للحق وقياماً بالعدل وأخذاً بالحرم.

فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه أن كسروا الخراج وطرّدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق.

ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار وخصومه بإقرار وتنصلاً باعتلال.

فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه فأعلمهم الحال واستنصحهم للرعية ثم أمر الموالى بالابتداء وقال للعباس بن محمد أي عم تعقب قولنا وكن حكماً بيننا.

وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر وشاركهما في الرأي وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب دار المظالم: أيها المهدي: إن في كل أمر غاية ولكل قوم صناعة استفرغت رأيهم واستغرقت أشغالهم واستنفذت أعمارهم وذهبوا بها معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور وقادة الجنود وفرسان الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سخالها وفيأتهم ظلالها وعضتهم شدائدتها وقرمتهم نواجذها.

فلو عجمت ما قبلهم وكشعت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك وتجارب توافق نظرك وأحاديث تقوي قلبك.

فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك واستودعتنا من أمانتك وشغلتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة ولكل زمان سياسة وفي كل حال تدبيراً يبطل الآخر الأول ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطانتنا.

قال: نعم أيها المهدي أنت متسع الرأي وثيق العقدة قوي المنة بليغ الفطنة معصوم النية محضور الروية مؤيد البديهة موفق العزيمة معان بالظفر مهدي إلى الخير.

إن هممت ففي عزمك مواقع الظن وإن أجمعت صدع ففعلك ملتبس الشك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك وقل ينطق الله بالحق لسانك فإن جنودك جمة وخزائنك عامرة ونفسك سخية وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة باباً رحمة ومفتاحاً بركة لا يهلك عليهما رأي ولا يتفيل معهما حزم فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضركم فإني من ورائكم وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي أن تصاريف وجوه الرأي كثيرة وإن الإشارة ببعض معاريف القول يسيرة.

ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة متراخية الشقة متفاوتة السبل.

فإذا ارتأيت من محكم التدبير ومبرم التقدير ولباب الصواب رأياً قد احكمه نظرك وقلبه تدبيرك فليس وراءه مذهب الحجة طاعن ولا دونه معلق لخصومة غائب ثم خبت البرد به وانطوت الرسل عليه كان بالحري أن لا يصل إليهم محكمه إلا وقد حدث منهم ما ينقضه.

فما أيسر أن ترجع إليك الرسل وترد عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادره فتحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه وقد انفرجت الحلق وتحللت العقد واسترخى الحقاب وامتد الزمان.

ثم لعلمنا موقع الآخرة كمصدر الأولى.

ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجاله النظر وتقليب الفطر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ولا متهماً في أثره عليك ولا ظنينا علي دخلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محظورة فيقدح في ملكك ويربض الأمور لغيرك ثم تسند إليه أمورهم وتفوض إليه حربهم وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها ويثبت رأي الشاهد لها فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب وسقط عنه ما يأتي من بعيد تمت الحيلة وقويت المكيدة ونفذ العمل وأحد النظر.

إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي إن ولي الأمور وسائس الحروب ربما جند جنوده وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حربه ولا ضغطة حال اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها لا يثق بقوة ولا يصلو بعده ولا يفزع إلى ثقة.

فالرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال وجنودك من مكابدة الأسفار ومقارعة الأخطار وتغريب القتال ولا تسرع للقوم

مكتبة مشكاة الإسلامية

في الإجابة إلى ما يطلبون والإعطاء لما يسألون فيفسد عليك أدبهم وتجرئ من رعيتك غيرهم.

ولكن اغزهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعهم باللين وخاتلهم بالرفق وأبرق لهم وأرعد نحوهم بالفعل وابعث البعوث وجند الجنود وكتب الكتاب واعقد الألوية وأنصب الرايات وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحق قوادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم.

ثم ادسس الرسل وابتث الكتب وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك.

وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم وأعرض أشجار التنافس بينهم حتى تملأ القلوب من الوحشة وتنطوي الصدور على البغضة ويدخل كلا من كل الحذر والهيبه فإن مرام الظفر بالغبلة والقتال بالحيلة والمناسبة بالكتب والمكايده بالرسل والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القوي الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستلب العقول ويستترق القلوب ويسبى الآراء ويستميل الأهواء ويستدعي المواتاة أنفذ من القتال بطبات السيوف وأسنة الرماح.

كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل ويفرق كلمة عدوه بالمكايده أحكم عملاً وألطف نظراً وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال وإتلاف الأموال والتغريب والخطار.

وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتقدم على أسفار صعبة وأموال متفرقة وقواد غششة إن ائتمنهم استنفذوا ماله وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره وبرق ضوؤه وتمثل صوابه للعيون وتجسد حقه في قال علي: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك ويربض الأمور لفساد دولتك ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشان أصغر والحال أذل لأن الله مع حقه الذي لا يخذله وعند مواعده الذي لا يخلفه.

ولكنه قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً.

طلبوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حالاً أو يحدث من عندهم فتق أطعت أمر الرب وأطفأت نائرة الحرب ووفرت خزائن المال وطرحت تغريب القتال وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجية حلمك وإسجاح خليقتك ومعدلة نظرك.

فأمنت أن تنسب إلى ضعف.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دربة.

وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال
وساويتهم في ميدان الخطاب.

فما أرب المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته مقرين بمملكته مذعنين
لطاغته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ولا يبرئونها من عبوديته فيملكهم
أنفسهم ويخلع نفسه عنهم ويقف على الجدل معهم ثم يجازيهم السوء في
جد المقارعة ومضمار المخاطرة أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال فلعمري
لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعي
قبلهم.

ولو نالها فحملت إليه ووضعت بخرائطها بين يديه ثم تجافى لهم عنها وطال
عليهم بها لكان ذلك مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله
عليه وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم
سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا فأما الجنود
الذين نقضوا موثيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية
وكسروا قيد الفتنة فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم
فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد مقرنين في الأصفاة ثم
اتسع لحقن دمائهم عفوه وإقامة عثرتهم صيفحه وإستقبالهم لما هم فيه من
حربه أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعا من رأيه ولا مستنكرا من
نظره.

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدّها وقعاً وأصدقها
صولة وأنه لا يتعاطمه عفو ولا يتكأده صفح وإن عظم الذنب وجل الخطب.

فالرأي للمهدي - وفقه الله تعالى - أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن
ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برأ بهم
وتوسعا لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزتهم
يصول وبحجتهم يقول.

إنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرضوا له من معاصيه وانطوا
فيه عن إجابته ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم أو نقل من حاله لهم
أو تغير من نعمته عليهم كمثّل رجلين أخوين متناصرين متوازيين أصاب
أحدهما خبل عارض ولمم حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه
بالمكروه فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له ولطفاً به واحتيالاً لمداواة مرضه
ومراجعة حاله عطفاً عليه وبراً به ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد نوى سمت الليان وفض القلوب عن أهل
خراسان ولكل نبا مستقر وسوف تعلمون.

ثم قال: ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال موسى: أيها المهدي لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم.

الحال من القوم تنادى بمضرة شر وخفية حقد قد جعلوا المعاذير عليه سترًا واتخذوا العلل من دونها حجاباً رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمر بالتطويل فيكسروا حيل المهدي فيهم ويشنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادتهم وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم.

والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها.

ولولا ما اجتمعت به قلوبهم وبردت عليه جلودهم من المناصب بالقتال والإضرار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرهبوا عواقب أحوال الولاة وغب سكون الأمور.

فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ويكتب كتائبه نحوهم وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت درية لفسادهم وقوة على معصيتهم وداعية إلى عودتهم وسببا لفساد من حضرته من الجنود ومن ببابه من الوفود الذين أفرهم على تلك العادة وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح في فتق حادث وخلاف حاضر لا يصلح عليه دين ولا تستقيم به دنيا.

وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة واستمرار الدرية لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة والمؤونة الشديدة.

والرأي للمهدي - وفقه الله - أن لا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ويستحربهم القتل ويحدق بهم الموت ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل.

فإن فعل المهدي بهم ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم وهزيمة لكل بادرة شر منهم.

واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي وسلوكوا جنبات الصواب وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها لأنه لم تأت تجاربهم عليها.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق والجنود أن لا تفرق وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ولا يبذل لهم ما سألوا وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم واستهانة بحربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علي فأشار باللين وإفراط الرفق.

وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسيفه حقه اللين بحتاً والخير محضاً لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينه ولا يبشر يحيشهم إلى خيره فقد ملكهم الخلع لعذرهم ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم.

فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطهرهم ولا شدة حال أخرجتهم لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم ونزوة في رؤوسهم يستعدون بها البلاء إلى أنفسهم ويصرفون بها رأي المهدي فيهم.

وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصراح فذلك ما عليه الظن بهم والرأي فيهم وما قد يشبه أن يكون من مثلهم لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه النفوس ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها.

فلولا أنه خلق ناراً لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها وأن يرموا بشر لا خير معه.

وإذا أضمر الوالي لما فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً والشر مجرداً ليس معهما طمع يكسرهم ولا لين يثنيهم امتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة والأنفة من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف الاستبسال في القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره وبيدعوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة وقال: في قول الفضل أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان وأبين خبر بان قد اجتمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدي قائد إلى ما تحب ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً خالفت به أهل بيتك جميعاً والمرء متهم بما قال وطنين بما ادعى حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال هارون: أيها المهدي إن الحرب خدعة والأعاجم قوم مكرة وربما اعتدلت الحال بهم واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افتقرت الحالان وخالف القلب اللسان فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخوله لا تعلن.

والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء.

فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يفر باطن أمرهم فر المسنة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة الكتب ومظاهرة الرسل وموالاته العيون حتى تهتك حجب غيوبهم وتكشف أغطية أمورهم فإن انكشفت الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه عصيهم بشدة لا لين فيها ورماهم بعقوبة لا عفو معها.

وإن انفرجت الغيوب واهتصرت الستور ورفعت الحجب والحال فيهم مريضة والأمور بهم معتدلة عن أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها وظلمات يدعونها وحقوق يسألونها بماتة سابقتهم ودالة مناصحتهم فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعب من أمرهم ما صدعوا ويرتق من فتقهم ما فتقوا ويولي عليهم من أحبوا ويداوي بذلك مرض قلوبهم وفساد أمورهم فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي الحذب الذي يحتال لمرابض غنمه وضوال رعيته.

حتى يبرئ المريضة من داء علتها ويرد الضالة إلى أنس جماعتها.

ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة وماتة مقبولة ووسيلة معروفة وحقوق واجبة لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقه وأعوان عدله فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ولا التوعر بهم ولا المكافأة بإساءتهم لأن مبادرة جسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ أحزم في الرأي.

وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدر مما قال وانسل انسلال السيف فيما ادعى.

فدعوا ما قد سبق موسى فيه أنه هو الرأي وثنى بعده هارون.

ولكن من لأعنه الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة قال الصالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك وليس ينفذ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك وتستودعه جندك ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأنت بحمد الله ميمون النقية مبارك العزيمة مخبور التجارب محمود العواقب معصوم العزم فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله منه ما تحب وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه.

ولكن أحب الموافقة على الرأي والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان أيها المهدي قوم ذو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابئة وملابس الأنفة عليهم ظاهرة.

فالروية عنهم عازبة والعجلة فيهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا بالشدة ولا يفطمون إلا بالقهر.

وإن ولى المهدي عليهم وضعياً لم تنقد له العظماء وإن ولى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء.

وإن آخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا عصبية تنفرهم تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر كبير.

وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم ولا قارحاً صفاتهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويد ممثلة لعينك وصخرة لا ترزعزع وبهمة لا يثنى وبازل لا يفزعه صوت الجلجل تقى العرض نزيه النفس جليل الخطر قد اتضعت الدنيا عن قدره وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً والغرض الأدنى لقدمه موطئاً فليس يغفل عملاً ولا يتعدى أملاً وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك رجل قد غذي بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك.

فإن قلدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم كان قفلاً فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك فجعل العدل عليه وعليهم أميراً والإنصاف بينه وبينهم حاكماً فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم غرس لك في الذي بين صدورهم وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم طاعة راسخة العروق بأسقة الفروع متمثلة في حواشي عوامهم متمكنة من قلوب خواصهم فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه ولا يلزمهم حق إلا أدوه وهذا أحدهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والآخر عود من غيظتك ونبعة من أرومتك فتي السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يجرد فيهم سيفه وبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي.

فسلطه - أعزك الله - عليهم ووجهه بالجيوش إليهم ولا تمنعك ضراعة سنه وحادثة مولده فإن الحلم والثقة مع الحداثة خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه واختصكم به من مكارم الأخلاق ومحامد الفعال ومحاسن الأمور وصواب التدبير وصرامة الأنفس كفراخ عناق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم مزروع في قلوبكم مستحکم لكم متكامل عندكم بطباع لازمة وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلاً ليس بقديم الذكر في الجنود ولا بنبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التجربة للأمور ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه ويحتقرونها فيه ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأمره والتكشف لحاله والعلم بطباعه.

والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود والجيوش التي يسوس إذا لم يختبروا منه الأساس والنجدة ولم يعرفوه بالصوت والهيبة انكسرت شجاعته وماتت نجدتهم واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم وربما وقع البوار قبل الاختبار.

وباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك صيت له نسب زاك وصوت عال قد قاد الجيوش وساس الحروب وتآلف أهل خراسان واجتمعوا عليه بالمقة ووثقوا به كل الثقة فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبيت قصد الرمية وأبيت إلا عصبية إذ رأي الحدث من أهل بيتنا كراي عشرة حلماء من غيرنا.

ولكن أين تركتم ولي العهد قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن خلفه وستر من دون عباده علم ما تختلف به الأيام ومعرفة ما تجري به المقادير من حوادث الأمور وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ومواضي الملوك فكرهنا شسوعه عن محلة الملك ودار السلطان ومقر الإمامة والولاية وموضع المدائن والخزائن ومستقر الجنود وموضع الوجوه ومجمع الأموال التي جعلها الله عز وجل قطباً لمدار الملك ومصيدة لقلوب الناس ومثابة لإخوان الطمع ونوار الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال وأبناء المروق.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقلنا إن وجه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث
بجنود الرسل من قبله لم يستطع المهدي أن يعقبه بغيره إلا أن ينهض إليهم
بنفسه وهذا خطر عظيم وهول شديد إن تنفست الأيام بمقامه واستدامت
الحال بأيامه حتى يقع عرض لا يستغنى فيه أو يحدث أمر لا بد فيه منه صار
ما بعده مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه.

نحن - أهل البيت - نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من
العلم ومحتوم من الأمر قد أنبأت به الكتب وتتابع على الرسل وقد تنهى
ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا فبه ندبر وعلى الله تتوكل.

إنه لا بد لولي عهدي عقبي من بعدي أن يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه
نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً
عليهم يريد أن لا يدع أحد من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا
توطئه بحر القتل وألبسه قناع القهر وطوقه طوق الذل ولا أحداً من الذين
عملوا في قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحق إلا أجرى
عليهم ديم فضله وجداول بذله.

فإذا خرج مزماً له مجمماً عليه لم يسر إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت
حيله.

وكدحت كتبه ونفذت مكايده فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائفة الأهواء
واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبراً بهم وتعطفاً عليهم إلى
عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجاجهم بيت الله الحرام وسلب
تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة بإعطاء ما يطلبون وبذل ما
يسألون فإذا سمت الفرق بقرانها له وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه
فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصد لأول
ناحية بخعت بطاعتها وألقت بأزمته فألبسها جناح نعمته وأنزلها ظل كرامته
وخصها بعظيم حباه ثم عم الجماعة بالمعدلة وتعطف عليهم بالرحمة.

فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها
منفعته فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضعها وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين:
ناحية يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته وتبطن عن
إجابته وتتأقل عن حقه فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه فيضطر عليها
موجدة وابتغي لها علة لا يلبث أن يجدها بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم
فتستلحمهم الجيوش وتأكلهم السيوف ويستحرق فيهم القتل ويحيط بهم الأسر
ويفنيهم التتبع حتى يخرب البلاد ويوتم الأولاد.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وناحية لا يبسط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة لأنهم أول من فتح باب الفرقة وتدرع جلاباب الفتنة وربض في شق العصا.

ولكنه يقتل أعلامهم وبأسر قوادهم ويطلب هرابهم في لجج البحار وقلل الجبال وخمر الأردية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الديار خراباً والنساء أيامى.

وهذا أمر لا نعرف في كتبنا وقتاً ولا نصحح منع غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي فهذا أوان توجهه إلى خراسان وحلوله بجرجان وما قضى الله له من الشخوص إليها والمقام فيها خير للمسلمين مغبة وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه.

فمن يصحبه من الوزراء ومن يختار له من الناس قال محمد بن الليث: أيها المهدي إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تثنت نحوه أعناقها ومدت سمته أبصارها.

وقد كان لقرب داره منك ومحل جواره لك: عطل الحال غفل الأمر واسع العذر.

فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدييره فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه وتستنتصت لمواقع آثاره وتسال عن حوادث أحواله في بره ومرحمته وإقساطه ومعدلته وتدييره وسياسته ووزرائه وأصحابه ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوي عمد مملكته ويسدد أركان ولايته ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله وأظهر لجماله وأفضل مغبة لأمره وأجل موقفاً في قلوب رعيته وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته.

ولا أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له وأبلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ومعدلة تنتشر من أثره ومحبة للخير وأهله.

وإن يختار المهدي - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة وفقهاء أهل كل مصر أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان وفتح باب المعروف كما قد كان فتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت.

ثم يعث في ابنه موسى فقال: أي بني إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصياً ولمثنى أعطاف الرعية غاية فحسنتك شاملة وإساءتك نامية وأمرك ظاهر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فعليك بتقوى الله عز وجل وطاعته فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم بخلافهما فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه إيثارك رضاه وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه.

ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمن عترة من رسله وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنصرتهم ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً وعلى إقامة عدله أعوانا يسدون الخلل ويقومون الميل ويدفعون عن الأرض الفساد.

وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم وندافع ريب الزمان بعزائمهم ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم.

فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها وحتوف الأعداء إذا برزت صفحاتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها.

قد مضت لهم وقائع صادقات ومواطن صالحات أخدمت نيران الفتن وقصمت دواعي البدع وأذلت رقاب الجبارين ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ربح دولتنا وأقاموا في ظل دعوتنا واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذلتهم ورفع بها ضعتهم وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل وقناع الخوف وإطباق البلاء ومحالفة الأسي وجهد البأس والضر.

فظاهر عليهم لباس كرامتك وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حتى طاعتهم ووسيلة دالتهم ومائة سابقتهم وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم والتوسعة عليهم والإثابة لمحسنهم والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها واستجلب مودتها بالإنصاف لها وتحسن بذلك لربك وتزين به في عين رعيتك واجعل عمال القدر وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك ونصفة منك لرعيتك وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم فإن أحسن حمدت وإن أساء عذرت هؤلاء عمال القدر وولاة الحجج.

فلا يضيعن عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع - من انعقاد السنة المرجفين وكبت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب وسلامة عواقب الأمور.

ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً وبعراً حبلك متعلقاً رجلاً: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والآخر له دين غير مغمور وموضع مدخول بصير بتقلب الكلام وتصريف الرأي وإيجاء الأدب ووضع الكتب عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع أداباً نافعة وآثاراً باقية من تجميل محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره في حربك وتدخله في أمرك فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلتي ويرعى في خضرة جناني: ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد وأصحاب مناظرتك فيما تصدر.

فسر على بركة الله أصحابك الله من عونته وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك وهادياً ينطق بالحق لسانك.

وكتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد.

صفة جياذ الخيل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيل الشقر.

وقال: لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا أشقر.

وسأله رجل: أي المال خير قال: سكة مأبورة ومهرة مأمورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال في الخيل.

ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نعس وإذا حركته طار.

وأرسل مسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً.

فقال له: لا علم لي بالخيل.

فقال: ألسنت صاحب قنص قال: بلى.

قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكلب في الفرس.

فأتى بخيل لم يكن في العرب مثلها.

وقال بعض الضبيين في وصف فرس: متقاذف عبل الشوى شنج النسا سباق أندية الجياذ عميثل وإذا تعلل بالسياط جياذها أعطاك نائله ولم يتعلل سأل المهدي مطر بن دراج عن أي الخيل أفضل قال: الذي إذا استقبلته قلت نافر وإذا استدبرته قلت زاخر وإذا استعرضته قلت زافر.

قال: فأني هذه أفضل قال: الذي طرفه إمامه وسوطه عنانه.

وقال آخر: الذي إذا مشى ردى وإذا عدا دحا وإذا استقبل ألقى وإذا استدبر جى وإذا استعرض استوى.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صوحان: أي الخيل أفضل! قال:
الطويل الثلاث القصير الثلاث العريض الثلاث الصافي الثلاث.

قال: فسر لنا.

قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام.

وأما القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب.

وأما العريض الثلاث فالجبهة والمنخر والورك وأما الصافي الثلاث فالأديم
والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب: كيف معرفتك بعرب الخيل
قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده.

فأمر بأفراس فعرضت عليه.

فقال: قدموا إليها الماء في التراس فما شرب ولم يكتف فهو من العرب
وما ثنى سنيكه فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العتاق والهجن فدعا سلمان بن ربيعة
الباهلي فأخبره.

فأمر سلمان بطست من ماء فوضع بالأرض ثم قدم إليه الخيل فرساً فرساً
فما ثنى سنيكه وشرب هجنه وما شرب ولم يثن سنيكه عربه.

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس: بكل كميته جوزه نصف خلقه
أقب طوال مشرف في الحوارك وقال زهير: وملجمنا ما أن ينال قذاله ولا
قدماه الأرض إلا أنامله وقال آخر: له ساقا ظليم خاض فوجئ بالرعب
وقال آخر: هريت قصير عذاب اللجام أسيل طويل عذار الرسن لم يرد
بقوله.

قصير عذار اللجام قصر خده وإنما أراد طول شق الفم.

وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.

وقال آخر: بكل هريت نقي الأديم طويل الحزام قصير اللب وقال أبو عبيدة
يستدل على عنق الفرس برقة جحافله وأرنبته وسعة منخره وعري نواهقه
ودقة حقويه وما ظهر من أعالي أذنيه ورقة سالفته وأديمه ولين شعره.

وأبين من ذلك كله لين شكير ناصيته وعرفه.

وكانوا يقولون.

مكتبة مشكاة الإسلامية

إذا اشتد نفه ورحب متنفسه وطال عنقه واشتد حقوه وانهرت شدقه وعظمت فخذاه وانشبخت أنساؤه وعظمت فصوصه وصلبت حوافره ووقحت ألحق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المقرف قال: نعم أما الكريم فالجواد الجيد الذي نهز نهز العير وأنف تأنيف السير الذي إذا عدا اسلهب وإذا أقبل أجلب وإذا انتصب اتلاب.

وأما المقرف: فإنه الذلول الحجة الضخم الأرنبة الغليظ الرقبة الكثير الجلبة الذي إذا أرسلته قال: أمسكني وإذا أمسكته قال: أرسلني.

وكان محمد بن السائب الكلبي يحدث: أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان بن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه فلما عرضت ألتهه عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب فعرقبها إلا أفراساً لم تعرض عليه.

فوفد عليه أقوام من الأزدي وكانوا أصهاره فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبي الله إن أرضنا شاسعة فزودنا زاداً يبلغنا.

فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتكم بطعامكم فساروا بالفرس فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركب أحدهم للقنص فلا يفلته شيء وقعت عينه عليه من ظبي أو بقر أو حمار إلى أن قدموا إلى بلادهم فقالوا.

ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب.

فسموه زاد الراكب.

فأصل فحول العرب من نتاجه.

ويقال إن أعوج كان منها وكان فحلاً لهلال بن عامر أنتجت أمه ببعض بيوت الحي فنظروا إلى طرف يضع جفلة على كاذتها على الفخذ مما يلي الحياء فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم لعظم أعوج وطول قوائمه.

فقاموا إليه فوجدوا المهر فسموه أعوج.

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أغير على أهل النصار وأعوج موثق بثمامة فجال صاحبه في منته ثم زجره فاقتلع الثمامة فخرجت تحف في منته كالخدروف وراءه.

فغدا بياض يومه وأمسى يتعشى من جميم قباء.

وقال الشاعر في وصف فرس: وأحمر كالديباج أما سماؤه فريا وأما أرضه فمحول قوله سماؤه: أعلاه وأرضه: أسفله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول: مبتل متن وصهوتين إلي حوافر صلبة له ملس
 فهو لدى الروع والحلائب ذو أعلى مندى وأسفل يبس أو أدهم فيه كمتة أمم
 كأنه قطعة من الغليس صهصلق في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على
 جرس وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهدها إليه الحسن بن وهب الكاتب: ما
 مقرب يختال في أشطانه ملآن من صلف به وتلهوق بحوافر حفر وصلب
 صلب وأشاعر شعر وحلق أحلق ذو ألق تحت العجاج وإنما من صحة إفراط
 ذاك الأولق تغرى العيون به ويفلق شاعر في نعته عفواً وليس بمفلق بمصعد
 من حسنه ومصوب ومجمع في خلقه ومفرق قد سالت الأوضح سيل قراره
 فيه فمفترق عليه وملتقى صافي الأديم كأنما ألبسته من سندس ثوباً ومن
 إستبرق مسود شطر مثل ما اسود الدجى مبيض شطر كابيضاض المهرق
 فكان فارسه يصرف إذ بدا في متنه ابناً للصباح الأبلق إملسه إمليده لو
 علقت في صهوتيه الصين لم تتعلق يرقى وما هو بالسليم وبغندي دون
 السلاح سلاح أروع مملق وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البذ وتحت
 فرس أدهم وعليه نضح الدم.

فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد: كم ذا تجرعه المنون ويسلم لو يستطيع
 شكا إليك الأدهم في كل منبت شعرة من جلده نمق ينمقه الحسام المخدم
 ما تدرك الأرواح أدنى سيره لا بل يفوت الريح فهو مقدم رجته أطراف
 الأسنة أشقراً واللون أدهم حين ضرجه الدم قال: فأمر له بعشرة ألف
 درهم.

ومن قولنا في وصف الفرس: ومقرية يشقر في النقع كمتها ويخضر حيناً
 كلما بلها الرشح تطير بلا ريش إلى كل صيحة وتسبح في البر الذي ما به
 سبح وقال عدى بن الرقاع: يخرج من فرجات النقع دامية كان أذانها
 أطراف أقلام وطلب البحيري الشاعر من محمد بن حميد بن عبد الحميد
 الكاتب فرساً ووصف له أنواعاً من الخيل في شعره فقال: لأكلفن العيس
 أبعد همة يجري إليها خائف أو مرتجى وإلى سراة بني حميد إنهم أمسوا
 كواكب أشرفت في مذبح والبيت لولا أن فيه فضيلة تعلق البيوت بفضلها لم
 يحجج فأعن على غزو العدو بمنطو أحشاؤه طي الرداء المدرج متسربل شية
 طلعت أعطافه بدم فما تلقاه غير مضرج أو أدهم صافي الأديم كأنه تحت
 الكمي مظهر بيرندج ضرم يهيج السوط من شؤبوه هيج الجنائب من حريق
 العرفج خفت مواقع وطئه فلو أنه يجري برملة عالج لم يرهج أو أشهب يقق
 يضئ وراءه متن كمتن اللجة المترجرج تخفى الحجول ولو بلغن لبانه في
 أبيض متألق كالدملج أوفى بعرف أسود متفرد فيما يليه وحافر فيروزي أو
 أبلق ملاً العيون إذا بدا من كل لون معجب بنموذج جذلان تحسده الجياد إذا
 مشى عنقاً بأحسن حلة لم تنسج وعريض أعلى المتن لو عليته بالزئبق
 المنهال لم يترجرج خاضت قوائمه الوثيق بناؤها أمواج تحنّب بهن مدرج
 ولأنت أبعد في السماحة همة من أن تضن بموكف أو مسرح كان على
 المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل مكر مفر مقبل مدبر
 معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل دربر كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه
 بخيط موصل كميّ يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فحذوا عليه فقال طفيل الخيل: إني وإن قل مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طول تقريبها المرطى والجوز معتدل كأنه سبد بالماء مغسول أو ساهم الوجه لم تقطع أباجله يسان وهو ليوم الروع مبدول وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي المناديل أفضل فقال: بعضهم: مناديل مصر التي كأنها غرقى البيض وقال بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع.

فقال: ما صنعتم شيئاً أفضل المناديل مناديل عبدة ابن الطيب حيث يقول: لما نزلنا ضربنا ظل أخبية وفار باللحم للقوم المراجيل ورداً وأشقر لم ينهته طابخه ما قارب النضج منها فهو مأكول وقال الأصمعي: ما سبق في الرهان فرس أهضم قط.

وأنشد لأبي النجم: منتفج الجوف عريض كلكله قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق فسبقته له فرس أنثى وصلت أختها ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال: علي بالشعراء.

قال أبو النجم: فدعينا فليل لنا: قولوا في هذه الفرس وأختها.

فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى يقولوا فقلت له: هل لك في رجل ينقذك إذا استنسوك قال: هات.

فقلت من ساعتى: أشاع للغراء فينا ذكرها قوائم عوج أطعن أمرها وما نسينا بالطريق مهرها حين نقيس قدره وقدرها وصبره إذا عدا وصبرها والماء يعلو نحره ونحرها ملمومة شد المليك أسرها أسفلها وبطنها وظهرها قد كاد هاديتها يكون شطرها قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن علي بن جعفر البصري قالوا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة.

قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر.

فجاء فرس أدهم يقال له الربد لهارون الرشيد سابقاً.

فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك في وجهه وقال: علي بالأصمعي.

فنوديت له من كل جانب.

فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه.

فقال: يا أصمعي خذ بناحية الربد ثم صفه من قونسه إلى سنبله فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً ومن أسماء الطير.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قلت: نعم يا أمير المؤمنين وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حذرة.

قال: فأنشدنا لله أبوك.

قال: فأنشدته: وأقب كالسرحان تم له ما بين هامته إلى النسر الأقب:
اللاحق المخطف البطن وذلك يكون من خلقة وربما حدث من هزال أو بعد
قود والأنثى قباء والجمع: قب والمصدر: القيب.

والسرحان: الذئب شبهه في ضموره وعدوه به وجمعه سراحين وقد قالوا:
سراح.

والهامة: أعلى الرأس وهي أم الدماغ وهي من أسماء الطير.

والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النوى والحصى وهو من
أسماء الطير وجمعه نسور.

رحبت نعامته ووفر فرخه وتمكن الصردان في النحر رحبت: اتسعت.

ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ وهي من أسماء الطير.

وقوله: ووفرة فرخه.

الفرخ: هو الدماغ وهو من أسماء الطيور.

ووفر: أي تمم يقال: وفرت الشيء ووفرت به بالتخفيف فهو موفور.

والصردان: عرقان في أصل اللسان يجري منهما الريق ونفس الرئة وهما
من أسماء الطير.

وفي الظهر صرد أيضاً وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدبر يقال:
فرس صرد إذا كان ذلك به والنحر: موضع القلادة من الصدر وهو البرك.

وأناف بالعصفور من سعف هام أشم موثق الجذر أناف: أشرف.

والعصفور: أصل منبت الناصية والعصفور أيضاً: عظم ناتئ في كل جبين
والعصفور: من الغرر أيضاً وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين
ولم تستدر كالقرحة وهو من أسماء الطير والسعف يقال: فرس بين السعف
وهو الذي سالت ناصيته.

وهام أي سائل منتشر.

وأشم: مرتفع.

والشمم في الأنف: ارتفاع قصبته.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ويروى: هاد أشم يريد عنقاً مرتفعاً وجمعه: هواد وقوله: موثق أي شديد قوي.

والجذر: الأصل من كل شيء.

قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالديكين صلصله ونبت دجاجة عن الصدر ازدان: افتعل من قولك زان يزين وكان الأصل ازتان فقلبت التاء دالا لقرب نخرجها من مخرج الزاي وكذلك ازداد من زاد يزيد.

والديكان واحدهما ديك وهو العظم الناتئ خلف الأذن وهو الذي يقال له الخششاء والخشاء.

والصلصل: بياض في طرف الناصية ويقال: هو أصل الناصية.

والدجاجة: اللحم الذي على زوره بين يديه.

والديك والصلصل والدجاجة من أسماء الطير.

والناهضان أمر جلزهما فكأنما عثما على كسر الناهضان: واحدهما ناهض وهو لحم المنكبين ويقال: هو اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما والجمع: نواهض ويقال في الجمع: أنهض على غير قياس.

والناهض: فرخ القطا وهو من أسماء الطير.

وقوله: أمر جلزهما أي فتل وأحكم يقال: أمررت الحبل فهو ممر أي فتلته.

والجلز: الشد.

وقوله: " فكأنما عثما على كسر " أي كأنهما كسراً ثم جبراً.

يقال: عثمت يده.

العثم: الجبر على عقدة وعوج وعثمان فعلان منه.

مسحنفر الجنين ملتئم ما بين شيمته إلى الغر مسحنفر الجنين: أي منتفخهما.

ملتئم أي معتدل.

وشيمته: نحره.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والشيمة أيضاً: من قولك: فرس أشيم بين الشيمة وهي بياض فيه ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده.

والغر في الطير يسمى الرخمة وهي عضلة الساق.

وصفت سمانه وحافزه وأديمه ومنابت الشعر السمانى: طائر وهو موضع من الفرس لا أحفظه إلا أن يكون أراد السمامة وهي دائرة تكون في سالفه الفرس وهي عنقه والسمامة من الطير أيضاً.

والأديم: الجلد.

وسما الغراب لموقعيه معاً فأبين بينهما على قدر سما الغراب أي ارتفع والغراب: رأس الورك.

ويقال للصلوين: الغرابان وهما مكتنفا عجب الذنب.

ويقال: هما ملتقى أعالي الوركين.

والموقعان منه في أعالي الخاصرتين فأبين أي فرق بينهما على قدر أي على استواء واعتدال.

واكتن دون قبيحه خطافه ونأت سمامته عن الصقر اكن: أي استتر.

والقبيح: ملتقى الساقين ويقال أنه مركب الذراعين في العضدين.

والخطاف: من أسماء الطير وهو حيث أدركت عقب الفرس إذا حرك رجليه.

ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المركلان.

ونأت أي بعدت.

والسمامة: دائرة تكون في عنق الفرس وقد ذكرناها وهي من أسماء الطير.

والصقر: أحسبها دائرة في الرأس وما وقفت عليها وهي من أسماء الطير.

القطاة: مقعد الردف وهي من أسماء الطير والحر: من الطير يقال إنه ذكر الحمام وهو من الفرس سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسما على نقويه دون حداته خربان بينهما مدى الشبر النقوان: واحدهما نقو والجمع.

أنقاء وهو عظم ذو مخ وإنما عنى هاهنا عظام الوركين لأن الخرب هو الذي تراه مثل المدهن في ورك الفرس.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وهو من الطير: ذكر الحباري.

والحدأة: من الطير وأصله الهمز ولكنه خفف وهي سالفة الفرس وجمعها حداء على وزن فعال كما تقول: عطاءة وعطاء ويقال: عطاءية.

وإذا فتحت الفاء قلت: حدأة وهي الفأس ذات الرأسين وجمعها: حدأ مثل نواة ونوى وقطاة وقطا.

يدع الرزيم إذا جرى فلقاً بتوائم كمواسم سمر الرزيم: الحجارة.

والفلق: المكسورة فلقاً.

بتوائم: جمع توأم وقد قالوا.

تؤم على وزن فعال جمع توأم وهي على غير قياس.

يقول: هي مثنى مثنى يعني حوافره.

والمواسم: جمع ميسم الحديد من وسمت أي إنها كمواسم الحديد في صلابتها.

وقوله: سمر أي لون الحافر وهو أصلب الحوافر.

ركبن في محص الشوى سبط كفت الوثوب مشدد الأسر الشوى هاهنا: القوائم والواحدة: شواة.

ويقال: فرس محص الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة.

سبط: سهل.

كفت الوثوب أي مجتمع من قولك: كفت الشيء إذا جمعته وتممته.

مشدد الأسر أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وسبق يوماً فرس للرشيدي يسمى المشمر وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي فقال أبو العتاهية: جاء المشمر والأفراس يقدمها هوناً على سرعة منها وما انتهرا وخلق الريح حسرى وهي تتبعه ومر يختطف الأبصار والنظرا وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس وهو أجود شعر يصف الحلبة: ثم سمعنا برهان نامله قيد له من كل أفق جحفه فقلت للسائس قده أعجله وأغد لعنا في الرهان نرسله فظل مجنوناً وظل جملة بين شعيبين وزاد يزمله نعلو به الحزن ولا نسهله إذا علا الأخشب صاح جندله ترنم النوح تبكي مثكله كان في الصوت الذي يفصله طي التجار العصب إذ

مكتبة مشكاة الإسلامية

تنخله وقد رأينا فعلهم فنفعله نطويه والطي الرقيق يجده نضم الشحم
 ولسنا نهزله حتى إذا الليل تولى أثلجه وأتبع الأيدي منه أرجله قمنا على هول
 شديد وجله نمد حبلاً فوق خط نعدله نقوم قدم ذا وهذا أدخله وقام مشقوق
 القميص يعجله فوق الخماسي قليلاً يفضله أدرك عقلاً والرهان عمله حتى
 إذا أدرك خيلاً مرسله ثار عجاج مستطير قسطله تنفش منه الخيل ما لا
 تغزله مرأً يعطيها ومرأً تنعله مر القطا انصب عليه أجده وهو رخي البال
 ساج وهله قدمه مثلاً لمن يتمثله تطيره الجن وحيناً ترجله تسبح أخراه
 ويطفو أوله ترى الغلام ساجياً ما يركله يعطيه ما شاء وليس يسأله كأنه من
 زبد يسربله والجن عكاف به تقبله وقال آخر في فرس أبي الأعور السلمي:
 مر كلع البرق سام ناظره تسبح أولاه ويطفو آخره " فما يمس الأرض منه
 حافره " وقول هذا أشبه من قول أبي نجم لأنه يقول: " تسبح أخراه ويطفو
 أوله " وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكساح
 أسرع منه لأن اضطراب مؤخره قبيح.

وقال الأصمعي كان أبو النجم وصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت.

وقد غلط رؤية أيضاً في الفرس فقال يصف قوائمه: " يهوين شتى ويقعن
 وفقاً " ولما أنشده مسلم بن قتيبة.

قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف جعلته مقيداً.

فقال: قريني من ذنب البعير.

وأنشده الأصمعي: لما أتيت الحي في متنه كأن عرجوناً بمثنى يدي أقبل يختال
 على شأوه يضرب في الأقرب والأبعد كأنه سكران أو عابس أو ابن رب
 حدث المولد وقال غيره: أما إذا استقبلته فكأنه جذع سما فوق النخيل
 مشذب وإذا اعترضت له استوت أقطاره وكأنه - مستديراً - متصوب وقال
 ابن المعتز: وقد يحضر الهيجاء بي شنج النساء تكامل في أسنانه فهو قارح له
 عنق يغتال طول عنانه وصدر إذا أعطيته الجري سايح إذا مال عن أعطافه
 قلت شارب عناء بتصرف المدامة طافح وقال أيضاً: ولقد وطئت الغيث
 يحملني طرف كلون الصبح حين وقد يمشي فيعرض في العنان كما صدف
 المعشوق ذو الدلال وصد الحلبة والرهان والحلبة: مجمع الخيل.

ويقال: مجتمع الخيل.

ويقال: مجتمع الناس للرهان.

وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا إذا اجتمعوا.

ويقال منه: حلب الحالب اللبن في القدر أي جمعه فيه.

والمقوس: الحبل الذي يمد في صدور الخيل عند الإرسال للسباق.

مكتبة مشكاة الإسلامية

والمنصبه: الخيل حين تنصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن لأن الرجل يراهن يصاحبه في المسابقة يضع هذا رهناً وهذا رهناً فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه.

والرهان: مصدر راهنته مراهنه ورهاناً كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالاً.

وهذا كان من أمر الجاهلية وهو القمار المنهي عنه فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شيء وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر.

وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما محللاً وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ويسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيباً وإن سبق الدخيل أخذ الرهين معاً وإن سبق هو لم يكن عليه شيء.

ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً لا يأمنان أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محللاً.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول والمصلي: الثاني الذي يتلوه.

قال: وإنما قيل له مصل لأنه يكون عند صلوي السابق وهما جانباً ذنبه عن يمينه وشماله.

ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر فإنه يسمى سكيئاً.

قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسماً لشيء منها إلا الثاني والعاشر فإن الثاني اسمه المصلي والعاشر السكييت وما سوى ذلك يقال: الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع ثم السكييت.

ويقال السكييت بالتحديد والتخفيف.

فما جاء بعد ذلك لم يعتد به.

والفسكل بالكسر: الذي يجيء آخر الليل والعامه تسميه الفسكل بالضم.

وقال أبو عبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل وهو الفسكل وإنما قيل للسكييت سكييت لأنه آخر العدد الذي يقف العاد عليه.

والسكت: الوقوف.

هكذا كانوا يقولون فأما اليوم فقد غيروا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير: إذا شئتُم أن
تمسحوا وجه سابق جواد فمدوا في الرهان عنانيا ومن قولنا في هذا المعنى:
خلوا عناني في الرهان ومسحوا مني بغرة أبلق مشهور وصف السلاح كانت
درع علي صدرًا لا ظهر لها.

فقيل له في ذلك.

فقال: إذا استمكن دعوي من ظهري فلا يبقي.

ورئي الجراح بن عبد الله قد ظاهر بين درعين.

فقيل له في ذلك.

فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري.

واشترى زيد بن حاتم أدرعاً وقال: إني لست أشتري أدرعاً وإنما أشتري
أعماراً.

وقال حبيب بن المهلب لبيه لا يقعدن أحدكم في السوق فإن كنتم لا بد
فاعلين فإلى زراد أو سراج أو وراق.

العتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه
بسيفه المعروف بالصمصامة. فبعث به إليه.

فلما ضرب به وجهه دون ما كان يبلغه عنه فكتب إليه في ذلك.

فرد عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي
يضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً عن السلام: فقال: يسأل أمير
المؤمنين عما بدا له قال: ما تقول في الترس قال: هو المجن الدائر. وعليه
تدور الدوائر.

قال: فما تقول في الرمح قال: أخوك وربما خانك فانقص.

قال: فالنبل قال: منايا تخطئ وتصيب.

قال: فما تقول في الدرع قال: مثقلة للرجال متعبة للفارس وإنما الحصن
الحصين.

قال فما تقول في السيف قال: هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين. فضربه عمر
بالدرة وقال: بل لا أم لك.

قال: الحمى أضرتني لك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معد يكرب الذي يقال له الصمصامة لموسى الهادي. فدعا به فوضع بين يديه مجرداً ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء.

فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه. فبدرهم ابن يامين فقال: حاز صمصامة الزبيدي عمرو من جميع الأنام مواسي الأمين سيف عمرو وكان فيما سمعنا خبر ما أعمدت عليه الجفون أخضر المتن بين حديه نور من فرند تمتد فيه العيون أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الذعاف القيون فإذا ما سلته بهر الشمس فلم تكد تستبين فكائن الفرند والرونق الجاري في صفحته ماء معين نعم مخراق ذي الحفيظة في الهي جاء يسطو به أم يمين فأمر له ببدره وخرجوا.

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس.

فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب. يريد أن العمل ليده لا لسيفه.

وقال: متى تلقني يعدو بيزي مقلص كميته بهيم أو أغر محجل تلاق أمراً إن تلقه فبسيفه تعلمك الأيام ما كنت تجهل وقال أبو الشيبص: ختلته المنون بعد اختيال بين صفين من قناً ونصال في رداء من الصفيح صقيل وقميص من الحديد مزال وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر فوجه إليهم ابنه الأغر وقال: يا بني كن يداً لأصحابك على من قاتلهم وإياك والسيف فإنه ظل الموت وابق الرمح فإنه رشاء المنية ولا تقرب السهام فإنها رسل لا تؤامر مرسلها.

قال: فبماذا أقاتل قال: بما قال الشاعر: جلاميد يملأن الأكف كأنها رءوس رجال حلقت في المواسم أقبلت الفحول تمشي مشي الوعول فلما تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهاها.

وقال آخر يذكر قوماً أسروا: استنزلوهم عن الجياد بلينة الخرصان ونزعوهم نزع الدلاء بالاشيطان.

وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم: احتثوا كل جمالية عيرانة كيما يخصفون أخفاف المطي بحوافر الخيل.

حتى أدركوهم بعد ثلاثة فجعلوا المران أرشية المنايا فاستقوا بها أرواحهم.

ومن أحسن ما قيل في السيف قول حبيب: ونبهن مثل السيف لو لم تسله يدان لسلته ظباه من الغمد وقال في صفة الرماح: مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القضا ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف: يقدر السلوقي المضاعف نسجه ويوقد في الصفاح نار الحجاب فذكر أنه يقدر الدرع المضاعف نسجها والفارس والفرس ويقع بها في الأرض فيقده النار من الحجارة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

تظل تحفر عنه إن ضرب به بعد الذراعين والساقين والهادي وقد جمع العلوي وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجود حيث يقول: بحسبي من مالي من الخيل أعيط سليم الشطي عاري النواهيق أمعط وأبيض من ماء الحديد مهند وأسمر عسال الكعوب عنطنط وبيضاء كالضحاح زعف مفاضة يكفتها عني نجاد مخطط ومعطوفة الأطراف كبداء سمحة منفجة الأعضاء صفراء شوحط فيا ليت مالي غير ما قد جمعته على لجة تيارها يتغطط ويا ليتني أمسي على الدهر ليلة وليس على نفسي أمير مسلط ومن قولنا في وصف الرمح والسيف: بكل رديني كأن سنانه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع تقاصرت الأجال في طول متنه وعادت به الآمال وهي فجائع وساءت ظنون الحرب في حسن ظنه فهن طببات للقلوب قوارع وذي شطب تقضي المنايا بحكمه وليس لما تقضي المنية دافع إذا ما التقت أمثاله في وقية هنالك ظن النفس بالنفس واقع ومن قولنا في وصف السياف: بكل مأثور على متنه مثل مدب النمل بالقاع يرتد طرف العين من حده عن كوكب للموت لماع وقال إسحاق بن خلف البهراني في صفة السياف: ألقى بجانب خصره أمضى من الأجل المتاح وكأنما ذر الهباء عليه أنفاس الرياح ومن جيد صفات السياف قول الغنوي: حسام غداة الروح ماض كأنه من الله في قبض النفوس رسول كان على إفرنده موج لجة تقاصر في ضحاحه وتطول كان جيوش الذركسرن فوقه قرون جراد بينهن ذحول النزع بالقوس إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعة له بواسطة في مغرم لزمه للخليفة فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة فإن كفاك ما في هذا الخرج وإلا فاكتب إلي أمدك بالمال.

فخرج فلما أصحر عن البيوت لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة فقال له: إلى أين تتوجه فقال: إلى واسط.

قال: فهل لك في الصحبة قال: نعم.

فسارا حتى فوزا فعنت لهما ظيأ فقال له الأعرابي: أي هذه الظبأ أحب إليك المتقدم منها أم المتأخر فأزكيه لك قال له: المتقدم.

فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتوى وأكلا.

فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابي.

ثم عنت لهما زفة قطا فقال: أيها تريد فأصرعها لك فأشار إلى واحدة منها.

فرماها فأقصدها ثم اشتوى وأكلا.

فلما انقضى طعامهما فوق له الأعرابي سهماً ثم قال له: أين تريد أن أصيبك فقال له: اتق الله عز وجل واحفظ زمام الصحبة.

قال: لا بد منه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: اتق الله ربك واستيقني ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً.

قال: فاخلع ثيابك.

فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً حتى بقي مجرداً.

قال له: اخلع أمواقك وكان لابساً خفين مطابقين.

فقال له: اتق الله في ودع الخفين أتبلغ بهما من الحر فإن الرمضاء تحرق قدمي.

قال: لا بد منه.

قال: فدونك الخف فأخلعه.

فلما تناول الخف ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عاتقه وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهبت مثلاً.

وكان هذا الأعرابي من رماة الحدق.

وحدث العتبي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة.

فأتي بأعرابي كان معروفاً بالسرقة فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك.

قال: عجائبي كثيرة.

ومن أعجبها أنه كان لي بغير لا يسبق وكانت لي خيل لا تلحق فكنت أخرج فلا أرجع خائباً فخرجت يوماً فاحترشت ضبا فعلقته علي قتبني ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل.

فلما أمسيت إذا بإبل وإذا شيخ عظيم البطن شثن الكفين ومعه عبد أسود وغد.

فلما رأيته رحت بي ثم قام إلى ناقة فاحتلبها وناولني العلبة فشربت ما يشرب الرجل فتناول الباقي فضرب بها جبهته ثم احتلب تسع أينق فشرب ألبانهن ثم نحر حواراً فطبخه فأكلت شيئاً وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا.

وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غط غطيطة البكر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقلت: هذه والله الغنيمة ثم قمت إلى فحلٍ إبله فخطمته ثم قرنته ببعيري
وصحت به فاتبعني الفحل واتبعته الإبل إرباباً به في قطار فصارت خلفي
كأنها حبل ممدود.

فمضيت أبادر ثنية بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع ولم أزل أضرب ببعيري
مرة بيدي ومرة برجلي حتى طلع الفجر فأبصرت الثنية وإذا عليها سواد فلما
دنوت منه إذا الشيخ قاعد وقوسه في حجره.

فقال: أضيفنا قلت: نعم.

قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل قلت: لا.

فأخرج سهماً كأنه لسان كلب ثم قال: انظره بين أذني الضب المعلق في
القتب ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه فقال لي: ما تقول قلت: أنا على
رأبي الأول قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى ثم رمى
به فكأنما قدره بيده ثم وضعه بإصبعه.

ثم قال: رأيك فقلت: إني أحب أن أستثبت.

قال: انظر هذا السهم الثالث في عكوة.

ذنبه والرابع والله في بطنك.

ثم رماه فلم يخطئ العكوة.

قلت: أنزل آمناً قال: نعم.

فدفعت إليه ختام فحله وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة وأنا متى
يرميني بسهم يقصد به قلبي.

فلما تباعدت قال: أقبل فأقبلت والله فرقاً من شره لا طمعاً في خيره.

فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة.

قلت نعم.

قال فاقرن من هذه الإبل ببعيرين وامض لطيتك.

قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخبرك عن نفسك فلا والله ما رأيت
أعرايباً قط أشد ضرراً ولا أعدى رجلاً ولا أرمى يداً ولا أكرم عفواً ولا
أسخى نفساً منك.

فصرف وجهه عني حياء وقال: خذ الإبل برمتها مباركاً لك وقال النبي صلى
الله عليه وسلم: اركبوا وارموا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا.

وقال: كل لهو المؤمن باطل إلا ثلاث: تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته فإنه حق.

إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب والقوي به سبيل الله أي والرامي به في سبيل الله.

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي.

وكان أرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال " اللهم سدد رميته وأجب دعوته " فكان لا يرد له دعاء ولا يخيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا يا بني إسماعيل فقد كان أبوكم رامياً وأنا مع ابن الأدرع.

فتعدى القوم فقالوا: يا رسول الله من كنت معه فقد نزل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا وأنا معكم كلكم.

فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل.

وقال عمر: ائتروا وارثوا وانتعلوا واحتفوا وارموا الأغراض وألقوا الركب وانزوا على الخيل نزوا وعليكم بالمعدية - أو قال بالعربية - ودعوا التنعم وزى العجم.

وقال أيضاً: لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم.

يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسي.

وجنى قوم من أهل اليمامة جناية فأرسل السلطان إليهم جنداً من محاربة ابن زياد.

فقام رجل من أهل البادية يذمر أصحابه فقال: يا معشر العرب وبنا بني المحصنات.

قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم فوالله إن ظهر هؤلاء عليكم لا يدعون بها لبنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض ولاعتراكم من نشاب معهم في

مكتبة مشكاة الإسلامية

جباب كأنها أبور الفيلة ينزعون في قسى كأنها الغبط تنط إحداهن أطيظ
الزرنوق يمعط أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبطيه ثم يرسل نشابة كأنها
رشاء منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنفض عينه أو ينصدع قلبه منزلة.

فخلع قلوبهم فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان هذا ما تراجع فيه المهدي
ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان أيام تحاملت عليهم
العمال وأعنفتم فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانية على أن نكتوا
ببيعتهم ونقضوا موثقهم وطرردوا العمال والتواوا بما عليهم من الخراج وحمل
المهدي ما يحب من مصلحتهم ويكره من عنيتهم على أن أقال عثرتهم واغتفر
زلتهم واحتمل دالتهم تطولا بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحجة ورفقاً
بالسياسة.

ولذلك لم يزل منذ حمله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقا بمدار
سلطانه بصيراً بأهل زمانه باسطاً للمعدلة في رعيته تسكن إلى كنفه وتانس
بعفوه وتثق بحلمه.

فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة فليس عنده هواده ولا إغضاء ولا
مداهنة أثرة للحق وقياماً بالعدل وأخذاً بالحرم.

فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه أن كسروا الخراج وطرردوا
العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق.

ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار وخصومه بإقرار وتنصلاً باعتلال.

فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه وبعث إلى نفر من لحمته
ووزرائه فأعلمهم الحال واستنصحهم للرعية ثم أمر الموالى بالابتداء وقال
للعباس بن محمد أي عم تعقب قولنا وكن حكماً بيننا.

وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر وشاركهما في الرأي وأمر
محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالاتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب دار المظالم: أيها المهدي: إن في كل أمر غاية ولكل قوم
صناعة استفرغت رأيهم واستغرقت أشغالهم واستنفذت أعمارهم وذهبوا بها
معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور وقادة الجنود وفرسان
الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سحاليها وفيأتهم
ظلالها وعصنتهم شدائدها وقرمتهم نواجذها.

فلو عجمت ما قبلهم وكشعت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك وتجارب
توافق نظرك وأحاديث تقوي قلبك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بنقل ما حملتنا من عملك واستودعتنا من أمانتك وشغلتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة ولكل زمان سياسة وفي كل حال تدبيراً يبطل الآخر الأول ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نعم أيها المهدي أنت متسع الرأي وثيق العقدة قوي المنة بليغ الفطنة معصوم النية محضور الروية مؤيد البديهة موفق العزيمة معان بالظفر مهدي إلى الخير.

إن هممت ففي عزمك مواقع الظن وإن أجمعت صدع فعلق ملتبس الشك.

فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك وقل ينطق الله بالحق لسانك فإن جنودك جمة وخزائنك عامرة ونفسك سخية وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة باباً رحمة ومفتاحاً بركة لا يهلك عليهما رأي ولا يتفيل معهما حزم فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضركم فإني من ورائكم وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي أن تصاريف وجوه الرأي كثيرة وإن الإشارة ببعض معاريف القول يسيرة.

ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة متراخية الشقة متفاوتة السبل.

فإذا ارتأيت من محكم التدبير ومبرم التقدير ولباب الصواب رأياً قد احكمه نظرك وقلبه تدبيرك فليس وراءه مذهب الحجة طاعن ولا دونه معلق لخصومة عائب ثم خبت البرد به وانطوت الرسل عليه كان بالحري أن لا يصل إليهم محكمه إلا وقد حدث منهم ما ينقضه.

فما أيسر أن ترجع إليك الرسل وترد عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادره فتحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه وقد انفرجت الحلق وتحللت العقد واسترخى الحقاب وامتد الزمان.

ثم لعلمنا موقع الآخرة كمصدر الأولى.

ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجاله النظر وتقليب الفطر فيما جمعنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ولا متهماً في أثره عليك ولا ظنيناً علي دخلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محظورة فيقدح في ملكك ويربض الأمور لغيرك ثم تسند إليه أمورهم وتفوض إليه حربهم وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واستدارة

مكتبة مشكاة الإسلامية

الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها ويثبت رأي الشاهد لها فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب وسقط عنه ما يأتي من بعيد تمت الحيلة وقويت المكيدة ونفذ العمل وأحد النظر.

إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي إن ولي الأمور وسائس الحروب ربما جند جنوده وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حزبه ولا ضغطة حال اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها لا يثق بقوة ولا يصلو بعدة ولا يفزع إلى ثقة.

فالرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال وجنودك من مكابدة الأسفار ومقارعة الأخطار وتغريب القتال ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون والإعطاء لما يسألون فيفسد عليك أدبهم وتجري من رعتك غيرهم.

ولكن اغزهم بالحيلة وقتلهم بالمكيدة وصارعهم باللين وخاتلمهم بالرفق وأبرق لهم وأرعد نحوهم بالفعل وابعث البعوث وجند الجنود وكتب الكتاب واعقد الألوية وأنصب الرايات وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحق قوادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم.

ثم ادسس الرسل واثبت الكتب وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك.

وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم وأعرض أشجار التنافس بينهم حتى تملأ القلوب من الوحشة وتنطوي الصدور على البغضة ويدخل كلا من كل الحذر والهيبه فإن مرام الظفر بالغبيلة والقتال بالحيلة والمناسبة بالكتب والمكايده بالرسل والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القوي الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستلب العقول ويسترق القلوب ويسبى الآراء ويستميل الأهواء ويستدعي المواتاة أنفذ من القتال بطبات السيوف وأسنة الرماح.

كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل ويفرق كلمة عدوه بالمكايده أحكم عملاً وألطف نظراً وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال وإتلاف الأموال والتغريب والخطار.

وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتقدم على أسفار صعبة وأموال متفرقة وقواد غششة إن أئتمنهم استنفذوا ماله وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره وبرق ضوؤه وتمثل صوابه للعيون وتجسد حقه في قال علي: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً ولم يصبوا من دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك ويربض الأمور

مكتبة مشكاة الإسلامية

لفساد دولتك ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأن أصغر والحال أدل لأن الله مع حقه الذي لا يخذله وعند مواعده الذي لا يخلفه.

ولكنه قوم من رعيته وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً.

طلبوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حالاً أو يحدث من عندهم فتق أطعت أمر الرب وأطفأت نائرة الحرب ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجية حلمك وإسجاح خليقتك ومعدلة نظرك.

فأمنت أن تنسب إلى ضعف.

وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دربة.

وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبههم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال وساويتهم في ميدان الخطاب.

فما أرب المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته مقرين بمملكته مذعنين لطاعته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ولا يبرئونها من عبوديته فيملكهم أنفسهم ويخلع نفسه عنهم ويقف على الجدل معهم ثم يجازيهم السوء في جد المقارعة ومضمار المخاطرة أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعي قبلهم.

ولو نالها فحملت إليه ووضعت بخرائطها بين يديه ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها لكان ذلك مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية وكسروا قيد الفتنة فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد مقرنين في الأصفاة ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه وإقامة عثرتهم صفحه واستقبالهم لما هم فيه من حربه أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكراً من نظره.

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدّها وقعاً وأصدقها صولة وأنه لا يتعاضمه عفو ولا يتكأده صفح وإن عظم الذنب وجل الخطب.

فالرأي للمهدي - وفقه الله تعالى - أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم براً بهم وتوسعاً لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزتهم يصلون وبحجتهم يقول.

مكتبة مشكاة الإسلامية

إنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مسأخطه وتعرضوا له من معاصيه وانطووا فيه عن إجابته ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم أو نقل من حاله لهم أو تغير من نعمته عليهم كمثّل رجلين أخوين متناصرين متوازيين أصاب أحدهما خبل عارض ولمم حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروه فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له ولطفاً به واحتياطاً لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبراً به ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد نوى سمت الليان وفض القلوب عن أهل خراسان ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

ثم قال: ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم.

الحال من القوم تنادى بمضرة شر وخفية حقد قد جعلوا المعاذير عليه سترًا واتخذوا العلل من دونها حجاباً رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمور بالتطويل فيكسروا حيل المهدي فيهم ويشنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادتهم وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم.

والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمانة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها.

ولولا ما اجتمعت به قلوبهم وبردت عليه جلودهم من المناصب بالقتال والإضرار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرهبوا عواقب أحوال الولاة وغب سكون الأمور.

فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ويكتب كتائبه نحوهم وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة لفسادهم وقوة على معصيتهم وداعية إلى عودتهم وسببا لفساد من بحضرته من الجنود ومن يبابه من الوفود الذين أقرهم على تلك العادة وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح في فتق حادث وخلاف حاضر لا يصلح عليه دين ولا تستقيم به دنيا.

وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة واستمرار الدربة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة والمؤونة الشديدة.

والرأي للمهدي - وفقه الله - أن لا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ويستحربهم القتل ويحدق بهم الموت ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل.

فإن فعل المهدي بهم ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم وهزيمة لكل بادرة شر منهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي وسلوكوا جنبات الصواب وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها لأنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق والجنود أن لا تفرق وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ولا يبذل لهم ما سألوا وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم واستهانة بحربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علي فأشار باللين وإفراط الرفق.

وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسيفه حقه اللين بحثاً والخير محضاً لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينه ولا بشر يحشهم إلى خيره فقد ملكهم الخلع لعذرهم ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم.

فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطهرهم ولا شدة حال أخرجتهم لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم ونزوة في رؤوسهم يستعدون بها البلاء إلى أنفسهم ويصرفون بها رأي المهدي فيهم.

وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصراح فذلك ما عليه الظن بهم والرأي فيهم وما قد يشبه أن يكون من مثلهم لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه النفوس ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها.

فلولا أنه خلق ناراً لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها وأن يرموا بشر لا خير معه.

وإذا أضر الوالي لما فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً والبشر مجرداً ليس معهما طمع يكسرهم ولا لين يثنيهم امتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة والأنفة من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف الاستبسال في القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره ويزعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة وقال: في قول الفضل أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان وأبين خبر بان قد اجتمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال المهدي: ذلك رأى.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدي قائد إلى ما تحب ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً خالفت به أهل بيتك جميعاً والمرء منهم بما قال ووطنين بما ادعى حتى يأتي بيينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي إن الحرب خدعة والأعاجم قوم مكرة وربما اعتدلت الحال بهم واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افتقرت الحالان وخالف القلب اللسان فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخوله لا تعلن.

والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء.

فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يفر باطن أمرهم فر المسنة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة الكتب ومظاهرة الرسل وموالة العيون حتى تهتك حجب غيوبهم وتكشف أغصية أمورهم فإن انكشفت الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه عصبهم بشدة لا لين فيها ورماهم بعقوبة لا عفو معها.

وإن انفرجت الغيوب واهتصرت الستور ورفعت الحجب والحال فيهم مريضة والأمور بهم معتدلة عن أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها وظلامات يدعونها وحقوق يسألونها بماتة سابقتهم ودالة مناصحتهم فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعب من أمرهم ما صدعوا ويرتق من فتقهم ما فتقوا ويولي عليهم من أحبوا ويداوي بذلك مرض قلوبهم وفساد أمورهم فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي الحذب الذي يحتال لمرايض غنمه وضوال رعيته.

حتى يبرئ المريضة من داء علتها ويرد الضالة إلى أنس جماعتها.

ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة وماتة مقبولة ووسيلة معروفة وحقوق واجبة لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقه وأعوان عدله فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ولا التوعر بهم ولا المكافأة بإساءتهم لأن مبادرة جسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ أحزم في الرأي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها قال المهدي:
ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدر مما قال وانسل انسلال
السيف فيما ادعى.

فدعوا ما قد سبق موسى فيه أنه هو الرأي وثنى بعده هارون.

ولكن من لأعنه الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج
وأفرطت بهم الدالة قال الصالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول
الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك وليس ينفص عنك من بيوتات
العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك
وتستودعه جندك ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويصطلع بالأعباء الثقيلة.

وأنت بحمد الله ميمون النقية مبارك العزيمة مخبور التجارب محمود
العواقب معصوم العزم فليس يقع اختبارك ولا يقف نظرك على أحد توليه
أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله منه ما تحب وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه.

ولكن أحب الموافقة على الرأي والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان أيها المهدي قوم ذو عزة ومنعة وشياطين
خدعة زروع الحمية فيهم نابئة وملابس الأنفة عليهم ظاهرة.

فالروية عنهم عازبة والعجلة فيهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم
عذلهم لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا
يلجمون إلا بالشدة ولا يفطمون إلا بالقهر.

وإن ولى المهدي عليهم وضعياً لم تنقد له العظماء وإن ولى أمرهم شريفاً
تحامل على الضعفاء.

وإن آخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه
أو بني عمه أو بني أبيه ناصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا
أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا عصبية تنفرهم تنفست الأيام بهم وتراخت
الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه
صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر
كبير.

وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم ولا قارحاً صفاتهم بمثل أحد
رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول
بسمعك ويد ممثلة لعينك وصخرة لا تززع وبهمة لا يثنى وبازل لا يفزعه
صوت الججل تقي العرض نزيه النفس جليل الخطر قد اتضعت الدنيا عن
قدره وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأقصى لعينه نصيباً والغرض
الأدنى لقدمه موطناً فليس يغفل عملاً ولا يتعدى أملاً وهو رأس مواليك

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأنصح بني أبيك رجل قد غذي بلطف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك.

فإن قلده أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم كان قفلاً فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك فجعل العدل عليه وعليهم أميراً والإنصاف بينه وبينهم حاكماً فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم غرس لك في الذي بين صدورهم وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم طاعة رأسخة العروق بأسقة الفروع متمثلة في حواشي عوامهم متمكنة من قلوب خواصهم فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه ولا يلزمهم حق إلا أدوه وهذا أحدهم.

والآخر عود من غيظتك ونبعة من أرومتك فتى السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يجرد فيهم سيفه ويبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي.

فسلطه - أعزك الله - عليهم ووجهه بالجيوش إليهم ولا تمنعك ضراعة سنه وحداثة مولده فإن الحلم والثقة مع الحداثة خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه واختصكم به من مكارم الأخلاق ومحامد الفعال ومحاسن الأمور وصواب التدبير وصرامة الأنفس كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم مزروع في قلوبكم مستحکم لكم متكامل عندكم بطباع لازمة وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ولكن إن ولى المهدي عليهم رجلاً ليس بقديم الذكر في الجنود ولا بنبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التجربة للأمور ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه ويحتقرونها فيه ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار وأمره والتكشيف لحاله والعلم بطباعه.

والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود والجيوش التي يسوس إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ولم يعرفوه بالصوت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم وربما وقع البوار قبل الاختبار.

وباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك صيت له نسب زاك وصوت عال قد قاد الجيوش وساس الحروب وتآلف أهل خراسان واجتمعوا عليه بالمقة ووثقوا به كل الثقة فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبيت قصد الرمية وأبيت إلا عصبية إذ رأي الحدث من أهل بيتنا كراي عشرة حلما من غيرنا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ولكن أين تركتم ولي العهد قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن خلفه وستر من دون عباده علم ما تختلف به الأيام ومعرفة ما تجري به المقادير من حوادث الأمور وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ومواضي الملوك فكرهنا شسوعه عن محلة الملك ودار السلطان ومقر الإمامة والولاية وموضع المدائن والخزائن ومستقر الجنود وموضع الوجوه ومجمع الأموال التي جعلها الله عز وجل قطباً لمدار الملك ومصيدة لقلوب الناس ومثابة لإخوان الطمع وثوار الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال وأبناء المروق.

وقلنا إن وجه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله لم يستطع المهدي أن يعقبه بغيره إلا أن ينهض إليهم بنفسه وهذا خطر عظيم وهول شديد إن تنفست الأيام بمقامه واستدامت الحال بأيامه حتى يقع عرض لا يستغنى فيه أو يحدث أمر لا بد فيه منه صار ما بعده مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه.

نحن - أهل البيت - نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من العلم ومحتوم من الأمر قد أنبأت به الكتب وتتابعت عليه الرسل وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا فيه ندبر وعلى الله تتوكل.

إنه لا بد لولي عهدي عقبي من بعدي أن يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم يريد أن لا يدع أحد من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل وألبسه قناع القهر وطوقه طوق الذل ولا أحداً من الذين عملوا في قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحق إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول بذله.

فإذا خرج مزمعاً له مجمعاً عليه لم يسر إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت حيله.

وكدحت كتبه ونفذت مكايده فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائفة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبرا بهم وتعطفاً عليهم إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجاجهم بيت الله الحرام وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون فإذا سمت الفرق بقرانها له وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصد لأول

مكتبة مشكاة الإسلامية

ناحية بخعت بطاعتها وألقت بأزمته فألبسها جناح نعمته وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حباه ثم عم الجماعة بالمعدلة وتعطف عليهم بالرحمة.

فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها منفعتة فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضيعها وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته وتبطئ عن إجابته وتتأقل عن حقه فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه فيضطرر عليها موجدة ويتغنى لها علة لا يلبث أن يجدها بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتاكلهم السيوف ويستحرق فيهم القتل ويحيط بهم الأسر ويفنيهم التتبع حتى يخرب البلاد ويوتم الأولاد.

وناحية لا يبسط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة لأنهم أول من فتح باب الفرقة وتدرع جلاباب الفتنة وربض في شق العصا.

ولكنه يقتل أعلامهم وبأسر قوادهم ويطلب هرابهم في لجج البحار وقلل الجبال وخمر الأردية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الديار خراباً والنساء أيامى.

وهذا أمر لا نعرف في كتبنا وقتاً ولا نصحح منع غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي فهذا أوان توجهه إلى خراسان وحلوله بجرجان وما قضى الله له من الشخوص إليها والمقام فيها خير للمسلمين مغبة وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه.

فمن يصحبه من الوزراء ومن يختار له من الناس قال محمد بن الليث: أيها المهدي إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تثنت نحوه أعناقها ومدت سمته أبصارها.

وقد كان لقرب داره منك ومحل جواره لك: عطل الحال غفل الأمر واسع العذر.

فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدييره فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه وتستنصت لمواقع آثاره وتسال عن حوادث أحواله في بره ومرحمته وإقساطه ومعدلته وتدييره وسياسته ووزرائه وأصحابه ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوي عمد مملكته ويسدد أركان ولايته ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله وأظهر لجماله وأفضل مغبة لأمره وأجل موقفاً في قلوب رعيته وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته.

ولا أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له وأبلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ومعدلة تنتشر من أثره ومحبة للخير وأهله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وإن يختار المهدي - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة وفقهاء أهل كل مصر أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا وتانس الرعية بهم إذا وصفوا ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان وفتح باب المعروف كما قد كان فتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت.

ثم بعث في ابنه موسى فقال: أي بني إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصباً ولمثنى أعطاف الرعية غاية فحسنتك شاملة وإساءتك نامية وأمرك ظاهر.

فعليك بتقوى الله عز وجل وطاعته فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم بخلافهما فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه إيثارك رضاه وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه.

ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمن عترة من رسله وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنصرتهم ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً وعلى إقامة عدله أعوانا يسدون الخلل ويقومون الميل ويدفعون عن الأرض الفساد.

وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم وندافع ريب الزمان بعزائمهم ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم.

فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها وحتوف الأعداء إذا برزت صفحاتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها.

قد مضت لهم وقائع صادقات ومواطن صالحات أخدمت نيران الفتن وقصمت دواعي البدع وأذلت رقاب الجبارين ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ربح دولتنا وأقاموا في ظل دعوتنا واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذلتهم ورفع بها ضعتهم وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل وقناع الخوف وإطباق البلاء ومحالفة الأسى وجهد البأس والضر.

فظاهر عليهم لباس كرامتك وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حتى طاعتهم ووسيلة دالتهم ومائة سابقتهم وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم والتوسعة عليهم والإثابة لمحسنهم والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها واستجلب مودتها بالإنصاف لها وتحسن بذلك لربك وتزين به في عين رعيته واجعل عمال القدر وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك ونصفة منك لرعيته وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم

مكتبة مشكاة الإسلامية

وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم فإن أحسن حمدت وإن أساء عذرت هؤلاء
عمال القدر وولاة الحجج.

فلا يضعن عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع - من
انعقاد السنة المرجفين وكبت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب
وسلامة عواقب الأمور.

ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً وبعراً حبلك متعلقاً رجلاً: أحدهما كريمة
من كرائم رجال العرب وأعلام بيوتات الشرف له أدب فاضل وحلم راجح
ودين صحيح.

والآخر له دين غير مغمور وموضع مدخول بصير بتقلب الكلام وتصريف الرأي
وإيجاء الأدب ووضع الكتب عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع
أدباً نافعة وآثاراً باقية من تجميل محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك
فتستشيره في حربك وتدخله في أمرك فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى
محلتي ويرعى في خضرة جناني: ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان
وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد
وأصحاب مناظرتك فيما تصدر.

فسر على بركة الله أصحابك الله من عونته وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب
قلبك وهادياً ينطق بالحق لسانك.

وكتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد.

باب في مداراة العدو

في كتاب للهند: إن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل
الخشوع والخضوع له كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بليته
واثنائه معها.

وقالوا: أرفن للقرد في دولته.

أخذه الشاعر فقال: لا تعبدن صنماً في فاقة نزلت وازفن بلا حرج للقرد في
زمنه وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها.

وقال سابق البلوي: وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً عليك ولن يحتال من لا
يداهن وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة الفرصة عند إمكانها والانصراف
عما لا سبيل إليه.

وقال الشاعر: بلاء ليس يشبهه بلاء عداوة غير ذي حسب ودين يبيحك منه
عرضاً لم يصنه ويرتع منك في عرض مصون إن أبدى لك المودة قالت
الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه وكن أشد ما تكون حذراً منه أطف ما
يكون مداخلة لك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فإنما السلامة من العدو بتباعدك منه وانقباضك عنه وعند الأنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.

وقالوا: لا تطمئن إلى العدو إن أبدى لك المقاربة وإن بسط لك وجهه وخفض لك جناحه فإنه يتربص بك الدوائر ويضمرك الغوائل ولا يرتجى صلاحاً إلا في فسادك ولا رفعة إلا بسقوط جاهك.

كما قال الأخطل: بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمناً زفر واتخذوه عدواً إن شاهده وما تغيب من أخلاقه دعر إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالعر يكمن حيناً ثم ينتشر وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال يحذر المواثبة إن قرب والمعاودة إن بعد والكمين إن انكشف والاستطراد إن ولى والكرة إن فر.

وأوصى بعض الحكماء ملكاً فقال: لا يكونن العدو الذي كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته فإنه ربما تخوف الرجل السم الذي هو أقتل الأشياء وقتله الماء الذي هو محيي الأشياء وربما تخوف أن تقتله الملوك التي تملكه ثم تقتله العبيد التي يملكها.

ولم يقل أحد في العدو المندمل علي العداوة مثل قول الأخطل: إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالعرق يكمن حيناً ثم ينتشر وقد أشار الحسن بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول: وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره كمن الشنان فيه لنا ككمون النار في حجره وشبهوا العدو إذا كان هذا فعلة بالحية المطرقة.

قال ابن أخت تأبط شراً: مطرق يرشح موتاً كما أطرق أفعى ينفث السم صل وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية - ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير -: مالي أراك تطرق إطراق الأفعوان في أصول السخبر وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعله أجاته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً: والشجرة المرة لو طليتها بالعسل وقال دريد بن الصمة: وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح وقال زهير: وما يك في صديق أو عدو تخبرك العيون عن القلوب وقيل لزياد: ما السرور قال: من طال في العافية والكفاية عمره حتى يرى في عدوه ما يسره.

▲ باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل علي رضي الله عنه: حوثة الأقطع فإنه كان خرج إلى النخيلة واجتمع إليه جماعة من الخوارج ومعاوية بالكوفة وقد بايعه الحسن والحسين وقيس بن سعد بن عبادة.

ثم خرج الحسن يريد المدينة فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال الحسن عليه السلام: والله لقد كفت عنك لحقن دماء المسلمين وما أحسب ذلك يسعني فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم فلما رجع الجواب إليه وجه إليهم جيشاً أكثره من أهل الكوفة ثم قال لأبي حوثره: تقدم فاكفني أمر ابنك.

فسار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فداوره فصمم.

فقال له: أي بني أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن إليه فقال له: يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني.

فرجع إلى معاوية فأخبره.

فقال: يا أبا حوثره عتا هذا جداً.

فلما نظر حوثره إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون معه لتشدوا سلطانه.

ثم جعل يشد عليهم ويقول: اجمل على هذي الجموع حوثره فعن قريب ستنال المغفرة وكان مرداس أبو بلال قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنكر التحكيم وشهد النهروان ونجا فيمن نجا فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى شدة الطلب للشرأة عزم على الخروج فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعنا المقام مع هؤلاء الظالمين تجرى علينا أحكامهم مجانيين للعدل مفارقين للفصل.

والله إن الصبر على هذا لعظيم وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد ولكننا نتبذ عنهم ولا نجرد سيفاً ولا نقاتل إلا من قاتلنا.

فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً منهم: حريث بن حجل وكهمس ابن طلق الصريمي فأرادوا أن يولوا أمرهم حريثاً فأبى.

فولوا أمرهم مرداساً.

فلما مضى بأصحابه لقيهم عبد الله بن رباح الأنصاري وكان له صديقاً فقال له: يا ابن أخي أين تريد فقال: أريد أن أهرب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة.

قال: له: أعلم أحد بكم قال: لا قال: فارجع.

قال: أو تخاف علي مكروها قال: نعم وأن يؤتى بك.

قال: فلا تخف فإني لا أجرد سيفاً ولا أخيف أحداً ولا أقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل أسك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فمر به مال يحمل إلى ابن زياد وقد بلغ أصحابه الأربعين: فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه وترك ما بقى وقال: قولوا لصاحبكم: إنما أخذنا أعطياتنا.

فقال له أصحابه: لماذا تترك الباقي قال: إنهم يقسمون هذا الفياء كما يقيمون الصلاة فلا تقاتلوهم ما داموا على الصلاة.

فوجه إليهم ابن زياد أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين.

فلما وصل إليهم قال له مرداس: اتق الله يا أسلم فإننا لا نريد قتالاً ولا نروع أحداً وإنما هربنا من الظلم ولا نأخذ من الفياء إلا أعطياتنا ولا نقاتل إلا من قاتلنا.

قال: لا بد من ردكم إلى ابن زياد.

قال: وإن أراد قتلنا.

قال: وإن أراد قتلكم! قال: فتشرك في دمائنا.

قال: نعم.

فشدوا عليه شدة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم وجه إليهم ابن زياد عبداً.

فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة فناداهم أبو بلال: يا قوم هذا وقت الصلاة فوادعونا حتى نصلي.

فوادعوهم فلما دخلوا في الصلاة شدوا عليهم فقتلوهم وهم بين راع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد.

فقال عمران بن حطان يرثي أبا بلال: يا عين بكى لمرداس ومصرعه يا رب مرداس اجعلني كمرداس أبقيتني هائماً أبكي لمرزئتي في منزل موحش من بعد إيناس أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس إما شربت بكأس دار أولها على القرون فذاقوا جرعة الكاس فكل من لم يذقها شارب عجللاً منها بأنفاس ورد بعد أنفاس وليس في الفرق كلها وأهل البدع أشد بصائر من الخوارج ولا أكثر اجتهاداً ولا أوطن أنفاساً على الموت فمنهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: عجلت إليك رب لترضى.

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرت بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر يقاتلهم في كل يوم وكان من عتاب بن ورقاء رجل يقال له شريح ويكنى أبا هريرة فكان يخرج إليهم في كل يوم فيناديهم: يا بني الماحوز والأشرار

مكتبة مشكاة الإسلامية

كيف ترون يا كلاب النار شد أبي هريرة الهرار يعروكم بالليل والنهار وهو من الرحمن في جوار فتعاطمهم ذلك.

فكمن له عبدة بن هلال فضربه واحتمله أصحابه فظنت الخوارج أنه قد قتل فكانوا إذا تواقفوا ينادونهم: ما فعل الهرار فيقولون: ما به من بأس.

حتى أبل من علته فخرج إليهم فقال: يا أعداء الله.

أترون بي بأساً فصاحوا به: قد كنا نرى أنك لحقت بأملك الهاوية في النار الحامية.

فلما طال الحصار على عتاب قال لأصحابه: ما تنتظرون: إنكم والله ما تؤتون من قلة وإنكم فرسان عشائركم ولقد حاربتموها مراراً فانتصفتم منهم وما بقي من هذا الحصار إلا أن تفنى ذخائركم فيموت أحدكم فيدفنه صاحبه ثم يموت هو فلا يجد من يدفنه فقاتلوا القوم وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشي إلى قرنه.

فلما أصبح بهم الصبح ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون وقد نصب لواء لجارية يقال لها ياسمين فقال: من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين ومن أراد الجهاد فليلحق بلوائي.

قال: فخرج في ألفين وسبعمئة فارس فلم تشعر بهم الخوارج حتى غشوهم فقاتلوهم بجد لم تر الخوارج مثله فقتلوا أميرهم الزبير بن علي وانهزمت الخوارج فلم يتبعهم عتاب بن ورقاء.

وخرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي.

كانا مجتهدين بالصرة في أيام زياد فاعترضا الناس فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه وتنادى الناس فخرج رجل من بني قطيعة من الأزدي بالسيف.

فناداه الناس من بعض البيوت: الحرورية انج بنفسك.

فنادوه: لسنا حرورية نحن الشرط فوقف فقتلوه.

وبلغ أبا بلال خبرهما وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراض الناس فقال قريب لا قربه الله من الخير وزحاف لا عفا الله عنه فلقد ركباها عشواء مظلمة.

ثم جعل لا يمران بقبيلة إلا قتلوا من وجدا فيها حتى مرا ببني علي ابن سود من الأزدي.

وكانوا رماة وكان فيهم مائة يجيدون الرمي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فرموهم رمياً شديداً فصاحوا: يا بني علي البقيا لا لا شيء للقوم سوى
السهام مشحودة في غلس الظلام فهربت عنهم الخوارج.

فاشتقوا مقبرة بني يشكر حتى خرجوا إلى مزينة.

واستقبلهم الناس فقتلوا عن آخرهم.

ثم عاد الناس إلى زياد فقال: ألا ينهى كل قوم سفهاءهم.

فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فيهم أوثقوه وأتوا به زياداً فمنهم من
يجبسه ومنهم من يقتله.

ولزياد أخرى في الخوارج أنه أتى بامرأة منهم فقتلها ثم عراها فلم تخرج
النساء إلا بعد زياد وكن إذا أرغمن على الخروج قنن: لولا التعرية لسارعنا.

ومن مشاهير فرسان الخوارج: عمرو القنا من بني سعد بن زيد مناة وعبدة
بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل وهو الذي طعن صاحب المهلب في
فخذه فشكها مع السرج وهما اللذان يقول فيهما ابن المنجب السدوسي من
فرسان المهلب وكان قال له مولاه خلاج: وددت أنا فضضنا عسكرهم
فأستلب منه جارتين إحداهما لك وأخرى لي -: أخلاج إنك لن تعانق طفلة
شرفاً بها الجادي كالتمثال حتى تعانق في الكتيبة معلماً عمرو القنا وعبدة
بن هلال وترى المقعطر في الكتيبة مقدماً في عصبة قسطوا مع الضلال
والمقعطر: من مشاهير فرسانهم.

وقطري: أنجدهم قاطبة.

وصالح بن مخراق: من بهمهم وكذلك سعد الطلائع.

ولما اختلف أمر الخوارج وانحاز قطري فيمن معه وبقي عبد ربه قال المهلب
لأصحابه.

إن الله قد أراحكم من أقران أربعة: قطري بن الفجاءة واصلح بن مخراق.

وعبدة بن هلال وسعد الطلائع وإنما بين أيديكم عبد ربه في خشار من خشار
الشیطان.

وكانت الخوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعلق الخسيس أشد
قتال وسقط في بعض أيامهم رمح لرجل من مراد من الخوارج فقاتلوا عليه
حتى كثر الجراح والقتل وذلك مع المغرب والمرادي يرتجز: الليل ليل فيه
ويل ويل وسال بالقوم الشراة السيل إن جاز للأعداء فينا قول وتعرفت
مقالة الخوارج على أربعة أضرب فقال نافع بن الزرق باستعراض الناس
والبراءة من عثمان وعلي وطلحة والزبير واستحلال الأمانة وقتل الأطفال.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي: إن أعداءنا كأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم يحل لنا المقام فيهم كما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين وأقول: إن مناكحتهم ومواريتهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين.

وقال عبد الله بن إباح: لا نقول فيمن خلفنا إنه مشرك لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب المقدس والرسول وإنما هم كفار للنعم ومواريتهم ومناكيحهم والإقامة معهم حل ودعوة الإسلام تجمعهم.

وقالت الصفرية بقول عبد الله بن إباح ورأت القعود حتى صارت عامتهم قعداً.

وإنما سموا صفرية لإصفرار وجوههم وقيل لأنهم أصحاب ابن الصفار.

▲ كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد

قال الفقيه أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد والعدة والعدد.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد إذ كان أشرف ملابس الدنيا وأزين حللها وأجلها لحمد وأدفعها لدم وأسترها لغيب كرم طبيعة يتحلى بها السمع السري والجواد السخي.

ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمى بها فهو الكريم عز وجل.

ومن كان كريماً من خلقه فقد تسمى باسمه واحتذى على صفته.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا.

وفي الحديث المأثور: الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

وفي الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال.

قال: بأبي وأمي أنتما إن الله قد عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني.

وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبي: أنت متلاف.

قال: منع الجود سوء ظن بالمعبود.

مكتبة مشكاة الإسلامية

يقول الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقللاً.

▲ مدح الكرم وذم البخل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اصطناع المعروف يقي مصارع السوء. وقال عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب: من سيدكم قالوا: الجد ابن قيس على بخل فيه.

فقال صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوى من البخل يقول الله تعالى: " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ."

وقال أكنم بن صيفى حكيم العرب: ذللوا أخلاقكم للمطالب وقودوها إلى المحامد وعلموها المكارم ولا تقيموا على خلق تدموه من غيركم وصلوا من رغب إليكم وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال: أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع فصرت الفقير وأنت الغني وما كنت تعدو الذي تصنع وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر.

فرد عليه: " الشیطان بعدكم الفقير ويأمركم بالفحشاء والله بعدكم مغفرة منه وفضلاً " وإنني أكره أن أترك أمراً قد وقع لأمر لعله لا يقع.

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس عليكم بالمعروف فإن الله لا يعدم فاعله جوازيه.

وما ضعفت الناس عن أدائه قوي الله على جزائه.

وأخذه من قول الحطيئة: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة.

يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: من رزقه الله رزقاً حسناً فلينفق منه سراً وجهراً حتى يكون أسعد الناس به فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقل عليه شيء وإما لمفسد فلا يبق له شيء.

مكتبة مشكاة الإسلامية

أخذة الشاعر فقال: أسعد بمالك في الحياة فإنما يبقى خلافك مصلح أو مفسد وقال أبو ذر رضي الله عنه: إن لك في مالك شريكين: الحدثان والوارث فإن استطعت ألا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل.

وقال بزرجمهر الفارسي: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى: أخذ الشاعر هذا المعنى فقال: لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف وإن تولت فأحري أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرر بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباق القلوب على بغضهم إلا سوء ظنهم بربهم في الخلف لكان عظيماً.

وأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال: من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان فقال لي: إما أن تحملني وإما أن أحملك.

فهمت ما أراد فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصاري: وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا وإن أتيتم أعوزتم فتعففوا وإن كان فضل المال فيكم فافضلوا فأمر لي بعشرين ألفاً.

وقال عبد الله بن عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء.

وقال أبو مسلم الخولاني: ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه.

وما كل من قدر على المعروف كانت له نية.

فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة وأنشد: إن المكارم كلها حسن والبذل أحسن ذلك الحسن كم عارف بي لست أعرفه ومخبر عني ولم يرني يأتيهم خبري وإن بعدت داري وبوعد عنهم وطني إني لحر المال ممتهن ولحر عرضي غير ممتهن وقال خالد بن عبد الله القسري: من أصابه غبار مركبي فقد وجب علي شكره.

وقال عمرو بن العاص: والله لرجل ذكرني بنام علي شقة مرة وعلى شقة أخرى يراني موضعاً لحاجته لأوجب علي حقاً إذا سألتها مني إذا قضيتها له.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنتني الرجل من نفسه حتى أضع معروفه عنده يده عندي إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر وياكرني في حاجة لم يكن لها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر فرجت بمالي همه عن خناقه وزايله الهم الطروق المساور وكان له فضل علي بظنه بي الخير إني للذي ظن شاكر وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت

مكتبة مشكاة الإسلامية

مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه قال: رأيت رغبته في الشكر وحاجته إلى القضاء أشد من حاجة صاحب الحاجة.

أخذه بشار فنظمه فقال: مالكي ينشق عن وجهه الجد ب كما انشقت الدجى عن ضياء ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء وقال زياد: كفى بالبخل عاراً اسمه لم يقع في حمد قط وكفى بالجد فخرأ أن اسمه لم يقع في ذم قط.

وقال آخر: لقد علمت وقد قطعني عدلاً ماذا من الفضل بين البخل والجد إلا يكن ورق يوماً أروح به للخاطبين فإني لين العود قوله: إلا يكن ورق يريد المال وضربه مثلاً.

ويقال: أتى فلان فلاناً يختبئ ما عنده.

والاختباط: ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائمة فجعل طالب الرزق مثل الخابط.

وقال أسماء بن خارجة: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها.

لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه أو لئيماً فأصون عرضي منه.

وقال أرسطو طاليس: من انتجعك من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك.

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقيل لبعض الحكماء: ما أفادك الدهر قال العلم به.

قيل: فما أحمد الأشياء قال: أن تبقى للإنسان أحدىة حسنة.

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى: " [واحعل لي لسان صدق في الآخرين](#) ".

إنه أراد حسن الثناء من بعده.

وقال أكتهم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيوا أخباركم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فقال: وما ابن آدم إلا ذكر صالحة أو ذكر سيئة يسري بها الكلم أما سمعت بدهر باد أمته جاءت بأخبارها من بعدها أمم وقال أبو بكر محمد بن دريد: وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى وقالوا: الأيام مزارع فما زرعت فيها حصده.

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق: يا من تجلد للزما ن أما زمانك منك أجد سلط نهاك على هواك وعد يومك ليس من غد إن الحياة مزارع فازرع بها ما شئت تحصد والناس لا يبقى سوى آثارهم والعين تفقد والمال إن أصلحته يصلح وإن أفسدت يفسد والعلم ما وعت الصدور وليس ما في الكتب يخلد وقال الأحنف بن قيس: ما أدخرت الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

وقالوا: تريبب المعروف أولى من اصطناعه لأن اصطناعه نافلة وتريببه فريضة.

وقالوا: أحي معروفك بإماتة ذكره وعظمه بالتصغير له.

وقالت الحكماء: من تمام كرم النعم التغافل عن حجته والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته.

وقالوا: للمعروف خصال ثلاث: تعجيله وستره وتيسيره فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك فقال: من كانت له عندي يد صالحة.

قيل: فإن لم تكن له فقال: فمن كانت لي عنده يد صالحة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه فإن لم يقم بتلك المؤونة عرض النعمة للزاول.

أبو اليقظان قال: أخذ عبيد الله بن زياد عروة بن أديه أخا أبي بلال وقطع يده ورجله وصلبه على باب داره.

فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكلين بي فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم.

ابن المبارك عن حميد عن الحسن قال: لأن أقضي حاجة لأخ لي أحب إلي من عبادة سنة.

وقال إبراهيم بن السندي: قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجف لبدته ولا يستريح قلبه ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضعفاء وكان رجلاً مفوهاً فقلت له: أخبرني عن الحالة التي خفت عنك النصب وهونت عليك التعب في القيام بحوائج الناس ما هي

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: قد والله سمعت تغريد الطير بالأسحار في فروع الأشجار وسمعت خفق أوتار العيدان وترجيع أصوات القيان فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد أحسن ومن شكر حر لمنعم حر ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر.

قال إبراهيم: فقلت له: لله أبوك! لقد حشيت كرمًا.

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته وهم الذين يقضون الحوائج للناس فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

▲ الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أفضل العطية ما كان من معسر إلى معسر.

وقال عليه الصلاة والسلام: أفضل العطية جهد المقل.

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير من الكثير.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلماً: قد بعثنا إليك أكرمك الله بشيء فكن له ذا قبول لا تقسه إلى ندى كفك الغم رولا نيلك الكثير الجزيل واستجز قلة الهدية مني إن جهد المقل غير قليل وقالوا: جهد المقل أفضل من غنى المكثّر.

وقال صريع الغواني: وقال أبو هريرة: ما وددت أن أحداً ولدتني أمه إلا أم جعفر بن أبي طالب عليه السلام تبعته ذات يوم وأنا جائع فلما بلغ الباب التفت فرأني فقال لي: أدخل فدخلت.

ففكر حيناً فما وجد في بيته إلا نحيا كان فيه سمن مر فأنزله من رف لهم فشقه بين أيدينا فجعلنا نلحق ما كان فيه من السمن والرب وهو يقول: ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجد وقيل لبعض الحكماء: من أجود الناس قال: من جاد من قلة وصال وجه السائل عن المذلة.

وقال حماد عجرد: أروق بخير تؤمل للجزيل فما ترجى الثمار إذا لم يورق العود إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود وللبخيل على أمواله عِلل زرق العيون عليها أوجه سود بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود وقال حاتم: أضحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب أتهازاً مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الجوع والجوع

مكتبة مشكاة الإسلامية

جاهد لأنني أمرؤ عافي إنائي شركة وأنت أمرؤ عافي أنائك واحد أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء بارد ومن أحسن ما قيل في الجود والإقلال قول أبي تمام حبيب: فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتنق الله سائله ومن أفرط ما قيل في الجود قول بكر بن النطاح: أقول لمرتاد الندي عند مالك تمسك بجدوى مالك وصلاته فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه فأسدى بها المعروف قبل عداته فلو خذلت أمواله جود كفه لقاسم من يرجوه شطر حياته وإن لم يجز في العمر قسم لمالك وجاز له أعطاه من حسناته وجاد بها من غير كفر بربه وأشركه في صومه وصلاته وقال آخر في هذا المعنى وأحسن: ملأت يدي من الدنيا مراراً وما طمع العوادل في اقتصادي قال سعيد بن العاصي: قبح الله المعروف إن لم يكن ابتدئ من غير مسألة فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذ بذل وجهه فقلبه خائف وفراصه ترتعد وجبينه يرشح لا يدري أيرجع بنجح الطلب أم بسوء المنقلب قد انتفع لونه وذهب دم وجهه.

اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظاً فلا تجعل لي حظاً في الآخرة.

وقال أکثم بن صيفي: كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة.

حبيب قال: عطاؤك لا يفنى ويستغرق المنى وتبقى وجوه الراغبين بمائها وقال حبيب أيضاً: ذل السؤال شجاً في الحلق معترض من دونه شرق من خلفه جرض ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أفنيتة عوض إنني بأيسر ما أدنيت منبسط كما بأكثر ما أقصيت منقبض وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفاك حق نعمتك وقالوا: السخي من كان مسروراً ببذله متبرعاً بعطائه لا يلتمس عرض دنيا فيحبط عمله ولا طلب مكافأة فيسقط شكره ولا يكون مثله فيما أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحب للطائر لا يريد نفعها ولكن نفع نفسه.

نظر المنذر بن أبي سبرة إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع فقال له: ما أصبرك على هذا القميص فقال له: رب مملوك لا يستطاع فراقه.

فبعث إليه بتخت من ثياب.

فقال أبو الأسود: كساني ولم أستكسه فحمدته أخ لك يعطيك الجزيل وناصر وإن أحق الناس إن كنت شاكراً بشكرك من أعطاك والعرض وافر وسأل معاوية صعصعة بن صوجان: ما الجود فقال: التبرع بالمال والعطية قبل السؤال: ومن قولنا في هذا المعنى: كريم علي العلات جزل عطاؤه ينيل وإن لم يعتمد لنوال وما الجود من يعطى إذا ما سألته ولكن من يعطى بغير سؤال وقال بشار العقيلي: مالكي ينشق عن وجهه الجدب كما انشقت الدجى عن ضياء ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء لا ولا أن يقال شيمته الجود ولكن طبائع الآباء وقال آخر: إن بين السؤال

مكتبة مشكاة الإسلامية

والإعتذار خطة صعبة على الأحرار وقال حبيب بن أوس لئن جددت ما أوليت من نعم إنني لفي اللؤم أمضى منك في الكرم أنسى ابتسامك والألوان كاسفة تبسم الصبح في داج من الظلم رددت رونق وجهي في صحيفته رد الصقال بهاء الصارم الخدم وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي استنجح الحوائج كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما: اللهم بك أستنجح وباسمك أستفتح وبمحمد نبيك إليك أتوجه.

اللهم ذلل لي صعوبته وسهل لي جزوته وارزقني من الخير أكثر مما أرجو وأصرف عني من الشر أكثر مما أخاف.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: استعينوا على حوائجكم بالكتمان لها فإن كل ذي نعمة محسود.

وقال خالد بن صفوان: لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ولا تطلبوها من غير أهلها فإن الحوائج تطلب بالرجاء وتدرك بالقضاء.

وقال: مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة ومغلاقها اعتراض الكسل دونها.

قال الشاعر: إنني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر وقل من جد في أمر يحاوله فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر ومن أمثال العرب في هذا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال: إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتجأ لا تياسن وإن طالت مطالبة إذ تضايق أمر أن ترى فرجا أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا وقال خالد بن صفوان: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها وأشد من المصيبة سوء وقالوا: صاحب الحاجة مبهوت وطلب الحوائج كلها تعزير.

وقالت الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذاب فإنه يقر بها بالقول ويبعدها بالفعل ولا من أحمق فإنه يريد نفعك فيضرك ولا من رجل له أكلة من جهة رجل فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.

وقال دعبل بن علي الخزاعي: جئتك مسترفداً بلا سبب إليك إلا بحرمة الأدب فاقض ذمامي فإنني رجل غير ملح عليك في الطلب وقال شبيب بن شيبه: إنني لأعرف أمراً لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النجح بينهما.

قيل له: وما ذاك قال: العقل فإن العاقل لا يسأل ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن.

وقال الشاعر: أتيتك لا أدلي بقربي ولا يد إليك سوى أني بجودك واثق فإن تولني عرفاً أكن لك شاكرًا وإن قلت لي عذراً أقل أنت صادق وقال الحسن بن هانئ: فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور لعمرك ما

مكتبة مشكاة الإسلامية

أخلقت وجهاً بذلته إليك ولا عرضته للمعايير فتى وفرت أيدي المكارم عرضه عليه وخلت ماله غير وافر ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين.

أراد إن قضيتها كنت أنت كريماً بقضائها وكنت أنا كريماً بسؤالك إياها لأنني وضعت الطلبة في موضعها.

فإن لم تقضها كنت أنت لئيماً بمنعك وكنت أنا لئيماً بسوء اختياري لك.

وسرق حبيب هذا المعنى فقال: عياش إنك للئيم وإنني إذ صرت موضع طلبي للئيم ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال: أصلح الله الأمير: لنا حاجة والعذر فيها مقدم خفيف معناها مضاعفة الأجر فإن تقضها فالحمد لله وحده وإن عاق مقدور ففي أوسع العذر قال له: ما حاجتك أبا عبد الله قال: كتاب لي إن رأى الأمير - أكرمه الله - أن ينفذه في خاصته كتبه إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقه.

قال: أو غير ذلك أبا عبد الله نعجلها لك من مالنا وإذا وددت كنت مخيراً بين أن تأخذ أو ترد.

فأنشد سوار يقول: وكفك حين ترى المجتدي ن أندي من الليلة الماطرة وكلبك أنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله فبلك فإن يأذن الله لك في قضائها قضيتها وحمدناك وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك.

وفي بعض الحديث: اطلبوا الحوائج عن حسان الوجوه.

أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال: قد تأولت فيك قول رسول ال له إذا قال مفصحا إفصاحا إن طلبتم حوائجا عند قوم فتنقوا لها الوجوه الصباحا فلعمري لقد تنقيت وجهاً ما به خاب من أراد النجاحا قال المنصور لرجل دخل عليه: سل حاجتك قال: بيقك الله يا أمير المؤمنين.

قال: سل حاجتك فإنك لست تقدر على مثل هذا المقام في كل حين.

قال: والله يا أمير المؤمنين ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك ولا أغتتم مالك وإن عطاءك لشرف وإن سؤالك لزين وما بامرئ بذل إليك وجهه نقض ولا شين فوصله وأحسن إليه.

من أمثالهم في هذا: أنجز حر ما وعد.

وقالوا: وعد الكريم نقد ووعد اللئيم تسويق.

وقال الزهري: حقيق على من أورد بوعده أن يثمر بفعله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال المغيرة: من آخر حاجة فقد ضمنها.

وقال الموبذان الفارسي: الوعد السحابة والإنجاز المطر.

وقال غيره: المواعيد رؤوس الحوائج والإنجاز أبدانها.

وقال عبد الله بن عمر رحمه الله: خلف الوعد ثلث النفاق وصدق الوعد ثلث الإيمان وما ظنك بشيء جعله الله تعالى مدحة في كتابه وفخراً لأنبيائه فقال تعالى: "[واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد](#)".

وذكر جبار بن سلمى عامر بن الطفيل فقال: كان والله إذا وعد الخير وفى وإذا أوعد بالشر أخلف وهو القائل: ولا يرهب ابن العم ما عشت صوتي ويأمن مني صولة المتهدد وإنى وإن أوعده أو وعدته ليكذب إبعادي ويصدق موعدى وقال ابن أبي حازم: وإلا فقل لا تسترح وترح بها لئلا يقول الناس إنك كاذب ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله عز وجل: "[يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون](#)".

[كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون](#) " لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولا يقولون ثم صاروا يقولون ويفعلون ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون: فزعم أنهم ضنوا بالكذب فضلاً عن الصدق.

وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانئ: قال لي ترضى بوعد كاذب قلت إن لم يك شحم فنفس ومثله قول عباس بن الأحنف ويقال إنه لمسلم بن الوليد صريع الغواني: ما ضر من شغل الفؤاد ببخله لو كان عللني بوعد كاذب صبراً عليك فما أرى لي حيلة إلا التمسك بالرجاء الخائب سأموت من كمد وتبقى حاجتي فيما لديك وما لها من طالب قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وعدها إياه فمطله بها: نحن إلى الفعل أحوج منا إلى القول وأنت بالإنجاز أولى منك بالمطل.

واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد واستتمامك المعروف.

القاسم بن معن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى أيها الأمير ما انتفعت بك مذ عرفتك ولا أوصلت لي خيراً مذ صحبتك.

قال: ألم أكلم لك أمير المؤمنين في كذا وسألته لك كذا قال: قلت: بلى فهل استنجزت ما وعدت واستتممت ما بدأت قال: حال من دون ذلك أمور قاطعة وأحوال عاذرة.

قلت: أيها الأمير فما زدت على أنها نبهت العجز من رقدته وأثرت الحزن من ربضته إن الوعد إذا لم يشفه إنجاز يحققه كان كلفظ لا معنى له وجسم لا روح فيه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي لخالد بن ديسم عامل الري.

أخالد إن الري قد أجحفت بنا وضاق علينا رحبها ومعاشها وقد أطعمتنا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها فلا غيمها يصحو فيئس طامعاً ولا ماؤها يأتي فتروى عطاشها وقال سعيد بن سلم: وعد أبي بشاراً العقيلي حين مدحه بالقصيدة التي يقول فيها: صدت بخد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المرتد فكتب إليه بشار بالغد: ما زال ما منيتني من همي والوعد غم فأرح من غمي فقال له أبي: يا أبا معاذ هلا استنجحت الحاجة بدون الوعيد فإذ لم تفعل فتربص ثلاثاً وثلاثاً فإني والله ما رضيت بالوعد حتى سمعت الأبرش الكلبي يقول لهشام: يا أمير المؤمنين لا تصنع إلي معروفاً حتى تعذني فإنه لم يأتي منك سيب على غير وعد وإلا هان علي قدره وقل مني شكره.

قال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيد أهلك أبو مسلم الخولاني: إن أوقع المعروف في القلوب وأبرده على الأكباد معروف منتظر بوعد لا يكدره المظل.

وكان يحيى بن خالد بن برمك لا يقضي حاجة إلا بوعد ويقول: من لم يبت على سرور لم يجد للصنعة طعاماً.

وقالوا: الخلف الأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده ومن وعد وأخلف لزمه ثلاث مذمات: ذم اللؤم وذم الخلف وذم الكذب.

قال زياد الأعجم: لله درك من فتى ولو كنت تفعل ما تقول لا خير في كذب الجواد وحبذا صدق البخيل استبطأ حبيب الطائي الحسن بن عيب في عدة وعددها إياه فكتب إليه أبياتا يستعجله بها.

فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه: فخذ القليل وكن كمن لم يسأل ونكون نحن كأننا لم نفعل وقال عبد الله بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ: وأشعث قد قد السفار قميصه يجر شواء بالعصا غير منضج دعوت إلى ما نابني فأجابني كريم من الفتيان غير مزلج فتى يملأ الشيزي ويروي سنانه ويضرب في رأس الكمي المدجج فتى ليس بالراضي بأدنى معيشة ولا في بيوت الحي بالمتولج فرفع رأس إلي المهدي وقال: هذه صفتك أبا العباس فقلت: بك نلتها يا أمير المؤمنين.

فضحك إلي وقال: هل تنشد من الشعر شيئاً قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فأنشدني.

فأنشدته قول السموأل: وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل إذا المرء أعيته المروءة يافعاً فمطلبها كهلاً عليه ثقل تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل وما ضرنا أنا قليل وجارنا

مكتبة مشكاة الإسلامية

عزيز وجار الأكثرين ذليل يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
 وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل تسيل على حد
 السيوف نفوسنا وليست على غير السيوف تسيل وتنكر إن شئنا على الناس
 قولهم ولا ينكرون القول حين نقول فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا
 فينا يعد بخيل وأسيافنا في كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول
 فقال: أحسنت! اجلس بهذا بلغتم سل حاجتك فقلت: يا أمير المؤمنين تكتب
 لي في العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي قال: نعم فرض علي إذا وعدت.

فقلت يا أمير المؤمنين إنك متمكن من القدرة وليس دونك حاجز عن الفعل
 فما معنى العدة فنظر إلى بن داب كأنه يريد منه كلاماً في فضل الموعد.

فقال ابن داب: حلاوة الفعل بوعد ينجز لا خير في العرف كنهب ينهز فضحك
 المهدي وقال: الفعل أحسن ما يكون إذا تقدمه ضمان وقال المهلب بن أبي
 صفرة لبيته: يا بني إذ غدا عليكم الرجل وراح مسلماً فكفى بذلك أروح
 بتسليمي عليك وأعتدي وحسبك بالتسليم مني تقاضيا وقال آخر: كفاك مخبراً
 وجهي بشأني وحسبك أن أراك وأن تراني وما ظني بمن يعنيه أمري ويعلم
 حاجتي ويرى مكاني كتب العتابي إلى بعض أهل السلطان: أما بعد فإن
 سحائب وعدك قد أبرقت فليكن وبلها سالماً من علل المطل والسلام.

وكتب الجاحظ إلى رجل وعده: أما بعد فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن
 ثمرها سالماً من جوائح المطل والسلام.

ووعد عبد الله بن طاهر دعياً بغيلاً بغيلاً فلما طال عليه تصدى له يوماً وقد ركب
 إلى باب الخاصة فلما راه قال: أسأت الافتضاء وجهلت المأخذ ولم تحسن
 النظر ونحن أولى بالفضل فلك الغلام والدابة لما نزل إن شاء الله تعالى.

فأخذ دعبل بعنانه وأنشده: يا جواد اللسان من غير فعل ليت في راحتك جود
 اللسان عين مهرا ن قد لطمت مراراً فاتقي ذا الجلال في مهرا ن عرت عيناً
 فدع لمهرا ن عيناً لا تدعه يطوف في العميان وسأل خلف بن خليفة أبان بن
 الوليد جارية فوعده بها وأبطأت عليه فكتب إليه: أرى حاجتي عند الأمير كأنها
 تهم زماناً عنده بمقام وأحصر عن إذكاره إن لقيته وصدق الحياء ملجم بلجام
 أراها إذا كان النهار نسيئة وبالليل تقضى عند كل منام فيا رب أخرجها فإنك
 مخرج من الميت حياً مفصلاً بكلام فتعلم ما شكري إذا ما قضيتها وكيف
 صلاتي عندها وصيامي وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده وعداً وأخلفه:
 أحسبت أرض الله ضيقة عني فأرض الله لم تضيق وجعلتني فقراً بقرقرة
 فوطئتني وطئاً على حنق فإذا سألتك حاجة أبداً فاضرب لها قفلاً على غلق
 وأعد لي غلاً وجامعة فاجمع يدي بها إلى عنقي ما أطول الدنيا وأوسعها
 وأدلني بمسالك الطرق ومن قولنا في رجل كتب إلى بعده في صحيفة
 ومطلني بها: من وجهه نحس ومن قربه رجس ومن عرفانه شوم لا تهتضم
 إن بت ضيفاً له فخبزه في الجوف هاضوم تكلمه الألاحظ من رقة فهو بلحظ
 العين مكلوم ولا تأتم على أكله فإنه بالجوع مأدوم وقلت فيه: صحيفة كتبت
 ليت بها وعسى عنوانها راحة الراجي إذا يئسا وعد له هاجس في القلب وقد
 برمت أحشاء صدري به من طول ما هجسا يراعة غرني منها وميض سنى

مكتبة مشكاة الإسلامية

حتى مددت إليها الكف مقتبسا فصادفت حجراً لو كنت تضربه من لؤمه بعضاً موسى لما انبجسا كأنما صيغ من بخل ومن كذب فكان ذاك له روحاً وذا نفساً وقلت فيه: رجاء دون أقربه السحاب ووعده مثل ما لمع السراب وتسويف يكل الصبر عنه ومطل ما يقوم له حساب لطيف الاستمناح قال الحكماء: لطيف الاستمناح سبب النجاح والأنفس ربما انطلقت وانشرحت بلطيف السؤال وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل كما قال الشاعر: وجفوتني فقطعت عنك فوائدي كالدر يقطعه جفاء الحالب وقال العتابي: إن طلب حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه وإياك والإلحاح علي فإن إلحاحك يكلم عرضك وبريق ماء وجهك فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق الوجه وحرمان النجاح فإنه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب.

وقال الحسن بن هانئ: تأن مواعيد الكرام فربما حملت من الإلحاح سمحاً على بخل وقال آخر: إن كنت طالب حاجة فتجمل فيها بأحسن ما طلب وأجمل إن الكريم أخا المروءة والنهي من ليس في حاجاته بمثقل وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مزيد وهو خارج من عند المهدي فأخذ بعنان دابته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد لكل بيت منها مائة ألف.

قال: هات لله أبوك! فأنشأت أقول: يا أكرم الناس من عجم ومن عرب بعد الخليفة يا ضرغامة العرب أفنيت مالك تعطيه وتنهيه يا آفة الفضة البيضاء والذهب إن السنان وحد السيف لو نطقا لا خبراً عنك في الهيجاء بالعجب فأمر لي بها.

المدائني قال: قدم قوم من بني أمية على عبد الملك بن مروان فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن ممن تعرف وحقنا لا ينكر وجئناك من بعيد ونمت بقريب وهما تعطنا فنحن أهله.

دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامية قال: بل بالقرابة والخاصة.

قال: يداك يا أمير المؤمنين بالعطية أطلق من لساني بالمسألة.

فأعطاه وأجزل له.

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان وكان عنده أثيراً فرآه خائراً فقال: يا أبا الريان مالك خائراً قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين.

قال: وكيف ذلك قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعتذر فلا نعذر.

قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت واعتذرت يا أبا العتابي قال: كتب الشعبي إلى الحجاج يسأله حاجة فاعتل عليه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فكتب إليه الشعبي: والله لا عذرتك وأنت والي العراقين وابن عظيم القرينتين ففضى حاجته.

وكان جد الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي.

العتبي قال: قدم عبد العزيز بن زرارة الكلابي على أمير المؤمنين معاوية فقال: إني لم أزل أهرز ذئب الرجال إليك فلم أجد معولاً إلا عليك امتطى الليل بعد النهار وأسم المجاهل بالآثار يقودني إليك أمل وتسوقني بلوى المجتهد يعذر وإذا بلغتك فقطني.

فقال: احطط عن راحلتك رحلها.

ودخل كريب بن زفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك ويستعان عليك وليست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغر عنك وأنت أكبر منه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل قال: سل حاجتك.

قال: قد حملت عن عشيرتي عشر ديات.

قال: قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها.

العتبي عن أبيه قال: أتى رجل إلي حاتم الطائي فقال: إنها وقعت بيني وبين قومي ديات فاحتملتها في مالي وأملي فعدمت مالي وكنت أملي فإن تحملها عني فرب هم فرجته وغم كفيته ودين قضيته وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك ولم أياس من غدك.

فحملها عنه.

المدائني قال: سأل رجل خالداً القسري حاجة فاعتل عليه.

فقال له: لقد سألت الأمير من غير حاجة.

قال وما دعاك إلى ذلك قال رأيتك تحب من لك عنده حسن بلاء فأردت أن أتعلق منك بحبل مودة.

فوصله وحباه وأدنى مكانه.

والأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجري على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين نغض فمي وأنتم أهل البيت بركة فلو أذنت لي فقبلت رأسك لعل الله يشدد لي منه.

قال: اختر منها ومن الجائزة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: يا أمير المؤمنين أهون علي من ذهب درهم من الجائزة ألا تبقى حاكة في فمي.

فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

وذكروا أن جاراً لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره.

فساوموه بها فسألهم ألف دينار فقالوا له: إن دارك تساوي خمسمائة دينار.

قال: وجواري من أبي دلف بألف وخمسمائة دينار.

فبلغ أبا دلف فأمر بقضاء دينه وقال له لا تبع دارك ولا تنتقل من جوارنا.

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان قال: ما أحسن هذه الكناية! املئوا لها بيتاً خبزاً ولحماً وسمناً وتمرأ.

إبراهيم بن أحمد عن الشيباني قال: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث.

فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر فرحب به وقربه وقال له ما حاجتك يا أزهر قال: داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أن يبني محمد ابني بعياله فوصله باثني عشر ألفاً وقال.

قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا طالباً: فأخذها وارتحل.

فلما كان بعد سنة أتاه.

فلما رآه أبو جعفر قال: ما جاء بك يا أزهر قال جئتك مسلماً.

قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً.

قال: ما جئت إلا مسلماً.

قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً.

فأخذها ومضى.

فلما كان بعد سنة أتاه فقال: ما جاء بك يا أزهر قال: أتيت عائداً.

قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً.

قال: ما جئت إلا عائداً قال أمرنا لك باثني عشر ألفاً فاذهب ولا تأتنا لا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً فأخذها وانصرف.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما مضت السنة أقبل فقال له: ما جاء بك يا أزهري قال: دعاء كنت أسمعك تدعوه يا أمير المؤمنين جئت لأكتبه.

فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مستجاب وذلك أني قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً فإذهب وتعال متى شئت فقد أعيتني فيك الحيلة.

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له: إني مدحتك فاستمع.

قال: علي رسلك ثم دخل بيته وقلد سيفه وخرج فقال: فإن أحسنت حكمناك وإن أسأت قتلناك.

فأنشأ يقول: أمنت بداود وجود يمينه من الحدث المخشي والبؤس والفقر فأصبحت لا أخشى بداود نبوة من الحدثان إذ شددت به أزري له حكم لقمان وصورة يوسف وملك سليمان وعدل أبي بكر فتى تفرق الأموال من جود كفه كما يفرق الشيطان من ليلة القدر فقال: قد حكمناك فإن شئت على قدرك وإن شئت على قدري.

قال: بل على قدري فأعطاه خمسين ألفاً.

فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير! قال: لم يك في ماله ما يفي بقدره.

قال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك وأمر بمثل ما أعطاه.

الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده: فعالي فعال المكثرين تجملاً ومالي كما قد تعلمين قليل فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل فقال له الرشيد: لله در أبيات تأتينا بها! ما أحسن أصولها وأبين فصولها وأقل فضولها! يا غلام أعطه عشرين ألفاً.

قال: والله لا أخذت منها درهماً واحداً.

قال: ولم قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خير من شعري.

قال: أعطوه أربعين ألفاً.

قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصيد لدراهم الملوك مني.

العتبي عن أبيه قال: قدم زيد بن منية من البصرة على معاوية - وهو أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة رضي الله عنها ومتولي تلك الحروب ورأس أهل البصرة وكانت ابنة يعلى عند عتيبة بن أبي سفيان - فلما دخل على معاوية شكاه دينة فقال: يا كعب أعطه ثلاثين ألفاً.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما ولى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى.

ثم قال له: الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر فقال: إني سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف ألبس أردية الليل مرة وأخوض في لجج السراب أخرى موقراً من حسن الظن بك وهارباً من دهر قطم ومن دين لزم.

بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين.

فقال عتبة: إن الدهر أعاركم غنى وخلطكم بنا ثم استرد ما أمكنه أخذه وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه وأنا رافع يدي ويدك بيد الله.

فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية.

إبراهيم الشيباني قال: قال عبد الله بن علي بن سويد بن منجوف: أعدم أبي إعدامة شديدة بالبصرة وأنفض فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلاً فبينا هو يشكو تعزر الأشياء عليه إذ عدا غلامه على كسوته وبلغته فذهب بهما.

فأتى أبا ساسان حزين بن المنذر الرقاشي فشكا إليه حاله.

فقال له: والله يا بن أخي ما عمك ممن يحمل محاملك ولكن لعلي أحتال لك: فدعا بكسوة حسنة فألبسني إياها ثم قال.

امض بنا.

فأتى باب والي خراسان فدخل وتركني بالباب فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال: أين علي بن سويد فدخلت إلى الوالي فإذا حزين على فراش جانبه.

فسلمت على الوالي فرد علي ثم أقبل عليه حزين فقال: أصلح الله الأمير هذا علي بن سويد بن منجوف سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها وأكثر الناس مالاً حاضراً بالبصرة وفي كل موضع ملكت به بكر بن وائل مالاً وقد تحمل بي إلى الأمير حاجة.

قال: هي مقضية.

قال: يسألك أن تمد يدك في ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت.

قال: لا والله لا أفعل ذلك به نحب أولى بزيادته.

قال: فقد أعفيناك من هذه إذ كرهتها فهو يسألك أن تحمله حوائجك بالبصرة.

قال: إن كانت حاجة فهو فيها ثقة ولكن أسألك أن تكلمه في قبول معونة منا فإننا نحب أن يرى على مثله من أثرنا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأقبل علي أبو ساسان فقال: يا أبا الحسن عزمتم عليك أن لا ترد علي عمك شيئاً أكرمك به.

فسكت.

فدعا لي بمال ودواب وكساو ورقيق.

فلما خرجت قلت: أبا ساسان لقد أوقفنتني على خطة ما وقفت على مثلها قط.

قال: اذهب إليك يا بن أخي فعمك أعلم بالناس منك.

إن الناس إن علموا لك غرارة من مال حشوا لك أخرى وإن يعلموك فقيراً تعدوا عليك مع فقرك.

إبراهيم الشيباني قال: ولدت لأبي دلامة ابنة ليلاً فأوقد السراج وجعل يخيط خريطة من شقق.

فلما اصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه وكان لا يحجب عنه.

فأنشده: لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقبل اقعدوا يا آل عباس ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج إلى السماء فأنتم أكرم الناس قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة! فما الذي غدا بك إلينا قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين.

قال: فهل قلت فيها شعراً قال: نعم قلت: فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم قال: فضحك المهدي.

وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه.

فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير.

فأمر أن تملأ مالا.

فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجاً.

فأخذ به وهو سكران فأتي به إلى المهدي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يحبس في بيت الدجاج فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج صاح: يا صاحب البيت.

فاستجاب له السجنان فقال: مالك يا عدو الله قال له: ويلك! من أدخلني مع الدجاج قال: أعمالك الخبيثة أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج.

قال له: ويلك! أو تقدر على أن توقد سراجاً وتجيئني بدواة وورق ولك سلمي هذا.

فأتاه بدواة وورق: فكتب أبو دلامة إلى المهدي: أمن صهباء صافية المزاج كأن شعاعها لهب السراج تهش لها النفوس وتشتتها إذا برزت تفرق في الزجاج وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج أقاد إلى السجون بغير ذنب كاني بعض عمال الخراج ولو معهم حبست لهان وجدي ولكنني حبست مع الدجاج دجاجات يطيف بهن ديك يناجي بالصياح إذا يناجي وقد كانت تخبرني ذنوبي بأني من عذابك غير ناجي على أني وإن لاقيت شراً خيرك بعد ذاك الشر راجي ثم قال: أوصلها إلى أمير المؤمنين.

فأوصلها إليه السجنان.

فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخله عليه فقال: أين بت الليلة أبا دلامة قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين.

قال: فما كنت تصنع قال: كنت أقاقي معهن حتى أصبحت.

فضحك المهدي وأمر بصلة جزيلة وخلع عليه كسوة شريفة.

وكتب أبو دلامة إلى عيسى موسى وهو والي الكوفة رقعة فيها هذه الأبيات: إذا جئت الأمير فقل سلام عليك ورحمة الله الرحيم فأما بعد ذلك فلي غريم من الأنصار قبح من غريم لزوم ما علمت لباب داري لزوم الكلب أصحاب الرقيم له مائة علي ونصف أخرى ونصف النصف في صك قديم أتوني بالعشيرة يسألوني ولم أك في العشيرة باللئيم قال: فبعث إليه بمائة ألف درهم.

ولقى أبو دلامة أبا دلف في مصاد وهو والي العراق فأخذ بعنان فرسه وأنشد: إن حلفت لئن رأيتك سالماً بقري العراق وأنت ذو وفر لتصلين على النبي محمد ولتملأن دراهماً حجري فقال: أما الصلاة على النبي فنعم صلى الله عليه وسلم وأما الدراهم فلما ترجع إن شاء الله تعالى.

قال له: جعلت فداك لا تفرق بينهما.

فاستلفها له وصبت في حجره حتى أثقلته.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ودخل أبو دلامة على المهدي فأنشده أبياتاً أعجب بها فقال له: سلني أبا دلامة واحتكم وأفرط ما شئت.

فقال: يا أمير المؤمنين كلب اصطاد به قال: قد أمرنا لك بكلب وهاهنا بلغت همتك وعلى هاهنا انتهت أمنيته قال لا تعجل علي يا أمير المؤمنين فإنه بقي علي.

قال: وما بقي عليك قال غلام يقود الكلب.

قال: وغلام يقود الكلب.

قال: وخادم يطبخ لنا الصيد.

قال: وخادم يطبخ الصيد.

قال ودار نسكنها.

قال: ودار تسكنها.

قال وجارية ناوي إليه.

قال: وجارية تأوي إليها.

قال: قد بقي الآن المعاش قال: قد أقطعناك ألفي جريب عامرة وألفي جريب عامرة.

قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين قال: التي لا تعمر.

قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد.

قال قد جعلتها كلها لك عامرة.

قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده قال: أما هذه فدعها.

قال: ما منعني شيئاً أيسر هي أم ولدي فقدأ منه.

ودخل أبو دلامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة - وكان قد أخذ أصحابه بلبسها وأخذهم بلبس دراريع عليها مكتوب بين كتفي الرجل: " [فسكفيهم الله وهو السميع العليم](#) " وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم - فدخل عليه أبو دلامة في ذلك الذي فقال له: كيف أصبت أبا دلامة قال: بشر حال يا أمير المؤمنين.

قال: كيف ذلك وبلك! قال: وما ظنك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهه في وسطه وسيفه في أسته وقد نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك وأمر لأبي دلامة بصلة.

وأوصل أبو دلامة إلى العباس بن المنصور رقعة فيها هذه الأبيات: قف بالديار
وأى الدهر لم تقف على منازل بين الظهر والنجم وما وقوفك في أطلال
منزلة لولا الذي استحدثت في قلبك الكلف إن كنت أصبحت مشغولاً بجارية
فلا وربك لا تشفيك من شغف ولا تزيدك إلا العل من أسف فهل لقلبك من
صبر على الأسف تخطها من جوارى المصر كاتبة قد طالما ضربت في اللام
والألف وطالما اختلفت صيفاً وشتاتية إلى معلمها باللوح والكتف حتى إذا ما
استوى الثديان وامتلأت منها وخيفت على الإسراف والقرف صينت ثلاث
سنين ما ترى أحداً كما تصان ببحر درة الصدف بينا الفتى يتمشى نحو
مسجده مبادراً لصلاة الصبح بالصدف حانت لن نظرة منها فأبصرها مطلة
بين سجفيها من الغرف فخر في الترب ما يدري غداً تئذ آخر منكشفاً أم غير
منكشف وجاءه القوم أفواجا بمائهم لينضحوا الرجل المغشى بالنطف
فوسوسوا بقران في مسامعه خوفاً من الجن والإنسان لم يخف شيئاً ولكنه
من حب جارية أمسى وأصبح من موت على شرف قالوا: لك الخير ما
أبصرت قلت لهم جنية أقصدتني من بني خلف أبصرت جارية محجوبة لهم
تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف فبت ألثمها طوراً وتلثمني طوراً
ونفعل بعض الشيء في اللحف بتنا كذلك حتى جاء صاحبها يبغى الدنانير
بالميزان ذي الكف وذاك حق على زند وكيف به والحق في طرف والعين
في طرف وبين ذاك شهود لم أبال بهم أكنت معترفاً أم غير معترف فإن
تصليني قضيت القوم حقهم وإن تقل لا فحق القوم في تلف فلما قرأ العباس
الأبيات أعجب بها واستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية.

واسم أبي دلامة: زند.

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحيى يوماً: إني استأذنت أمير
المؤمنين في الحجامة وأردت أن أخلو وأفر من أشغال الناس وأتوحد.

فهل أنت مساعدي قلت: جعلني الله فداك أنا أسعد الناس بمساعدتك وآنس
بمخالاتك.

قال: فكر إلي بكور الغراب.

قال: فأثيت عند الفجر الثاني فوجدت الشمعة بين يديه وهو قاعد ينتظرني
للميعاد.

قال: فصلينا ثم أفضنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة فأتى بحجام
وحجمنا في ساعة واحدة ثم قدم إلينا طعام فطعمنا.

فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق وظللنا بأسر يوم
مر بنا.

ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال: إذا جاء عبد الملك القهرماني فأذن له.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فنسي الحاجب وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنه وقدره وأدبه فإذن له الحاجب.

فما راعنا إلا طلعة عبد الملك.

فتغير لذلك جعفر بن يحيى وتنغص عليه ما كان فيه.

فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحال دعا غلامه دفع إليه سيفه وسواده وعمامته ثم جاء ووقف على باب المجلس وقال: اصنعوا بي ما صنعتم بأنفسكم.

قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة.

ودعا بالطعام فطعم ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً ثم قال: ليخفف عني فإن شيء ما شربته قط.

فتهلل وجه جعفر وفرح به وكان الرشيد قد عتب على عبد الملك بن صالح ووجد عليه.

فقال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك قد تفضلت وتطولت وأسعدت فهل من حاجة تبلغها مقدرتي أو تحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لما صنعت قال: بلى إن قلب أمير المؤمنين عاتب علي فسله الرضا عني.

قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين.

ثم قال: علي أربعة آلاف دينار.

قال حاضرة ولكن من مال أمير المؤمنين أحب إليك.

قال: وابني إبراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد أمير المؤمنين.

قال: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة.

قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه.

قال: قد ولاه أمير المؤمنين على مصر.

قال: وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدامه على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين.

فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم نلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك فعقد النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وكتب سجل إبراهيم على مصر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وخرج جعفر فأشار إلينا.

فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله.

فالتفت إلينا فقال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم معرفة آخره وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه ابتدأت القصة من أولها كما كانت فجعل يقول: أحسن والله! أحسن والله! فما صنعت فأخبرته بما سأله وبما أجبته به.

فجعل يقول في ذلك: أحسنت أحسنت! وخرج إبراهيم والياً على مصر.

قدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه فتلطف في رقعة أوصلها إليه وفيها أربعة أسطر: في السطر الأول: الضر والأمل أقدماني عليك.

والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.

السطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنة وشماتة للعدو.

والسطر الرابع: فإما نعم مثمرة وإما لا مريحة.

فلما قرأها وقع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده: فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني عن والد بعد والد فأمر له بعشر آلاف.

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري فأنشده: أخالد إن لم أزرك لخله سوى أنبي عاف وأنت جواد أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد فأمر له بخمسة آلاف درهم.

ومن قولنا في هذا المعنى.

ودخلت على أبي العباس القائد فأنشدته: الله جرد للندى والباس سيفاً فقلده أبا العباس ملك إذا استقبلت غرة وجهه قبض الرجاء إليك روح إلياس وجه عليه من الحياء سكينه ومحبة تجري مع الأنفاس وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس ثم سألته حاجة فيها بعض الغلظ.

فتلكاً فيها علي فأخذت سحابة من بين يديه فوقع فيها على البديهة: ما ضر عندك حاجتي ما ضرها عذراً إذا أعطيت نفسك قدرها حاشى لجودك أن يوعر حاجتي ثقتي سهلت لي وعرها لا يجتني حلو المحامد ماجد حتى يذوق من المطالب مرها فقضى الحاجة وسارع إليها.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأبطأ عبد الله بن يحيى عن الديوان فأرسل إليه المتوكل يتعرف خبره فكتب إليه: عليل من مكانين من الإفلاس والدين ففي هذين لي شغل وحسبي شغل هذين فبعث إليه بألف دينار.

عبد الله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى.

فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلاً قد أكثر في طلب الإذن وزعم أن له يداً يمت بها.

فقال: أدخله.

فدخل رجل جميل الوجه رث الهيئة.

فسلم فأحسن.

فأوماً إليه بالجلوس فجلس.

فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام قال له: ما حاجتك قال له: قد أعربت بها رثاة هيئتي وضعف طاقتي.

قال: أجل فما الذي تمت به قال: ولادة تقرب من ولادتك وجوار يدنو من جوارك واسم مشتق من اسمك.

قال: أما الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت وقد يوافق الاسم الاسم ولكن ما علمك بالولادة قال: أعلمتني أُمِّي أنها لما وضعتني قيل: إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمي الفضل فسمتني فضيلاً إعظاماً لاسمك أن تلحقني به.

فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين قال: خمس وثلاثون سنة.

قال: صدقت هذا المقدار الذي أتيت عليه فما فعلت أمك قال: توفيت رحمها الله.

قال: فما منعك من اللحوق بنا فيما مضى قال: لم أرض نفسي للقائك لأنها كانت في عامية وحادثة تقعدني عن لقاء الملوك.

قال: يا غلام أعطه لكل عام مضى من سنينه ألفاً وأعطه من كسوتنا ومراكبنا ما يصلح له.

فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

وكتب حبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي داود: اعلم وأنت المرء غير معلم وافهم - جعلت فداك - غير مفهم أن اصطناع العرف ما لم توله

مكتبة مشكاة الإسلامية

مستكملاً كالثوب ما لم يعلم والشكر - ما لم يستثر بصنعة كالخط تقرؤه وليس بمعجم وتفنني في القول إكثار وقد أسرجت في كرم الفعال فألجم.

وقال دعبل بن علي الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان: أيا ذا اليمينين والدعوتين ومن عنده العرف والنائل أترضى لمثلي أنى مقيم بياك مطرح حامل بتسليمة بين خمس وست إذا ضمك المجلس الحافل وما كنت أرضى بذا من هسواك أيرضى بذا رجل عاقل وإن ناب شغل ففي دون ما تدبره شغل شاغل عليك السلام فإنني امرؤ إذا ضاق بي بلد راحل الأصمعي قال: ونظر زياد إلى رجل من ضبة يأكل أكلاً قبيحاً وهو أقبح الناس وجهاً فقال: يا أبا ضبة كم عيالك قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً وهن أكل مني: فضحك زياد وقال: لله درك! ما أطف سؤالك! افرضوا له و لكل واحدة منهن مائة وخادماً وعجلوا له و لهن أرزاقهم.

فخرج الصبي وهو يقول: إذا كنت مرتاد السماحة والندی فناد زياداً أو أماً لزياد يجبك امرؤ يعطى على الحمد ما له إذا ضن بالمعروف كل جواد ومالي لا أثنى عليك وإنما طريفي من معروفكم وتلاذي ووقف دعبل ببعض أمراء الرقة فلما مثل بين يديه قال: أصلح الله الأمير إني لا أقول كما قال صاحب معن: أبا الحسنى وليس لها ضياء علي فمن يصدق ما أقول أم الأخرى ولست لها بأهل وأنت لكل مكرمة فعول ولكنني أقول: ماذا أقول إذا أتيت معاشرى صغراً يداي من الجواد المجزل إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل ضن الأمير بماله لم يجمل ولأنت أعلم بالمكارم والعلا من أن أقول فعلت ما لم تفعل فاختر لنفسك ما أقول فإنني لا بد مخبرهم وإن لم أسأل قال له: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

العتبي قال: دخل ابن عبدل على عبد الملك بن بشر بن مروان لما ولي الكوفة فقعد بين السماطين ثم قال: أيها الأمير إني رأيت رؤيا فإذن لي في قصصها.

فقال: قل.

فقال: أغفيت قبل الصبح يوم مسهد في ساعة ما كنت قبل أنامها فرأيت أنك رعتني بوليدة مفلوجة حسن علي قيامها وببدره حملت إلي وبغلة شهباء ناجية يصر لجامها قال له عبد الملك بن بشر بن مروان: كل شيء رأيت فهو عندي إلا البغلة فإنها دهماء فارهة.

امرأتي طالق ثلاثاً إن كنت رأيتها إلا دهماء.

إلا أني غلطت.

الشيبياني عن البطين الشاعر قال: قدمت على علي بن يحيى الأرميني فكتبت إليه: رأيت في النوم أني راكب فرساً ولي وصيف وفي كفي دنانير فقال قوم لهم حذق ومعرفة رأيت خيراً وللأحلام تعبير رؤياك فسر غداً عند الأمير تجد تعبير ذاك وفي الفال التباشير فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً

مكتبة مشكاة الإسلامية

وعند مثلك لي بالفعل تيسير قال: فوقع لي في أسفل كتابي: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

وقال بشار العقيلي: حتى متى ليت شعري يا بن يقطين أثنى عليك بما لا منك توليني أما علمت جزاك الله صالحه عني وزادك خيراً يا بن يقطين أني أريدك للدنيا وزينتها ولا أريدك يوم الدين للدين يا بن العلاء ويا بن القرم مرداس إنني لأطريك في أهلي وجلاسي أثنى عليك ولي حال تكذبني فيما أقول فاستحيي من الناس حتى إذا قيل ما أعطاك من صغد طأطأت من سوء حالي عندها رأسي الأخذ من الأمراء حدثنا جعفر بن محمد عن يزيد بن سمعان عن عبد الله بن ثور عن عبد الحميد ابن وهب عن أبي الخلال قال: سألت عثمان بن عفان عن جائزة السلطان فقال: لحم طري زكي.

جعفر بن محمد بن يحيى بن محمد العامري عن المعتمر عن عمران بن حدير قال: انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة فرأى الرجل عليه عمامة متخرفة.

فقال الرجل: عندنا عمائم ألا نبعث إليك بعمامة منها قال عكرمة: إنا لا نقبل من الناس شيئاً إنما نقبل من الأمراء.

وقال هشام بن حسان: رأيت على الحسن البصري خميصة لها أعلام يصلي فيها أهداها إليه مسلمة بن عبد الملك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس خفين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفتنة مثل المختار وغيره. ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه ديناً لزمه فأمر له بألف دينار عين.

فلما وضع يديه للقيام قال: يا أمير المؤمنين وزوجت ابني محمداً فصار علي فيه ألف دينار.

فلقد مات مالك وتركها زنته في مزوده.

وقال الأصمعي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: كان الربيع بن خثيم في ألف ومائة من العطاء فكلم فيه أبي معاوية فألحقه بألفين.

فلما حضر العطاء نودي الربيع بن خثيم فقبل له: في ألفين فقعد.

فينظروا على اسمه مكتوباً: كلم فيه ابن يحيى بن طلحة أمير المؤمنين فألحقه بألفين.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق كنت أريد أن تقبل مني هذه الجبة كسوة.

قال: إن كنت غنياً قبلتها منك وإن كنت فقيراً لم أقبلها منك.

قال: فإن غني.

قال: وكم مالك قال: ألفا دينار.

قال: فأنت تود أنها أربعة آلاف.

قال: نعم.

قال: فأنت فقير لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغب المعروف بزيادة الله بمال يقسم على الفقهاء فكان منهم من قبل ومنهم من لم يقبل.

فكان أسد بن الفرات فيمن قبل فجعل زيادة الله يغمص على كل من قبل منهم: فبلغ ذلك أسد ابن الفرات فقال: لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي.

وقد فخرت العرب بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتمولونه فقال ذو الرمة: وما كان مالي من تراث وراثته ولا دية كانت ولا كسب مأثم ولكن عطاء الله من كل رحلة إلى كل محجوب السرادق خضرم وقال آخر: يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخذه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك فقال: عطايا أمير المؤمنين ولم تكن مقسمة من هؤلاء وأولئك وما نلت حتى شبت إلا عطية تقوم بها مصرورة في ردائك التفضيل في العطاء تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن حذيم منهم.

فأعطاه ألف دينار وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا أعطيت فأغن.

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من العرب فأعطاهم وفضل رجلاً منهم.

فقيل له في ذلك.

كل القوم عيال عليه.

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين المؤلفة قلوبهم فأعطى الأفرع ابن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل وأعطى العباس ابن مرداس السلمي خمسين فشق ذلك عليه فقال أبياتاً فاتاه بها وأنشده

مكتبة مشكاة الإسلامية

إياها وهي: ولا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع وما كنت غير
امرئ منهم ومن تضع اليوم لم يرفع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لبلال: اقطع عني لسان العباس.

فأعطاه حتى أراضاه.

وقال صفوان بن أمية: لقد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما
خلق الله خلقاً أبغض إلي منه فما زال يعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحب
إلي منه.

وكان صفوان بن أمية من المؤلفة قلوبهم.

شكر النعمة سليمان التميمي قال: إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته.

وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقالوا: مكتوب في التوراة: اشكر لمن أنعم عليك وأنهم على من شكرك.

وقالوا: كفر النعمة يوجب زوالها وشكرها يوجب المزيد فيها.

وقالوا: من حمدك فقد وفاك حق نعمتك.

وجاء في الحديث: من نشر معروفاً فقد شكره ومن ستره فقد كفره.

وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعون مصر أسدى إلي يداً صالحة لشكرته
عليها.

وقالوا: إذا قصرت يدك عن المكافأة.

فليطل لسانك بالشكر.

وقالوا: ما نحل الله تعالى عباده شيئاً أقل من الشكر واعتبر ذلك بقول الله
عز وجل: " [وقليل من عبادي الشكور](#) ".

محمد بن صالح بن الواقي قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي فقلت:
إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً فقال: يا محمد هؤلاء يشكرون
معروفاً فكيف لنا بشكر وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنعم الله على
عبده نعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاكراً لأنعمه وما أنعم الله
على عبده نعمة فلم ير أثرها عليه إلا كتب: بغيض الله كافراً لأنعمه.

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النعم
وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا.

واعتبر ذلك لقول الله تعالى: " ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا ".

فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات زهير بن جناب: ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه يوماً فتدركه عواقب ما جنى يجزيك أو يثني عليك فإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس.

الخشني قال: أنشدني الرياشي: إذا أنا لم أشكر على الخير أهله ولم أذمم الجبس اللئيم المذمماً وأنشدني في الشكر: سأشكر عمراً ما تراخت منبتي أبادي لم تمن وإن هي جلت فتى غير محجوب الغنى عن صديقة ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت رأى خلتي من حيث يخفي مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت قلة الكرام في كثرة اللئام قال النبي صلى الله عليه وسلم: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة.

وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.

وقال الشاعر: تفاخرنى بكثرتها قريظ وقبلي والد الحجل الصقور فإن أك في شراركم قليلاً فإنني في خياركم كثير بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقالات نزور وقال السموأل: تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها عن الكرام قليل وقال حبيب: ولقد تكون ولا كريم تناله حتى نخوض إليه ألف لئيم قال ابن أبي حازم: وقالوا لو مدحت فتى كريماً فقلت وكيف لي بفتى كريم بلوت ومر بي خمسون حولاً حسبك بالمجرب من عليم فلا أحد يعد ليوم خير ولا أحد يعود على عديم وقال دعبل: ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم والله يعلم أني لم أقل فندا إن لأغلق عيني ثم أفتحها على كثير ولكن ما أرى أحد وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول حبيب الطائي: إن الجياد كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا لا يدهمك من دهمائهم عجب فإن جلهم أو كلهم بقر وكلما أضحت الأخطار بينهم هلكتي تبين من أضحت له خطر قال كسرى: أي شيء أضرت فأجمعوا على الفقر.

فقال كسرى: الشح أضرت منه لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع.

من جاد أولاً وذن آخراً نزل أعرابي برجل من أهل البصرة فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك.

فقال الأعرابي: تسرى فلما حاسب المرء نفسه رأى أنه لا يستقر له السرو وكان يزيد بن منصور يجري لبشار العقيلي وظيفه في كل شهر ثم قطعها عنه فقال: أبا خالد ما زلت سابح غمرة صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطئ

مكتبة مشكاة الإسلامية

جريت زماناً سابقاً ثم لم تزل تأخر حتى جئت تقطو مع القايطي كسنور عبد الله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط وقال مسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد: أبا حسن قد كنت قدمت نعمة وألحقت شكراً ثم أمسكت وانيا فلا ضير لم تلحقك مني ملامة أسأت بنا عوداً وأحسنيت باديا فأقسم لا أجزيك بالسوء مثله كفى بالذي جازيتني لك جازياً يا سوءة يكبر الشيطان إن ذكرت منها العجائب جاءت من سليمانا لا تعجبين يخير زل عن يده فالكوكب النحاس يسقي الأرض أحياناً من صن أولاً ثم جاد آخراً قدم الحارث بن خالد المخزومي على عبد الملك فلم يصله فرجع وقال فيه: صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها حبست عليك النفس حتى كأنما بكفيك يجري بؤسها ونعيمها فبلغ قوله عبد الملك فأرسل إليه فردده وقال: رأيت عليك غضاضة من مقامك بيابي قال: لا ولكنني اشتقت إلى أهلي ووطني ووجدت فضلاً من القول فقلت وعلي دين لزمني.

قال: وكم دينك قال: ثلاثون ألفاً.

قال: فقضاء دينك أحب إليك أم ولاية مكة قال: بل ولاية مكة.

فولاه إياها.

وقدم الحطيئة المدينة فوق إلى عتبية بن النهاس العجلي فقال: أعطني.

فقال: مالك عند فأعطيكه وما في مالي فضل عن عيالي فأعود به عليك.

فخرج عنه مغضباً.

وعرفه به جلساؤه فأمر برده ثم قال له: يا هذا إنك وقفت إلينا فلم تستأنس ولم تسلم وكتمتنا نفسك كأنك الحطيئة قال: هو ذلك.

قال: اجلس فلك عندما كل ما تحب.

فجلس فقال له: من أشعر الناس قال: الذي يقول: من يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم يعني زهيراً: قال: ثم من قال: الذي يقول: من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب يعني عبداً.

قال: ثم من قال: أنا.

فقال لوكيله: خذ بيد هذا فامض به إلى السوق فلا يشيرن إلى شيء إلا اشترته له.

فمضى معه إلى السوق فعرض عليه الخبز والقرز فلم يتلفت إلى شيء منه وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية.

فاشترى له منها حاجته ثم قال: أمسك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فإنه قد أمرني أن أبسط يدي بالنفقة قال: لا حاجة في أن يكون له على قومي يد أعظم من هذه ثم أنشأ يقول: سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلاً فسيان لا ذم عليك ولا حمد وأنت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطى وقد يعدى على النائل الوجد من مدح أميراً فخيه ألا قل لساري الليل لا تخش ضلة سعيد بن سلم نور كل بلاد لنا سيد أربى على كل سيد جواد حثا في وجه كل جواد قال: فتأخرت عنه قليلاً.

فهجاني فأبلغ فقال: لكل أخي مدح ثواب علمته وليس لمدح الباهلي ثواب مدحت سعيداً والمديح مهزة فكان كصفوان عليه تراب ومدح الحسن بن رجاء أبا دلف فلم يعطه شيئاً فقال: أبا دلف ما أكذب الناس كلهم سواي فإني في مديحك أكذب وقال آخر في مثل هذا المعنى: إني مدحتك كاذباً فأثبتني لما مدحتك ما يثاب الكاذب وقال آخر في مثل هذا المعنى: لئن أخطأت في مدحي ك ما أخطأت في منعي لقد أحللت حاجاتي بواد غير ذي زرع ومدح حبيب الطائي عياش بن لهيعة وقدم عليه بمصر واستسلفه مائتي مثقال.

فشاور فيها زوجته فقالت له: هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً فاعتل عليه واعتذر إليه ولم يقض عياش إنك للثيم وإني مذ صرت موضع مطلبي للثيم ثم هجاه حتى مات.

وهجاه بعد موته فقال فيه: لا سقيت أطلالك الدائرة ولا انقضت عثرتك العائرة يا أسد الموت تخلصته من بين فكّي أسد القاصرة ما حفرة وراك ملحودها بيرة الرمس ولا طاهره ومن قولنا في هذا المعنى وسألت بعض موالى السلطان إطلاق محبوس فتلكاً فيه فقلت: حاشا لمثلك أن يفك أسيراً أو أن يكون من الزمان مجيراً لبست قوافي الشعر فيك مدارعاً سوداً وصكت أوجهاً وصدوراً علا عطفت برحمة لما دعت وبلاداً عليك مدائحي وثبورا لو أن لؤمك عاد جوداً عشره ما كان عندك حاتم مذكورا قال: ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والي مصر فاستبطأه ربيعة.

فشخص عنه من مصر وقال: أراني - ولا كفران الله - راجعاً بخفي حنين من نوال ابن حاتم قال: نعم قال: فهل قلت غير هذا قال: لا والله قال: لترجعن بخفي حنين مملوءة مالاً.

فأمر بخلع نعليه وملئت له مالاً.

فقال فيه لما عزل عن مصر وولي يزيد بن أسيد السلمي مكانه: بكى أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا منها الأغر ابن حاتم وفيها يقول: لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم فهم الفتى الأزدي إنفاق ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم فلا يحسب التمتام أني هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم أجود أهل الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي وهرم بن سنان المري وكعب بن مامة الإيادي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ولكن المضروب به المثل: حاتم وحده وهو القائل لغلامه يسار وكان إذا اشتد البرد وقلب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضل الطريق ليلاً فيصمد نحوه فقال في ذلك: أوقد فإن الليل ليل قر والريح ما موقد ريح صر عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر ومر حاتم في سفره على عنزة وفيهم أسير.

فاستغاث بحاتم ولم يحضره فكاكه فاشتراه من العزيزين وأطلقه وأقام مكانه في القيد حتى أدى فداءه.

وقالوا: لم يكن حاتم ممسكاً شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإن كان لا يوجد بهما.

وقالت نوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء وراحت الإبل حدياً حدابير وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة وحلقت السنة المال وأيقنا بالهلاك.

فوالله إنا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين إذا تضاعى صبيتنا جوعاً عبد الله وعدي وسفانة فقام حاتم إلى الصبيين وقمت أنا إلى الصبية فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل وأقبل يعلنني بالحديث فعرفت ما يريد فتناومت فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد فقال: من هذا قالت: إلا عليك يا أبا عدي.

فقال.

أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم.

فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامة حولها رثالها.

فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمدية فخر ثم كشطه عن جلده ودفع المدية إلى المرأة فقال لها: شأنك.

فاجتمعنا على اللحم نشوي بالنار ثم جعل يمشي في الحي يأتهم بيتاً بيتاً فيقول: هبوا أيها القوم عليكم بالنار فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحية ينظر إلينا فلا والله إن ذاق منه مزعه وأنه لأحوج إليه منا فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر فأنشأ حاتم يقول: مهلاً نوار أقل اللوم والعذلا ولا تقولي لشيء فات ما فعلا ولا تقولي لمال كنت مهلكه مهلاً وإن كنت أعطى الإنس والخبلا يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سبلا ورثي حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدل عليه أضيافه وهو يقول: أقول لابني وقد سطلت يديه بكلبة لا يزال يلدها تدل ضيفي علي في غلس ال ليل إذا النار نام موقدها ذكرت طبئ عند عدي بن حاتم: أن رجلاً يعرف بابي الخيبري مر بقبر حاتم فنزل به وجعل ينادي: أبا عدي أقر أضيافك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فيقال له: مهلاً ما تكلم من رمة بالية فقال: إن طيناً يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قرأه كالمستهزئ.

فلما كان في السحر وثب أبو خبيري يصيح: وا راحلتاه! فقال له أصحابه: ما شأنك قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها.

فتأملوا راحلته فإذا هي لا تنبعث فقالوا: قد والله أقرأك.

فحروها وظلوا يأكلون من لحمها ثم أردفوه وانطلقوا.

فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره فقال: إن حاتمًا جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقرأك وأصحابك راحلتك وقال لي أبياتاً ردها علي حتى حفظتها وهي: أبا الخبيري وأنت امرؤ حسود العشيبة شتامها فماذا أردت إلى رمة بداوية صخب هامها أتبغي أذاها وإعسارها وحولك غوث وأنعامها وأنا لنطعم أضيافنا من الكوم بالسيف نعتامها وأمرني بدفع راحلة عوض راحلتك فخذها فأخذها أماوي قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنا عن طلابكم العذر أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر أماوي إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنه الزجر أماوي إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً حل في مالي النذر أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر أماوي إن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء لدي ولا خمر تري أن ما أنفقت لم يك ضرني وأن يدي مما بخلت به صفر إذا أنا دلاني الذين يلونني بمظلمة لج جوانبها غير وراحو سراعاً ينفضون أكفهم يقولون قد أدمى أطافرنا الحفر أماوي إن المال مال بذلته فأوله سكر وآخره ذكر وقد يعلم الأرقام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر فإن وجدي رب واحد أمه أجرت فلا قتل عليه ولا أسر وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه: متى تلاق على علاته هرمًا تلق السماحة في خلق وفي خلق وكان سنان أبو هرم سيد غطفان وماتت أمه وهي حامل به وقالت: إذا أنا مت فشقوا بطني فإن سيد غطفان فيه.

فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سناناً.

وفي بني سنان يقول زهير: قوم أبوهم سنان حين تنبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزءون بهاليل إذا قصدوا محسدون على كان من نعم لا ينزع الله منهم ما له حسدوا وقال زهير في هرم بن سنان: وأبيض فياض يده غمامة علي معتفيه ما تغب نوائله تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله أخور ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله أخذ الحسن بن هانئ هذا المعنى فقال: وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته: إليك أعملتها فتلا مرافقها شهرين يجهض من أرحامها العلق حتى دفن إلى حلو شمائله كالغيث ينبت في آثاره الورق من أهل بيت برى ذو العرش فضلهم بيني لهم في جنان الخلد مرتفق المطعمون إذا ما أزمة أزمتم والطيبون ثياباً كلما عرقوا كان آخرهم في الجود أولهم إن الشمائل

مكتبة مشكاة الإسلامية

والأخلاق تتفق إن قامروا أو فاحروا فحروا أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا تنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا كما تنوفس عند الباعة الورق وقال فيهم أيضاً: وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل على مكثريهم حق من يعتفيهم وعند المقلين السماحة والبذل فما كان من خير ألوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل وهل ينبت الخطل إلا وشيحه وتغرس إلا في منابتها النخل وله يقول حبيب: يجود بالنفس إن صن البخيل بها والجود بالنفس أقص غاية الجود وله ولحاتم الطائي يقول: كعب وحاتم اللدان تقسما خطط العلا من طارف وتليد هذا الذي خلف السجاب ومات ذا في المجد ميتة خضرم صنيدي إلا يكن فيها الشهيد فقومه لا يسمحون به بألف شهيد أجواد أهل الإسلام وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلاً في عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز وعبيد الله بن أبي بكره مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسلم بن زيادة وعبيد الله بن معمر القرشي ثم التمي وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي وله يقول الشاعر يرثيه ومات بسجستان وهو وال عليها: نصر الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد وهم: عتاب بن ورقاء الرياحي وأسماء بن خارجة الفزاري وعكرمة بن ربعي الفياض.

جود عبيد الله بن عباس أنه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطرق وأول من حيا على طعامه وأول وفي السنة الشهباء أطعمت حامضاً وحلوا ولحمًا تامكا وممزعا وأنت ربيع لليتامى وعصمة إذ المحل من جو السماء تطلعا أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعاً ومن جوده: أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال: يا بن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها.

فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه ثم قال له: ما يدك عندنا قال رأيتك واقفاً بزمزم وعلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظلمت بك بطرف كسائي حتى شربت قال: إني لأذكر ذلك وإنه يتردد بين خاطري وفكري ثم قال لقيمه: ما عندك قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال فادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا.

فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ثم شفعه بك وبأبيك.

ومن جوده أيضاً: أن معاوية حبس عن الحسين بن علي صلته حتى ضاقت عليه حاله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقيل له: لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله فإن قد قدم بنحو من ألف ألف درهم.

فقال الحسين: وأين تقع ألف ألف من عبيد الله فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر.

ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم.

فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان من أرق الناس قلباً وألينهم عطفاً انهملت عيناه ثم قال: ويلك يا معاوية مما اجترحت يداك من الإثم أصبحت حين لين المهادر رفيع العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال لقهرمانه: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فض وذهب وثوب ودابة وأخبره أنني شاطرته مالي فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر فقال له القيم: فهذه المؤمن التي عليك من أين تقوم بها قال: إذا بلغنا ذلك دلتك على أمر يقيم حالك.

فلما أتى الرسول برسائله إلى الحسين قال: إنا الله حملت والله على ابن عمي وما حسبته يتسع لنا بهذا كله فأخذ الشطر من ماله.

وهو أول من فعل ذلك في الإسلام.

ومن جوده: أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حلاً كثيرة ومسكاً وأنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها فقال: هل في نفسك منها شيء قال: نعم والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام فضحك عبيد الله وقال: فشأنك بها فهي لك.

قال: جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد علي.

قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلاً.

فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم ولو ددت أنني لا أموت حتى أراك مكانه - يعني معاوية - فظن عبيد الله أنها مكيدة منه قال: دع عنك هذا الكلام فإننا قوم نفي بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا.

ومن جوده أيضاً: أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له: تصدق فإني نبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه فقال له: وأين أنا من عبيد الله قال أين أنت منه في الحسب أم كثرة المال قال: فيهما قال: أما الحسب في الرجل فمروءته وفعله وإذا شئت فعلت وإذا فعلت كنت حسيباً فأعطاه ألفي درهم واعتذر له من ضيق الحال فقال له السائل: إن لم تكن عبد الله بن عباس فانت خير منه وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس فأعطاه ألفاً أخرى.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال السائل: هذه هزة كريم حسيب والله لقد نقرت حبة قلبي فأفرغتها في قلبك فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضاً: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ولد لي في هذه الليلة مولود وإني سميته باسمك تبركاً مني به وإن أمه ماتت.

فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة وأجزل لك الأجر على المصيبة ثم دعا بوكيله فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة.

قال الأنصاري: لو سبقت جاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً ولكنه سبقك فصرت له تالياً وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده وكل كرمك أكثر من وابله.

جود عبد الله بن جعفر ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمار دخل على نخاس يعرض قياناً له فعلق واحدة منهن فشهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومجاهد يعذلونه فكان جوابه أن قال: يلومني فيك أقوام أجالسهم فما أبالي أطار اللوم أم وقعا فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواربه أن تزينها وتحليها ففعلت.

ويبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمار زارنا! فأخبر الشيخ فاتاه مسلماً.

فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال: ما فعل حب فلانة قال: في اللحم والدم والمخ والعصب.

قال: أتعرفها لو رأيتها قال: لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمر بها عبد الله أن تخرج إليه وقال له: إنما اشتريتها لك ووالله ما دنوت منها فشأنك بها مباركاً لك فيها.

فلما ولى قال يا غلام احمل معه مائة ألف درهم ينعم بها معها.

قال: فبكى عبد الرحمن فرحاً وقال: يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحداً قبلكم من صلب آدم فتهنئكم هذه النعمة وبورك لكم فيها.

ومن جوده أيضاً: أنه أعطى امرأة سألته مالاً عظيماً.

فقيل له: إنها لا تعرفك.

وكان يرضيها اليسير.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أَرْضَى بالكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص ومن جود سعيد بن العاص: أنه مرض وهو بالشام فعاده معاوية ومعه شرحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المري ويزيد بن شجرة الرهاوي فلما نظر سعيد معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظاماً لمعاوية فقال له معاوية: أقسمت عليك أبا عثمان أن لا تتحرك فقد ضعفت بالعلة.

فسقط فتبادر معاوية نحوه حتى حنا عليه وأخذه بيده فأقعدته على فراشه وقعد معه وجعل يسأله عن علته ومنامه وغذائه ويصف له ما ينبغي أن يتوقاه وأطال القعود معه.

فلما خرج التفت إلى شرحبيل بن السمط ويزيد بن شجرة فقال: هل رأيتما خلا في مال أبي عثمان فقالا: ما رأينا شيئاً ننكره.

فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول قال: رأيت.

قال: وما ذاك قال: رأيت على حشمه ومواليه ثياباً وسخة ورأيت صحن داره غير مكنوس ورأيت التجار يخاصمون قهرمانه.

قال: صدقت كل ذلك قد رأيت فوجه إليه مع مسلم ثلاثمائة ألف.

فسبق رسول يبشره بها ويخبره بما كان فغضب سعيد وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسن فأساء وتأول فأخطأ.

فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركته اتسخ ثوبه وأما كنس الدار فليست أخلاقنا أخلاق من جعل داره مرآته وتزينه لبسه ومعروفه عطره ثم لا يبالي بمن مات هزلاً من ذي لحمة أو حرمة.

وأما منازعة التجارة قهرماني فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بداً من أن يكون ظالماً أو مظلوماً وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين فوصلته كل ذي رحم قاطعة وهنأته كرامته المنعم بها عليه وقد قبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف ولشرحبيل بن السمط بمثلها ويزيد بن شجرة بمثلها وفي سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه معولنا.

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه.

فقال: صدق ابن عمي فيما قال وأخطأت فيما انتهيت إليه فاجعل نصيبك من المال لروح بن زباع عقوبة لك فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها كما أنه فعل خيراً كوفئ عليه.

ومن جوده أيضاً: أن معاوية كان يداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة فكان مروان يقارضه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك - يعني مروان - قال: تركته منفذاً لأمرِك مصححاً لعملك.

قال معاوية: إنه كصاحب الخبزة كفى إنصاجها فأكلها.

قال: كلا يا أمير المؤمنين إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا.

ولا يحصدون إلى ما زرعوا.

قال: فما الذي باعد بينك وبينه قال: خفته على شرفي وخافني على مثله.

قال: فأني شيء كان له عندك قال: أسوءه حاراً وأسره غائباً.

قال: يا أبا عثمان تركتنا في هذه الحروب.

قال: حملت الثقل وكفيت الحزم.

قال: فما أبطأ بك قال: غناك عني أبطأني عنك.

وكنت قريباً لو دعوت لأجيناك ولو أمرت لأطعناك.

قال: ذلك ظننا بك.

فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يا أهل الشام هؤلاء قومي وهذا كلامهم.

ثم قال: أخبرني عن مالك فقد نبئت أنك تتجر فيه.

قال: يا أمير المؤمنين لنا مال يخرج لنا منه فضل فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته وإن كان كثيراً فكذلك غير أنا لا ندخر منه شيئاً عن معسر ولا طالب ولا مستحمل ولا نستأثر منه بفلذة لحم ولا مزعة شحم.

قال: فكم يدوم لك هذا قال: من السنة نصفها.

قال: فما تصنع باقيها قال: نجد من يسلفنا ويسارع إلى معاملتنا.

قال: ما أحد أحوج إلى أن يصلح من شأنه منك.

قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين ولو زدت في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال.

فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم وقال: اشتر بها ضيعة تعينك على مروءتك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال سعيد: بل أشتري بها حمداً وذكرًا باقياً أطعم بها الجائع وأزوج بها الأيم وأنك بها العاني وأواسي بها الصديق وأصلح بها حال الجار.

فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم.

فقال معاوية: ما فضيلة بعد الإيمان بالله هي أرفع في الذكر ولا أنبه في الشرف من الجود وحسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته.

ومن جوده أيضاً ما حكاه الأصمعي قال: كان سعيد بن العاص يسمر معه سماره إلى أن ينقضي حين من الليل فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم.

فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتك يا فتى فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم فأمر له بها.

وكان إطفأؤه للشمعة أكثر من عطائه.

جود عبيد الله بن أبي بكره ومن جود عبيد الله بن أبي بكره: أنه أدلى إليه رجل بحرمة فأمر له بمائة ألف درهم.

فقال: أصلحك الله ما وصلني أحد بمثلها قط.

ولقد قطعت لساني عن شكر غيرك وما رأيت الدنيا في يد أحد أحسن منها في يدك ولولا أنت لم تبق لها بهجة إلا أظلمت ولا نور إلا جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي ومن جود عبيد الله بن معمر القرشي: أن رجلاً أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقته في جميع ذلك ثم إن الدهر قعد بسيدها ومال عليه.

وقدم عبيد الله بن معمر البصرة من بعض وجوه فقالت لسيدها: إني أريد أن أذكر لك شيئاً أستحي منه إذ فيه جفاء مني غير أن يسهل ذلك علي ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك وما أخافه عليك من الاحتياج وضيق الحال وهذا عبيد الله بن معمر قدم البصرة وقد علمت شرفه وفضله وسعة كفه وجود نفسه فلو أذنت لي فأصلحت من شأنني ثم تقدمت بي إليه وعرضتني عليه هدية رجوت أن يأتيك من مكافأته ما يقيلك الله به وبنهضك إن شاء الله.

قال فبكى وجداً عليها وجزعاً لفراقها منه ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبداً.

ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدي عبيد الله فقال: أعزك الله هذه جارية ربيتها ورضيت بها لك فاقبلها مني هدية.

فقال: مثلي لا يستهدي من ملك فهل لك في بيعها فأجزل لك الثمن عليها حتى ترضى قال: الذي تراه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: يقنعك مني عشرة بدر في كل بكرة عشرة آلاف درهم قال: والله يا سيدي ما امتد أمني إلى عشر ما ذكرت ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور.

فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه وقال للجارية: ادخلي الحجاب.

فقال سيدها: أعزك الله لو أذنت لي في وداعها قال: نعم.

فوقفت وقام وقال لها وعيناه تدمعان: أبوح بحزن من فراقك موجع أقاسي به ليلاً يطيل تفكري ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري عليك سلام لا زيادة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر قال عبيد الله بن معمر: قد شئت ذلك فخذ جاريته وبارك الله لك في المال.

فذهب بجاريته وماله فعاد غنياً.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجود المنسوبون إليه وهم أحد عشر رجلاً كما ذكرنا وسمينا وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد قد شهروا بالجود وعرفوا بالكرم وحمدت أفعالهم.

وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد الحكم بن حنطب قيل لنصيب بن رباح: خرف شعرك أبا محجن قال: لا ولكن خرف الكرم لقد رأيتني ومدحت بن حنطب فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابي الحكم بن حنطب فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الأعرابي فقال: ما يبكيك يا أعرابي لعلك استقللت ما أعطيناك قال: لا والله ولكني أبكي لما تأمل الأرض منك ثم أنشأ يقول: وكأن آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يجود بالحبوب ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء العتبي قال: أخبرني رجل من أهل منبج قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا.

قال: كيف أغناكم وهو مملق قال: علمنا المكارم فعاد غنيا على فقيرنا.

معن بن زائدة وكان يقال فيه: حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج.

وأتاه رجل يسأله أن يحمله فقال: يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وغيراً وبغيراً وجارية وقال: لو عرفت مركوباً غير هؤلاء لأعطيتك.

العتبي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس أتاه مروان بن أبي حفصة أخذ بعضادتي الباب فأنشده شعره الذي قال فيه: فما أحجم الأعداء عنك بقية عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا له راحتان الحتف والجود

مكتبة مشكاة الإسلامية

فيهما أبى الله إلا أن يضر وينفعا يزيد بن المهلب وكان هشام بن حسان إذ ذكره قال: والله إن كانت السفن لتجري في جوده.

وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني داراً قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس.

ولما أتى يزيد بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب نال منه بعض جلسائه فقال له: مه! إن يزيد بن المهلب طلب جسيماً وركب عظيماً ومات كريماً.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده: صح في قيدك السماحة والجود وفك العناة والإفضال وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير: اغرم ديتك خمسين مرة.

قال: ليس عندي ما أغرم.

قال: والله لتغر من ديتك مائة مرة.

قال يزيد بن المهلب: أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين.

قال: اغرم فغرمها عنه مائة ألف.

العتبي قال: أخبرني عوانة قال: استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على المدينة وأمره بالغلظة على أهل الظنة فلما استخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم.

فاجتمعت القيسية في ذلك فتحملوا شطرها وضاقوا ذرعاً بالشرط الثاني ووافق ذلك استعمال سليمان يزيد بن المهلب على العراق.

فقال عمر بن هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلب فما لها أحد غيره.

فتحملوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هبيرة والقعقاع بن حبيب والهديل بن زفر بن الحارث وانتهوا إلى رواق يزيد.

قال يحيى بن أقتل - وكان حاجباً ليزيد بن المهلب وكان رجلاً من الأزدي -: فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرب ورحب ثم دعاء بالغداء فأتوا بطعام ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا.

فلما تغدوا تكلم عثمان بن حيان وكان لساناً مفوهاً وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير إن الوليد بن عبد الملك وجهني إلى المدينة عاملاً عليها وأمرني بالغلظة على أهل الظنة وصخذ عليهم وإن سليمان أغرمني غرماً والله ما يسعه مالي ولا تحمله طاقتي فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خف عليك وما بقي والله ثقيل علي.

ثم تكلم كل منهم بما حضره وقد اختصرنا كلامهم فقال يزيد بن المهلب: مرحباً بكم وأهلاً إن خير المال ما قضيت فيه الحقوق وحملت به المغارم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني وأيم الله لو علمت أن أحداً أملكاً
بحاجتكم مني لهديتكم إليه فاحتكموا وأكثروا.

فقال عثمان بن حيان: النصف أصلح الله الأمير.

قال: نعم وكرامة اغدوا على مالكم فخذوه.

فشكروا له وقاموا فخرجوا.

فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هبيرة: قبج الله رأيكم والله ما
يبالي يزيد أنصفها تحمل أم كلها فمن لكم بالنصف الباقي قال القوم: هذا
والله لرأي.

وسمع يزيد مناجاتهم فقال لحاجبه: انظر يا يحيى إن كان بقي على القوم
شيء فليرجعوا.

فرجعوا إليه.

وقالوا: أقلنا.

قال: قد فعلت.

قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلها فأنت أهلها وإن أبيت فما لها أحد غيرك.

قال: قد فعلت.

وغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان.

فقال: يا أمير المؤمنين أتاني عثمان بن حيان وأصحابه قال: أمسك في
المال قال: نعم.

قال سليمان: والله لآخذنه منهم.

قال يزيد: إني قد حملته.

قال: فأده.

قال يزيد: والله ما حملته إلا لأؤديه ثم قال: يا أمير المؤمنين إن هذه الحمالة
وإن عظم خطبها فحمدها والله أعظم منها ويدي مبسوطة بيدك.

فابسطها لسؤالها.

ثم غدا يزيد بالمال على الخزان فدفعه إليهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال.

فقال: وقت يمين سليمان احملا والله علينا من رأى كحمالة تحملها كبش العراق يزيد الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاة من بني ضنة فقال رجل منهم: والله ما ندري إذا ما فاتنا طلب إليك من الذي نتطلب ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسب فأصبر لعادتنا التي عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهب فأمر له بألف دينار.

فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال: مالي أرى أبوابهم مهجورة وكان بابك مجمع الأسواق حابوك أما هابوك أم شاموا الندى بيدك فاجتمعوا من الآفاق إني رأيتك للمكارم عاشقاً والمكرمات قليلة العشاق فأمر له بعشر آلاف درهم.

ومر يزيد بن المهلب في طريق البصرة بأعرابية فأهدت إليه عنزاً فقبلها وقال لابنه معاوية: معاوية: ما عندك من نفقة قال: ثمانمائة درهم.

قال: ادفعها إليها.

قال: إنها لا تعرفك وبرضيها اليسير.

قال: إن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وإن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

وكتب إليه رجل يستوصله فبعث إليه ثلاثين ألف درهم وكتب إليه: أما بعد فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً لا أكثرها امتناناً ولا أقلها تجبراً ولا أستثنيك عليها ثناءً ولا أقطع لك بها رجاء والسلام.

وكان ربيعة الرقي قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم الأزدي فلم يعطه شيئاً فخرج وهو يقول: أراني - ولا كفران الله - راجعاً بخفي حين من نوال ابن حاتم فسأل عنه يزيد فأخبر أنه قد خرج وقال كذا وأنشد البيت فأرسل في طلبه فأتى به فقال: كيف قلت فأنشده البيت.

فقال: شغلنا عنك.

ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجله وملئتا مالاً وقال: ارجع بها بدلاً من خفي حين.

فقال فيه لما عزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن أسيد.

بكى أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا منها الأغر ابن حاتم وفيها يقول: لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم فلا يحسب التتمام أني هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه فلما بلغ مصر وجده قد مات فقال فيه: فما كل ما يخشى الفتى بمصيبه ولا كل

مكتبة مشكاة الإسلامية

ما يرجو الفتى هو نائل وما كان بيني لو لقيتك سالماً وبين الغنى إلا ليال
 قلائل أبو دلف واسمه القاسم بن إسماعيل وفيه يقول علي بن جبلة: إنما
 الدنيا أبو دلف بين مبداه ومحتضره فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره
 وقال فيه رجل من شعراء الكوفة: الله أجرى من الأرزاق أكثرها علي العباد
 على كفى أبي دلف باري الرياح فأعطى وهي جارية حتى إذا وقفت أعطى
 ولم يقف ما خط لا كاتباه في صحيفته يوماً كما خط لا في سائر الصحف
 فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخر فقال له: يشبهه الرعد إذا الرعد رجف كأنه البرق إذا البرق
 خطل إن سار سار المجد أو حل وقف انظر بعينيك إلي أسنى الشرف هل
 ناله بقدره أو بكلف خلق من الناس سوى أبي دلف فأعطاه خمسين ألفاً.

أخبار معن بن زائدة

قال شراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف
 القاضي وكنت كثيراً ما أسايره إذ عرض له أعرابي من بني أسد فأنشده
 شعراً مدحه فيه وأفرط فقال له هارون: ألم أنهك عن مثل هذا في مدحك يا
 أبا بني أسد إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا: بنو مطر يوم اللقاء
 كأنهم أسود لها في غيل خفان أشبل هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم
 بين السماكين منزل بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية
 أول وما يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا هم
 القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا إن أعطوا أطابوا وأجزلوا هم القوم
 إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وأن أعطوا أطابوا وأجزلوا خالد بن عبد الله
 القسري وهو الذي يقول فيه الشاعر: بينما خالد بن عبد الله القسري جالس
 في مظلة له إذ نظر إلى أعرابي يخب به بغيره مقبلاً نحوه فقال لحاجبه: إذا
 قدم فلا تحجبه.

فلما قدم أدخله عليه فلم وقال: أصلحك الله قل ما بيدي فما أطيق العيال إذ
 كثروا أناخ دهر ألقى بكلكله فأرسلوني إليك وانتظروا فقال خالد: أرسلوك
 وانتظروا والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرهم وأمر له بجائزة عظيمة
 وكسوة شريفة.

عدي بن حاتم دخل عليه ابن دارة فقال: إني مدحتك قال: أمسك حتى آتيك
 بمالي ثم امدحني على حسبه فإني أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول لي ألف
 شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله
 فامدحني على حسب ما أخبرتك.

فقال: تحن قلوصى في معد وإنما تلاقي الربيع في ديار بني ثعل وأبقى
 الليالي من عدي بن حاتم حساماً كنصل السيف سل من الخلل أبوك جواد لا
 يشق غباره وأنت جواد ما تعذر بالعلل قال له عدي: أمسك لا يبلغ مالي أكثر
 من هذا.

▲ أصفاد الملوك على المدح

مكتبة مشكاة الإسلامية

سعيد بن مسلم الباهلي قال: قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه جبة حبرة ورداء يمان قد شدته على وسطه ثم ثناه على عاتقه قد عصها على فوديه وأرخی لها عذبة من خلفه.

فمثل بين يدي الرشيد.

فقال سعيد: يا أعرابي.

خذ في شرف أمير المؤمنين.

فاندفع في شعره.

فقال الرشيد: يا أعرابي أسمعك مستحسناً وأنكرك متهماً فقل لنا بيتين في هذين - يعني محمداً الأمين وعبد الله المأمون ابنيه وهما عن حفافيه - فقال: يا أمير المؤمنين حملتني على الوعر القردد ورجعتني عن السهل الجدد روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور القوافي على البديهة فأرودني تتألف لي نوافرها ويسكن روعي.

قال: قد فعلت: وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك.

قال: يا أمير المؤمنين نفست الخناق وسهلت ميدان السباق فأنشأ يقول:
بنيت لعبد الله ثم محمد ذرى قبة لإسلام فاخضر عودها هما طنباها برك الله
فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها فقال الرشيد: وأنت يا أعرابي برك الله
فيك فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك.

قال: الهيدة يا أمير المؤمنين.

فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع.

وقال مروان بن أبي حفصة: دخلت على المهدي فاستنشدني فأنشدته الشعر الذي أقول فيه: طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالتها قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها حتى انتهت إلى قولي: شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتم إبطالها أوتجدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها هل تطميسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها قال: وأنشدته أيضاً شعري الذي أقول فيه: يا بن الذي ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام الوحي بين بني البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام ما للنساء مع الرجال فرضية نزلت بذلك سورة الأنعام إنني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات ورائة الأعمام ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم وغررتهم بتوهم الأحلام قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدت المهدي الشعرين قال: وجب حقك على هؤلاء - وعنده جماعة من أهل البيت - قد أمرت لك بثلاثين ألفاً وفرضت على موسى خمسة آلاف وعلى هارون مثلها وعلى علي أربعة آلاف وعلى العباس كذا وعلى فلان كذا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فحسبت سبعين ألفاً.

قال: فأمر بالثلاثين ألفاً فأتي بها ثم قال: اغد على هؤلاء وخذ ما فرضت لك فأتيت موسى فأمر لي بخمسة آلاف وأتيت هارون فأمر لي بمثلها وأتيت علياً قال: قصر بي دون إخوتي فلن أقصر بنفسي فأمر لي بخمسة آلاف فأخذت من الباقيين سبعين ألفاً.

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان.

فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي وأنشأ يقول: وما أنا في حقي ولا في خصومتي بمهتضم حقي ولا قارع سني ولا مسلم مولاي من سوء ما جنى ولا خائف مولاي من سوء ما أجني وفضلى في الأقوال والشعر أنني أقول الذي أعني وأعرف ما أعني وأن فؤادي بين جنبي عالم بما أبصرت عيني وما سمعت أذني وإن فضلت مروان وابنه على الناس قد فضلت خير أب وابن العتبي قال: دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفي بن أم الحكم فقال له عبد الرحمن: أبا فراس دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى ينسى أوله وقل في بيتين يعلقان أفواه الرواة وأعطيكها عطية لم يعطكها أحد قبلي.

فغدا عليه وهو يقول: وأنت ابن بطحاوي قريش فإن تشأ تكن في ثقيف سيل ذي حذب غمر وأنت ابن فرع ماجد لعقيلة تلتقت له الشمس المضيئة بالبدر قال: أحسنت.

وأمر له بعشرة آلاف.

أبو سويد قال: أخبرني الكوفي قال: اعترض الفضل بن يحيى بن خالد في وقت خروجه إلى خراسان فتنى من التجار كان شخص إلى الكوفة فقطع به وأخذ جميع ما كان معه فأخذ بعنان دابة الفضل وقال: سأرسل بيتاً ليس في الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارب أقام الندى والبأس في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد قال فأمر له بمائة ألف درهم.

العتبي: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبيتاً ورفعها إلى زبيدة بنت جعفر يمتدح ابنها لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من العلاء والسودد إن الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمد فأمرت أن يملأ فمه دراً.

وقال الحسن بن رجاء الكاتب: قدم علينا علي بن جبلة إلى عسكر الحسن ابن سهل والمأمون هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل المعروفة ببوران ونحن إذ ذاك نجري على نيف وسبعين ألف فلاح وكان الحسن بن سهل مع المأمون يتصبح فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه.

فلما قدم علي ابن جبلة نزل بي فقلت له قد قوي شغل الأمير.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: إذاً لا أضيع معك.

قلت: أجل.

فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظهوره فأعلمته مكانه.

فقال: ألا ترى ما نحن فيه فقلت: لست بمشغول عن الأمر له.

فقال: يعطى عشرة آلاف إلى أن تتفرغ له.

فأعلمت علي بن جبلة.

فقال في كلمة له: أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً عطية كافأت حمدي ولم ترني ما شمت برقك حتى نلت ريقه كأنما كنت بالجدوى تبادرني عرض رجل لابن طوق وقد خرج متنزهاً في الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته فأخذها فإذا فيها: فقال: والله لأصدقن ظنك.

فأعطاه حتى أغناه.

عرض دعبل بن علي الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراساني وهو راكب في حراقة له في دجلة فأشار إليه برقعة فأمر بأخذها فإذا فيها: عجبت لحراقة بن الحسين كيف تسير ولا تغرق وبحران: من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق وأعجب من ذلك عيدانها إذا مسها كيف لا تورق فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها: طلعت قناتك بالسعادة فوقها معقودة بلواء ملك مقبل تهتز فوق طريدتين كأنما تهفو يقص لها جناحاً أجدل ربح البخيل على احتيال عرضه بندي يدبك ووجهك المتهلل لو كان يعلم أن نيلك عاجل ما فاض منه جدول في جدول فأمر له بخمسة آلاف.

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده: وأضرب للهام يوم الوعى وأطعم في الزمن الماحل أشار إليك جميع الأنام إشارة غرقى إلى ساحل فأمر له بخمسين ألف درهم.

أحمد بن مطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنت مدحت بها بعض الولاة وهي: له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم فيقطر يوم الجود من كفه الندى ويقطر يوم البؤس من كفه الدم فلو أن يوم البؤس لم يثن كفه عن الناس لم يصبح على الأرض محرم ولو أن يوم الجود فرغ كفه لبذل الندى ما كان بالأرض معدم فقال لي عبد الله: كم أعطاك قلت خمسة آلاف قال: فقبلتها قلت: نعم قال لي: أخطأت ما ثمن هذه إلا مائة ألف.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ودخل حماد عجرد على أبي جعفر بعد موت أبي العباس أخيه فأنشده: أتوك
بعد أبي العباس إذ بانا يا أكرم الناس أعراقاً وعيدانا لو مج عود على قوم
عصارته لمج عودك فينا الشهد والبانا فأمر له بخمسة آلاف درهم.

جاء موسى شهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان فقال: إن هنا
جارية تعشقتها وأبوا أن ينقصوني عن مائتي دينار.

فقال: بورك فيه.

فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد وأمه عائشة بنت طلحة الطلحات فدعا
بمطرف خز فبسطه وعقد في كل ركن من أركانه مائة دينار وقال لموسى:
خذ المطرف بما فيه فأخذه ثم غدا عليه فأنشده: أبا خالد أعني سعيد بن
خالد أبا العرف لا أعني ابن بنت سعيد عميد الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لم يرض الندى بعميد دعوه إنكم قد رقدتم وما هو عن
أحسابكم برقود العتبي: سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزبيري: وكل خليفة
وولي عهد لكم يا آل مروان الفداء إمارتكم شفاء حيث كانت وبعض إمارة
الأقوام داء فأنتم تحسنون إذا ملكتم وبعض القوم إن ملكوا أساءوا أجعلكم
وغيركم سواء وبينكم وبينهم الهواء هم أرض لأرجلكم وأنتم لأيديهم وأرجلهم
سواء فقلت له: كم أعطي عليها قال: عشرين ألفاً.

الأصمعي قال: حدثني رؤية قال: دخلت على أبي مسلم صاحب الدعوة فلما
أبصرني نادى: يا رؤية فأجبتة: لبيك إذ دعوتني لبيكا أحمد رباً ساقني إليك
الحمد والنعمة في يديكا قال: بل في يدي الله تعالى.

قلت له: وأنت إذا أنعمت أجدت.

ثم قلت: يأذن لي الأمير في الإنشاد قال: نعم فأنشدته: ما زال يأتي الملك
من أقطاره وعن يمينه وعن يساره مشمراً لا يصطلى بناره حتى أقر الملك
في قراره فقال: يا رؤية إنك أتيتنا وقد شف المال واستنفده الإنفاق وقد
أمرنا لك بجائزة وهي تافهة يسيرة ومنك العود وعلينا المعول والدهر أطرق
مستتب فلا تجعل بيننا وبينك الأسدة.

قال رؤية: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أكثر من الذي أفادني من
ماله.

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده: إذا استبق العلا سبقتهم يمينك
عفاً ثم صلت شمالك فقال هشام: بلغت غاية المدح فسلني.

فقال: يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة قال: لا بد
أن تفعل قال: لي ابنة نفضت عليها من سوادني فكسدها فلو أنفقتها أمير
المؤمنين بشيء يجعله لها قال: فأقطعها أرضاً وأمر لها بحلي وكسوة
فنفقت السوداء.

مكتبة مشكاة الإسلامية

الرباشي عن الأصمعي قال: مدح نصيب بن رباح عبيد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكسوة شريفة ورواحل موقرة براً وتمراً.

فقيل له: أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود قال: أما لئن كان عبداً إن شعره في لحر ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض وإنما أخذ مالاً يفنى وثياباً تبلى ورواحل تنضى وأعطى مديحاً يروى وثناءً يبقى.

وذكروا عن أبي النجم العجلي أنه أنشد هشاماً شعره الذي يقول فيه: الحمد لله الوهوب المجزل وهو من أجود شعره حتى انتهى إلي قوله: والشمس في الجو كعين الأحول وكان هشام أحول فأغضبه ذلك فأمر به فطرد.

فأمل أبو النجم رجعتَه فكان يأوي إلى المسجد.

فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه: ابغني رجلاً عربياً فصيحاً يحدثني وينشدني.

فطلب له ما سأل فوجد أبا النجم فأتى به.

فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك قال: حيث ألفاني رسولك.

قال: فمن كان أب النجم أبا مثواك قال: رجلين أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر.

قال: فما لك من الولد قال: ابنتان.

قال: أزوجتهما قال: زوجت إحداهما.

قال: فبم أوصيتها ليلة أهديتها قال: قلت لها: سبي الحماة وابهتي عليها وإن أبت فازدلفي إليها ثم اقرعي بالعود مرفقيها وجددي الخلف به عليها قال: هل أوصيتها بعد هذا قال: نعم: أوصيت من برة قلباً براً بالكلب خيراً والحماة شراً لا تسامي خنقاً لها وجراً والحي عميهم بشر طراً وإن كسوك ذهباً ودرا حتى يروا حلو الحياة مرا قال هشام: ما هكذا أوصى يعقوب ولده.

قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب ولا ولدي كولده.

قال: فما حال الأخرى قال: هي ظلامه التي أقول فيها: كان ظلامه أخت شيبان يتيمة ووالداها حيان الرأس قمل كله وصئبان وليس في الرجلين إلا خطيان فهي التي يذعر منها الشيطان قال هشام لحاجبه: ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها قال: هي عندي وهمس خمسمائة أبو عبيدة قال: حدثني يونس بن حبيب قال: لما استخلف مروان بن محمد دخل الشعراء يهنئونه بالخلافة فتقدم إليه طريح بن إسماعيل الثقفي خال الوليد بن يزيد فقال: الحمد لله الذي أنعم بك علي الإسلام إماماً وجعلك لأحكام دينه قوماً ولأمة محمد المصطفى جنة ونظاماً ثم أنشده شعره الذي يقول فيه: تسوء عداك في سداد ونعمة خلافتنا تسعين عاماً وأشهرها فقال مروان: كم الأشهر قال:

مكتبة مشكاة الإسلامية

وفاء المائة يا أمير المؤمنين تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة في النصره
والتمكين.

فأمر له بمائة ألف درهم.

ثم تقدم إليه ذو الرمة متحانياً كبرة قد انحلت عمامته منحدره على وجهه
فوقف يسويها.

ف قيل له: تقدم.

قال: إني أجل أمير المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحاً بلوثة عمامتي فقال
مروان: ما أملت أنه قد أبقت لنا منك مي ولا صيدح في كلامك إمتاعاً.

قال: بلى والله يا أمير المؤمنين أرد منه قراحاً والأحسن امتداحاً.

ثم تقدم فأنشد شعراً يقول فيه: فقلت لها سيري أمامك سيد تفرع من
مروان أو من محمد فقال له: ما فعلت مي فقال: طويت غدائرها ببرد بلى
ومحا الترب محاسن الخد فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد فقال: أما
ترى القوافي تتثال انثيالاً يعطى بكل من سمى من أبائي الربيع حاجب
المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت
أيامهم ونفدت نفقاتهم.

قال: أخرج إليهم فاقراً عليهم السلام وقل لهم: من مدحني منكم فلا يصفني
بالأسد وإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية وإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب
ولا بالجبل وإنما هو حجر أصم ولا بالبحر وإنما هو غطامط لجب ومن ليس
في شعره هذا فليدخل ومن كان في شعره هذا فليصرف فانصرفوا كلهم إلا
إبراهيم بن هرمة فإنه قال له: أنا له يا ربيع فأدخلني.

فأدخله فلما مثل بين يديه قال المنصور يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد
غيره هات يا بن هرمة.

فأنشده قصيدته التي يقول فيها: له لحظات عن حفاقي سريره إذا كرها فيها
عذاب ونائل لهم طينة بيضاء من آل هاشم إذا أسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أبي شيئاً مضى كالذي أبي وإذا قال إني فاعل فهو فاعل فقال: حسبك
هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم.

فقمت إليه وقبلت رأسه وأطرافه ثم خرجت فلما كدت أن أخفى على عينيه
سمعته يقول: يا إبراهيم.

فأقبلت إليه فرعاً فقلت: لبيك فداك أبي وأمي.

قال: احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها.

فقلت: بأبي وأمي أنت أحفظها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتم الجهبذ.

مكتبة مشكاة الإسلامية

هي النفس ما حملتها تتحمل وكان في يد المتوكل جوهرتان.

فأعطاه التي في يمينه فأطرق متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره.

فقال: مالك مفكراً إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى خذها لا بورك لك فيها.

فأنشأ يقول: بسر من رى إمام عدل تغرف من بحره البحار يرجى ويخشى لكل أمر كأنه جنة ونار الملك فيه وفي بنيه ما اختلف الليل والنهار يدها في الجود ضررتان عليه كلتاهما تغار لم تأت منه اليمين شيئاً إلا أتت مثله اليسار وقال آخر في الهول: إذا سألت الندى عن كل مكرمة لم تلف نسبتها إلا إلى الهول لو زاحم الشمس ألفى الشمس مظلمة أو زاحم الصم ألجأها إلى الميل أمضى من الدهر إن نابته نائبة وعند أعدائه أمضى من السيل فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هودة بن علي وابن ذي يزن فأمر له بعشر آلاف درهم.

ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته: إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفافها شفافها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها فقال لها: لا تقولي غلام ولكن قولي: همام.

ثم قال: أي النساء أحب إليك أنزلك عندها قال: ومن نساؤك أيها الأمير قال أم الجلاس بنت المهلب بنت سعيد بن العاص الأموية وهند بنت أسماء من خارجة الفزارية وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكية.

قالت: القيسية أحب إلي.

فلما كان من الغد دخلت عليه.

قال: يا غلام أعطها خمسمائة.

قالت: أيها الأمير أحسبها أدما.

قال قائل: إنما أمر لك بشاء قالت: الأمير أكرم من ذلك.

فجعلها إبلاً إنثاء على استحياء وإنما كان أمر لها بشاء أولاً.

▲ كتاب الجمانة في الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاة على مراتبهم ومنازلهم وما جروا عليه وما ندبوا إليه من الأخلاق الجميلة والأفعال الجزيلة ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخلفاء والملوك فإنها مقامات فضل ومشاهد حفل يتخير لها الكلام وتستهدب الألفاظ وتستجزل المعاني.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته ينزعون وعن رأيه يصدرن فهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة.

وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة فهو يوطد لقومه مرة ويتحفظ ممن أمامه أخرى أتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة أو مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة أم تظن القوم قدموه لفضل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الحذقة واللسن ومجمع الشعر والخطابة.

ألا ترى أن قيس بن عاصم المنقري لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال: هذا سيد الوب.

ولما توفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر: تحية من ألبسته منك نعمة إذا زار عن شحط بلادك سلما وما كان قيس هللكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما وفود العرب على كسرى ابن القطامي عن الكلبي قال: قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها.

فقال كسرى - وأخذته عزة الملك - يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت في حال من يقدم علي من وفود الأمم فوجدت الروم لها حظ في اجتمع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهاها ويقم جاهلها ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد وفروسيتها وهمتها وأن لها ملكاً يجمعها والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيمهم وتدبر أمرهم ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة مع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها محلثهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيرة الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ولهوها ولذتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها وشيد مملكته ومنعها من عدوها فجري لها ذلك إلي يومنا هذا وإن لها مع ذلك أثراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن.

ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من الذلة والقلّة والفاقة واللبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال النعمان: أصلح الله الملك حق لأمة منها أن يسموا فضلها ويعظم خطيئها وتعلو درجتها إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك وفي غير رد عليه ولا تكذيب له فإن أمني من غضبه نطقت به.

قال كسرى: قل فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحه عزها وما أكرمها الله به من ولاية أبائك وولايتك.

وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها.

قال كسرى: بماذا قال النعمان: بعزها ومنعتها وحسن رجوا وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائه.

فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجبنتهم السيوف وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترک المشوهة والروم المقشرة.

وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنياً فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أباً فأباً حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وربه فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له وبرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثة وطيب الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس.

ثم خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبلهم الجزع ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأما دينها وشريعته فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حراماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى.

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة فهي ولث وعقدة لا يحلها إلى خروج نفسه.

وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما خفر من جواره وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم وإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيره من الأزواج.

أما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحوماً وأرقها ألباناً وأقلها غائلة وأحلاها مضغة وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعه وإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمته وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوظف بالعسف.

وأما اليمن التي وصفها الملك وإنما أتى جد الملك الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً.

قد تقاصر عن إيوائه وصغر في عينه ما شيد من بناءه ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ولما هو أفضل.

ثم كساه كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيهم مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم بعث إلى أكتم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكرين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة ابن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو ابن معد يكر ب الزبيدي والحارث بن ظالم المري.

فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله فاقتص مقالات كسرى وما رد عليه.

فقالوا: أيها الملك وفقك الله ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حجته به! فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء أحب إلي مما سدد الله أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ولا تتخللوا له انخزال الخاضع الذليل وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظمة أخطاركم وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكتم بن صيفي لسني محله ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها وإنما دعاني إلى التقدمة بينكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه فلا يكون ذلك منكم فيجد في أداكم مطعناً فإنه ملك مترف وقادر مسلط.

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك كل رجل منهم حلة وعممه عمامة وختمه بياقوته وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهربة وفرس نجبية وكتب معهم كتاباً: أما بعد فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم وأجبتهم بما قد فهم بما أحببت أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته وحمت ما يليها بفضل قوتها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وأدابهم فليسمع الملك وليغمض عن جفاء إن ظهر من منطقتهم وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم.

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم.

فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرزبته ووجوه أهل مملكته فحضرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي

مكتبة مشكاة الإسلامية

وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكنم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكها وأفضل الملوك أعمها نفعاً وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها.

الصدق منجاة والكذب مهوأة والشر لجاجة والحزم مركب صعب والعجز مركب وطيء أفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر.

حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة.

إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.

من فسدت بطانته كان الغاص بالماء.

شر البلاد بلاد لا أمير بها.

شر الملوك من خافه البريء.

المرء يعجز لا المحالة.

أفضل الأولاد البررة.

خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة.

أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته.

يكفيك من الزاد ما بلغك المحل.

حسبك من شر سماعه.

الصمت حكم وقليل فاعله.

البلاغة الإيجاز.

من شدد نفر ومن تراخى تألف.

فتعجب كسرى من أكنم ثم قال: ويحك يا أكنم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه! قال أكنم: الصدق يبنى عند لا الوعيد قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى قال أكنم: رب قول أنفذ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال: وري زندك وعلت يدك وهيب سلطانك إن العرب أمة قد غلظت أكبادها واستحصدت مررتها ومنعت درتها وهي لك وامقة ما تألفتها مسترسلة ما لا ينتها سامعة ما سامحتها وهي

مكتبة مشكاة الإسلامية

العلقم مرارة والصاب غضاضة والعسل حلاوة والماء الزلال سلاسة نحن وفودها إليك وألسنتها لديك ذمتنا محفوظة وأحسابنا ممنوعة وعشائرننا فينا سامعة مطيعة وإن نؤب لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم محمدتنا وإن نذم لم نختص بالذم دونها.

قال كسرى: يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها.

من طال رشاؤه كثر متحه ومن ذهب ماله قل منحه.

تناقل الأقاويل يعرف به اللب وهذا مقام سيوجف بما ينطق فيه الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ونحن جيرانك الأدنون وأعوانك المعينون خيولنا جمّة وجيوشنا فخمة إن استنجدتنا فغير ربح وإن استطرقتنا فغير جهض وإن طلبتنا فغير غمض لا ننثني لذعر ولا نتنكر لدهر رمحننا طوال وأعمارنا قصار.

قال كسرى: أنفس عزيزة وأمة والله ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك وأنى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة.

قال كسرى: لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك.

قال الحارث: أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت فهي منية استقبلها وحياة استدبرها والعرب تعلم أني أبعث الحرب قدماً وأحسبها وهي تصرف بهم حتى إذا جاشت نارها وسعرت لظاها وكشفت عن ساقها جعلت مقادها رمحي وبرقها سيفي ورعدها زئيري ولم أقصر عن خوض خضاخضها حتى انغمس في غمرات لججها وأكون فلماً لفرساني إلى بحبوحة كبشها فأستمطرها دماً وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشع.

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو قالوا: فعاله أنطق من لسانه.

قال كسرى: ما رأيت كالليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال: أيها الملك نعم بالك ودام في السرور حالك إن عاقبة الكلام متدبرة وأشكال الأمور معتبرة وفي كثير ثقلة وفي قليل بلغة وفي الملك سورة العز.

وهذا موطن له ما بعده شرف فيه من شرف وخمل فيه من خمل.

مكتبة مشكاة الإسلامية

لم نأت لضيمك ولم نغد لسخطك ولم نتعرض لرفدك إن في أموالنا مرتقداً
 وعلى عزنا معتمداً إن أورينا ناراً أثقنا وإن أود دهر بنا اعتدنا إلا أنا مع هذا
 لجوارك حافظون ولمن رامك مكافحون حتى يحمد الصدر ويستطاب الخبر.

قال كسرى: ما يقوم قصد منطقتك بإفراطك ولا مدحك بدمك.

قال عمرو: كفى بقليل قصدي هادياً وبأيسر إفراطي مخبراً.

ولم يلم من عزفت نفسه عما يعلم ورضي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كل ما يعرف المرء ينطق به اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعاداً وأرشدته
 إرشاداً إن لكل منطلق فرصة ولكل جابة غصة وعي المنطق أشد عي
 السكوت وعتار القول أنكى من عثار الوعث وما فرصة المنطق عندنا إلا بما
 نهوي وغصة المنطق بما لا نهوي غير مستساغة وتركى ما أعلم من نفسي
 ويعلم من سمعني أنني له مطيق أحب إلي من تكلفى ما أتخوف ويتخوف
 منى وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل
 المعروف والإحسان أنفسنا بالطاقة لك باخعة ورقابنا بالنصيحة خاضعة
 وأيدينا لك بالوفاء رهينة.

قال له كسرى: نطقت بعقل وسموت بفضل وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن علانة العامري فقال: أنهجت لك سبل الرشاد وخضعت لك
 رقاب العباد إن للأقويل مناهج وللآراء موالج وللعويص مخارج وخير القول
 أصدقه وأفضل الطلب أنجحه إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا والوفادة قربتنا
 فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك بل لو قست كل رجل منهم
 وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في أبائه دنياً أنداداً وأكفاء كلهم إلى
 الفضل منسوب وبالشرف والسودد موصوف وبالرأي الفاضل والأدب النافذ
 معروف يحمي حماه ويروي نداماه ويذود أعداه لا تخمد ناره ولا يحترز منه
 جاره.

أبها الملك من يبيل العرب يعرف فضلهم فاصطنع العرب فإنها الجيال
 الرواسي عزاً والبحور طمياً والنجوم الزواهر شرفاً والحصى عدداً فإن
 تعرف لهم فضلهم يعزوك وإن تستصرخهم لا يخذلوك.

قال كسرى - وخشي أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه -: حسبك
 أبلغت ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المرشد
 وجنبك المصائب ووقاك مكروه الشصائب ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك ما لا
 يحنق صدرك ولا يزرع لنا حقداً في قلبك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

لم نقدم أيها الملك لمساماة ولم نتسب لمعاداة ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين وفي البأس غير مقصرين إن جورينا فغير مسبوقين وإن سومينا فغير مغلوبين.

قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمائه السواد.

قال قيس: أيها الملك ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به أو كخافر أخفر بذمته.

قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة.

قال قيس: أيها الملك ما أنا فيها خفر من ذمتي أحق بالزامي العار منك فيما قتل من رعيتك وانتهك من حرمتك.

قال كسرى: ذلك لأن من ائتمن الخانة واستنجد الأثمة ناله من الخطأ ما نالني وليس كل الناس سواء كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفي وبعد فينجز قال: وما أحقه بذلك وما رأيتَه إلا لي.

قال كسرى: القوم بزل فأفضلها أشدها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كثر فنون المنطق ولبس القول أعمى من حندس الظلماء وإنما الفخر في الفعال والعز في النجدة والسود مطاوعة القدرة وما أعلمك بقدرنا وأبصرك بفضلنا وبالبحري إن أدالت الأيام وثابت الأحلام أن تحدث لنا أموراً لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر على أمر يذكر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يذكر قال: ما لي علم بأكثر مما خبرني به مخبر.

قال كسرى: متى تكاهنت يا بن الطفيل قال: لست بكاهن ولكني الريح طاعن.

قال كسرى: فإن أذاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع قال ما هيبتي في قفائي بدون هيبتي في وجهي وما أذهب عيني عيث ولكن مطاوعة العيث.

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب وملاك النجعة الارتياح وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة وتوقف الخبرة خير من اعتساف الحيرة فاجتنب طاعتنا بلفظك واكتظم بادرنا بحلمك وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا فإننا أناس لم يوقس صفاتنا قراع مناقير من أراد لنا قضمًا ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضمًا.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال: إن من آفة المنطق الكذب ومن لؤم الأخلاق الملق وانقيادنا لك عن تصاف فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ولا للاعتماد عليه بحقيق ولكن الوفاء بالعهود وإحكام ولث العقود والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل.

قال كسرى: من أنت قال: الحارث بن ظالم قال: إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأن تكون أولى بالصدر وأقرب من الوزر.

قال الحارث: إن في الحق مغضبة والسرو التغافل ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة فلتشبه أفعالك مجلسك.

قال كسرى: هذا فتى قوم.

ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطاباً وكتبت فيه متكلموكم ولولا أنني أعلم أن الأدب لم يثقف فيه أودكم ولم يحكم أمركم وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتتلقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به وإنني لأكره أن أجه وفودي أو أخنق صدورهم والذي أحب هو إصلاح مداركم وتآلف شواذكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم وقد قبلت ما كان في منطقهم من صواب وصفح عما كان فيه من خلل فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا موازرتهم والتزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم وأحسنوا أديهم فإن في ذلك صلاح العامة.

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتبي عن أبيه: إن حاجب بن زرارة وفد على كسرى لما منع تميمياً من ريف العراق فاستأذن عليه فأوصل إليه: أسيد العرب أنت قال: لا قال: فسيد مضر قال: لا قال: فسيد بني أبيك أنت قال: لا.

ثم أذن له فلما دخل عليه قال له: من أنت قال: سيد العرب قال: أليس قد أوصلت إليك أسيد العرب فقلت لا حتى اقتصرت بك على بني أبيك فقلت لا قال له: أيها الملك لم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيد العرب قال كسرى: أه املئوا فاه دراً.

ثم قال: إنكم معشر العرب غدر فإن أذنت لكم أفستتم البلاد وأغرتم على العباد وأذيموني.

قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا قال: فمن لي بأن تفي أنت قال أرهناك قوسي.

فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا يفي! قال كسرى: ما كان ليسلمها لي لشيء أبداً فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومات حاجب بن زرارة فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه فقال له: فلما وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم وأسلم على يديه أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها فقالوا: يا رسول الله هلك قومك وأكلتهم الضيع يريدون الجوع - والعرب يسمون السنة الضيع والذئب.

قال جرير: من ساقه السنة الحصاء والذيب - فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فأحيوا وقد كان دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث عليهم سنين كسني يوسف.

▲ وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال: حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المري قال: قال أبو سفيان: أهديت لكسرى خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم وأدخلت عليه فكان وجهه وجهين من عظمه فألقى إلي مخدة كانت عنده فقلت: وا جوعاه! أهذه حظي من كسرى بن هرمز قال: فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمة إلا أعظمها حتى دفعت إلى خازن له فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب.

قال الأصمعي: فحدثت بهذا الحديث النوشجان الفارسي فقال: كانت وظيفة المخدة ألقاً أن الخازن اقتطع منها مائتين.

▲ وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال: وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر قال: فلقيت رجلاً ببعض الطريق فقال لي: أين تريد قلت: هذا الملك قال: فإنك إذا جئت متروك شهراً ثم تترك شهراً آخراً ثم عسى أن يأذن لك فإن أنت خلوت به وأعجبتته فأنت مصيب منه خيراً وإن رأيت أبا أمامة النابغة فاطغن فإنه لا شيء لك.

قال: فقدمت عليه ففعل بي ما قال: ثم خلوت به وأصبت مالاً كثيراً ونادمته.

فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القبة ويقول: أنام أم يسمح رب القبة يا أوهب الناس لعنس صلبه ضرابة بالمشفر الأذبة ذات نعاء في يديها جذبه فقال النعمان: أبو أمامة! ائذنوا له.

فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود ولم يكن لأحد من العرب بغير أسود غيره ولا يفتحل أحد فحلاً أسود.

فاستأذنه النابغة في الإنشاد فأذن له فأنشده قصيدته التي يقول فيها: فأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعاتها.

فما حسدت أحداً قط حسدي له في شعره وجزيل عطائه.

▲ وفود قريش على سيف بن ذي يزن بعد قتله الحبشة

مكتبة مشكاة الإسلامية

نعيم بن حماد قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفیان الثوري قال: قال ابن عباس: لما طفر سيف بن ذي يزن بالحبيشة وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها وتهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه.

فأتاه وفد قريش فيهم: عبد المطلب بن هاشم وأميه بن عبد شمس وأسد بن عبد العزى وعبد الله بن جدعان فقدموا عليه وهو في قصر له يقال غمدان - وله يقول أبو الصلت والد أميه بن أبي الصلت: ليطلب الثأر أمثال ابن ذي يزن ليج في البحر للأعداء أحوالا أني هرقل وقد شالت نعمته فلم يجد عنده القول الذي قالوا ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة من السنين لقد أبعدت إيغالا من مثل كسرى وبهرام الجنود له ومثل وهرز يوم الجيش إذ جالا له درهم من عصبة خرجوا ما إن رأينا لهم في الناس أمثالا صيدا حاجة بيضا خضارمة أسدا تريب في الغابات أشبالا أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد غادرت أوجههم في الأرض أفلالا اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا في رأس غمدان دارا منك محلالا ثم اطل بالمسك إذ شالت نعمتهم وأسبل اليوم في برديك إسبالا تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا فطلبوا الإذن عليه فإذن لهم فدخلوا فوجدوه متضمخا بالعنبر يلمع ويص المسك في مفرق رأسه وعليه بردان أخضران قد ائتزر بأحدهما وارثدى بالآخر وسيفه بين يديه والملوك عن يمينه وشماله وأبناء الملوك والمقاول.

فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له: قل فقال إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا باذجا شامخا وأنتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته ونبل أصله وبسق فرعه في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي به تخصب وملكها الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد سلفك خير سلف وأنت لنا بعدهم خير خلف ولن يهلك من أنت خلفه ولن يخمل من أنت سلفه.

نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا فنحن وفد التهنة لا وفود المرزئة.

قال: من أنت أيها المتكلم قال: أنا عبد المطلب بن هاشم قال: ابن أختنا قال: نعم.

فأدناه وقربه ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكاً ربحلا يعطى عطاء جزلا فذهبت مثلاً.

وكان أول ما تكلم به: قد سمع الملك مقالتك وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فأهل الشرف والنباهة أنتم ولكم القربى ما أقمتم والحباء إذا طعنتم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود وأجريت عليهم الأنزال فأقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف.

ثم انتبه إليهم انتباهة فدعا بعدد المطلب من بينهم فخلا به وأدنى مجلسه وقال: يا عبد المطلب إني مفوض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك كان لم أبح له به ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره: إني أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبتناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك يا أيها الملك من بر وسر وبشر ما هو فداك أهل الوبر زمراً بعد قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهمة بين كتفيه شامة كانت له الإمامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن.

لقد أبت بخير ما أب به أحد فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيدني في البشارة ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد ولدناه مراراً والله باعته جهاراً وجاعل له منا أنصاراً يعز بهم أوليائه ويذل بهم أعداءه ويفتح كرائم الأرض ويضرب بهم الناس عن عرض يخمد الأديان ويدحر الشيطان ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن قوله حكم وفصل وأمره حزم وعدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: طال عمرك ودام جدك وعز فخرك فهل الملك يسرني بأن يوضح فيه بعض الإيضاح فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطنب والعلامات والنصب إنك يا عبد المطلب لجده من غير كذب.

فخر عبد المطلب ساجداً.

قال ابن ذي يزن: ارفع رأسك تلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسيت شيئاً مما ذكرت لك قال عبد المطلب: أيها الملك كان لي ابن كنت له محباً وعليه حدياً مشفقاً فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها أمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بسلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ولولا أنني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مهاجر.

فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته وبيت نصرته ولولا أنني أتوقى عليه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنة أمره وأوطأت أقدام العرب عقبه ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبراً.

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال: إذا حال الحول فأبئني بما يكون من أمره.

فما حول الحول حتى مات ابن ذي يزن فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاذ ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبتي فإذا قالوا له: وما ذاك قال سيظهر بعد حين.

▲ وفود عبد المسيح على سطيح جرير بن حازم

عن عكرمة ابن عباس قال: لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم ارتج إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة فعظم ذلك على أهل مملكته فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة.

فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر فقال الموبذان: أيها الملك إنني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي قال له: وما رأيت قال: رأيت إبلاً صعباً تقوم خيلاً عرباً قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا قال: رأيت عظيماً فما عهدك في تأويلها قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان فبعث إليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال له: أيها الملك والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن جهز إلى خال لي بالشام يقال له سطيح قال: جهزوه فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر فناده فلم يجبه وكلمه فلم يرد عليه فقال عبد المسيح: أصم أم يسمع عطريف اليمن يا فاضل الخطة أعبت من ومن أتاك شيخ الحي من آل سنن أبيض فضفاض الرداء والبدن رسول قيل العجم يهوي للوثن لا يرعب الوعد ولا ريب الزمن فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح على جمل مشيح إلى سطيح وقد أوفى على الصريح بعثك ملك بني

مكتبة مشكاة الإسلامية

ساسان لإرتجاج الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبدان رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً قد اقتحمت في الواد وانتشرت في البلاد.

يا عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحب الهراوة وخدمت نار فارس فليست بابل للفرس مقاماً ولا الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات عدد سقوط الشرفات وكل ما هو آت آت.

ثم قال: إن كان ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوار دهارير منهم بنوا الصرح بهرام وإخوته والهرمزان وسابور وسابور فربما أصبحوا منهم بمنزلة يهاب صولهم الأسد المهاصير والناس أولاد علات فمن علموا أن قد أقل فمحقوق ومهجور والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور ثم أتى كسرى فأخبره فغمه ذلك.

ثم تعزى فقال: إلى من يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة.

▲ الوفود على رسول الله

وفود همدان على النبي صلى الله عليه وسلم قدم مالك بن نمط في وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه مقبلاً من تبوك فقال مالك بن نمط: يا رسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف وبام وشاكر. عهدهم لا ينقض. عن سنة ما حل ولا سوداء عنقفير ما أقام لعلع وما جرى اليعفور بصلع.

فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحفاف الرمل مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة يأكلون علافها ويرعون عفاها لنا من دفتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ولهم من الصدقة الثلث والناج والفصيل والفاضر الداخن والكبش الحوري وعليهم الصالغ والقارح.

▲ وفود النخع على النبي

قدم أبو عمرو النخعي على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنني رأيت في طريقي هذه رؤيا رأيت أتاناً تركتها في الحي ولدت جدياً أسفع أحوي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من أمة تركتها مصرّة حملاً قال: نعم تركت أمة لي أظنها قد حملت قال: فقد ولدت غلاماً وهو ابنك قال: فما له أسفع أحوي قال: ادن مني فدنا منه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال: هل بك برص تكتمه قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً ما رآه مخلوق ولا علم به قال: فهو ذلك.

قال: ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان قال: ذلك ملك العرب عاد إلى أفضل زيه وبهجته.

قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض قال: تلك بقية الدنيا.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو ورأيتها تقول: لظى لظى بصير وأعمى أطمعوني أكلكم أكلكم أهلكم وما لكم.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تلك فتنة في آخر الزمان: قال: وما الفتنة يا رسول الله قال: يقتل الناس إمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطباق الرأس - وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه - يحسب المسيء أنه محسن ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء.

▲ وفود كلب على النبي صلى الله عليه وسلم

قدم قطن بن حارثة العليمي في وفد كلب على النبي صلى الله عليه وسلم فذكر كلاماً فكتب هذا كتاب من محمد رسول الله لعماثر طلب وأحلافها ومن ظأره الإسلام من غيرها مع قطن بن حارثة العليمي بإقامة الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة لحقها في شدة عقدها ووفاء عهدتها بمحضر شهود من المسلمين: سعد بن عبادة وعبد الله بن أنيس ودحية بن خليفة الكلبي.

عليهم في الحمولة الراحية البساط الطوار في كل خمسين ناقة غير ذات عوار والحمولة المائرة لهم لآغية وفي الشوي الوري مسنة حامل أو حائل وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها مما أخرجت أرضها وفي العذي شطره بقيمة الأمين فلا تزداد عليهم وظيفة ولا يفرق يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله.

وكتب ثابت بن قيس بن شماس.

▲ وفود ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم

وفدت ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فكتب لهم كتاباً حين أسلموا: إن لهم ذمة الله وإن وإديهم حرام عضاهه وصيده وظلم فيه وإن ما كان لهم من دين إلى أجل فبلغ أجله فإنه لياط مبراً من الله ورسوله وإن ما كان لهم من دين في رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى رأسه ويلاط بعكاظ ولا يؤخر.

صلى الله عليه وسلم وفد ظبيان بن حداد في سراة مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

مكتبة مشكاة الإسلامية

والثناء على الله عز وجل بما هو أهله: الحمد لله الذي صدع الأرض بالنبات وفتق السماء بالرجع.

ثم قال: نحن قوم من سراة مذحج من يحابر بن مالك.

ثم قال: فتوقلت بنا القلاص من أعالي الحوف ورؤوس الهضاب ترفعها عر الربا وتخفضها بطنان الرفاق وتلحفها دياحي الدجى.

ثم قال: وسروات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان غرسوا وديانه وذلوا خشانه ورعوا قريانه.

ثم ذكر نوحاً حين خرج من السفينة بمن معه قال: فكان أكثر بنيه بناتا وأسرعهم نباتا عاد وثمود فرماهم الله بالدمالق وهم الذي خطوا مشاربها وأتوا جداولها وأحيوا غراسها ورفعوا عريشها.

ثم قال: وإن حمير ملكوا معاقل الأرض وقرارها وكهول الناس وأغمارها ورؤوس الملوك وقرارها فكان لهم البيضاء والسوداء وفارس الحمراء والجزية الصفراء فبطروا النعم واستحقوا النقم فضرب الله بعضهم ببعض.

ثم قال: وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر ففتحوا فيها البشرايع وبنوا فيها المصانع واتخذوا الدسائع ثم ترامت مذحج بأسنتها وتنزت بأعنتها فغلب العزيز أذلها وقتل الكثير أقلها.

ثم قال: وكان بنو عمرو بن جذيمة يخبطون عضيدها ويأكلون حصيدها ويرشحون خصيدها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خراء بعيضة ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق ولا لمسلم منها لحاق.

▲ وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد لقيط بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق.

قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا لانسلاخ رجب فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس ألا إني قد خبأت لكم صوتي من أربعة أيام لتسمعوا الآن ألا فهل من امرئ قد بعثه قومه - فقالوا: اعلم لنا ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - ألا ثم لعله أن يلهبه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضال ألا وإني مسئول هل بلغت ألا اسمعوا ألا اجلسوا.

فجلس الناس: وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم أني

مكتبة مشكاة الإسلامية

أبتغه سقطه فقال: صن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله.

وأشار بيده.

قلت: وما هي قال: علم اليمنية قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه وعلم ما في غد وما أنت طاعم غداً ولا تعلمه وعلم المني حين يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمونه وعلم الغيث يشرف عليكم أزليين مستنتين فيظل يضحك قد علم أن عونكم قريب - قال لقيط: قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً - وعلم يوم الساعة قلت: يا رسول الله إني أسألك عن حاجتي فلا تعجلني قال: سل عما شئت قال قلت: يا رسول الله علمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم فإننا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحداً من مذبح التي تدنو إليها وخشعتم التي توألينا وعشيرتنا التي نحن منها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلبثون ما لبثتم ثم توفى نبيكم ثم تلبثون حتى تبعث الصيحة فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين عند ربك فيصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد فيرسل ربك السماء بهضب من عند العرش فلعمر إلهك ما تدع ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلقه من قبل رأسه يستوي اليوم!

ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله.

فقلت: يا رسول الله كيف يجمعنا بعد ما قد تفرقنا الرياح والبلى والسباع قال: أنبئك بمثل ذلك في إله أشرفت على الأرض وهي مديرة بإيسة فقلت: لا تحيا هذه أبداً ثم أرسل ربك عليها السماء فلم تلبث إلا أياماً حتى أشرفت عليها وهي شربة واحدة.

ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء.

- قال ابن إسحاق: الأصواء: أعلام القبور.

ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعة وينظر إليكم.

قال: قلت: يا رسول الله كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه قال: أنبئك بمثل ذلك في إله الله الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما وبريانكم ساعة واحدة.

ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترونه من أن ترونهما وبريانكم لا تضارون في رؤيتهما.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: قلت: يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه قال: تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى منكم خافية فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء فينضح بها قلبكم فلعمر إلهك ما تخطئ وجه واحد منكم قطرة فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء وأما الكافر بتخطمه بمثل الحمم الأسود ثم ينصرف ببيكم ويتفرق على أثره الصالحون قال: فتسلكون جسراً من النار فيطأ أحدكم الجمر فيقول: حس فيقول ربك عز وجل: أو إنه فتطلعون على حوض الرسول لا يظماً والله ناهله فلعمر إلهك ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يظهره من الطوف والبول والأذى وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منهما أحداً.

قال: قلت: يا رسول الله فبم نبصر يومئذ قال: بمثل بصر ساعتك هذه وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال.

قال: قلت: يا رسول الله فبم نجزي من سيئاتنا وحسناتنا قال: الحسنه بعشر أمثالها والسيئة بمثلها أو يعفو.

قال: قلت: يا رسول الله فما الجنة وما النار قال: لعمر إلهك إن للنار سبعة أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً وإن للجنة لثمانية أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً.

قال: قلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة قال: على أنها من غسل مصفى وأنها من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنها من لبن لم يتغير طعمه وماء غير أسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله معه وأزواج مطهرة.

قال: قلت: يا رسول الله أولنا فيها أزواج أو منهن صالحات قال: الصالحات للصالحين تلذون بهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذدن بكم غير أن لا توالد.

قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتھون إليه.

فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: قلت: يا رسول الله علام أبايعاك قال: فبسط إلي يده وقال: على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وزبال الشرك فلا تشرك بالله إلهاً غيره.

قال: فقلت: وإن لنا ما بين المشرق والمغرب فقبض النبي صلى الله عليه وسلم يده وظن أن أشرت عليه شئاً لا يعطينيه قال: قلت نحل منها حيث شئنا ولا يجزي عن امرئ إلا نفسه فبسط إلي يده وفود قبيلة على النبي صلى الله عليه وسلم خرجت قبيلة بنه مخرمة التميمية تبغي الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عم بناتها وهو أثوب بن أزهري قد انتزع منها بناتها فبكت جويرية منهن حديباء قد أخذتها الفرصة عليها سبيج من صوف فرحمتها فذهبت بها.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فبينما هما ترتكان الجمل إذا انتفجت منه الأرنب.

فقال الحديداء: الفصية والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب ثم سنج الثعب فسمته اسماً غير الثعلب نسيه ناقل الحديث.

ثم قالت فيه مثل ما قالت في الأرنب فبينما هما ترتكان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رعدة.

فقالت الحديداء: أخذتك - والأمانة إخذة أثوب.

قالت قبلة: فقلت لها: فما أصنع وبحك! قالت: قلبي ثيابك ظهورها لبطونها وادحرجي ظهرك لبطنك واقلبي أحلاس جملك ثم خلعت سبيجها فقلبتة ثم ادحرجت ظهرها لبطنها فلما فعلت ما أمرتني به انتفض الجمل ثم قام فنج وبال.

فقالت: أعيدي عليه أدواتك.

ففعلت ثم خرجنا نرتك فإذا أثوب يسعى وراءنا بالسيف صلنا فوألنا إلى حواء ضخم فداراه حتى ألقه الجمل إلى رواقه الأوسط وكان جملاً ذلولاً واقتحمت داخله وأدركني بالسيف فأصابت ظبته طائفة من قرون رأسيه ثم قال: ألق إلي ابنة أخي يا دفار.

فألقيتها إليه فجعلها على منكبيه وذهب بها وكنت أعلم به من أهل البيت.

وخرجت إلى أخت لي ناكح في بني شيبان أبتغي الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما أنا عندها تحسب أني نائمة إذ جاء زوجها من السامر فقال لها: وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق.

قالت أختي: من هو قال: حريث بن حسان الشيباني وافد بكر بن وائل عاوباً ذا صياح.

فقالت أختي: الويل لي! لا تخبرها فتتبع أبا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ليس معها أحد من قومها قال: لا ذكرته.

قالت: وسمعت ما قالا فغدوت إلى جملي فشددت عليه ثم نشدت عنه فوجدته غير بعيد فسألته الصحبة فقال: نعم وكرامة وركابه مناخ عنده.

قالت: فسرت معه صاحب صدق حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالناس صلاة الغداة قد أقيمت حين شق الفجر والنجوم شابكة في السماء والرجال لا تكاد تعارف من ظلمة الليل فصففت مع الرجال وأنا امرأة قريبة عهد بجاهلية.

فقال الرجل الذي يليني من الصف: امرأة أنت أم رجل فقلت: لا بل امرأة فقال: أنك كدت تفتنيني فصلي في النساء وراءك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فإذا صف من نساء قد حدث عند الحجرات لم أكن رأيته إذا دخلت فكنت فيهن حتى إذا طلعت الشمس دنوت لجعلت إذا رأيت رجلاً ذا رواء وقشر طمّح إليه بصري لأرى رسول الله فوق الناس حتى جاء رجل فقال: السلام عليك يا رسول الله فقال: وعليك السلام ورحمة الله وعليه - تعني النبي صلى الله عليه وسلم أسمال مليتين كانتا بزعفران قد نفضتا ومعه عسيب نخلة مقشو غير خوصتين من أعلاه وهو قاعد القرصاء فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متخشعاً في الجلسة أرعدت من الفرق فقال جليسه: يا رسول الله أرعدت المسكينة.

فقال رسول الله ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة.

قالت: فلما قالها صلى الله عليه وسلم أذهب الله ما كان دخل في قلبي من الرعب وتقدم صاحب أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ثم قال: يا رسول الله اكتب بيننا وبين تميم كتاباً بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاوز.

قال: يا غلام اكتب له بالدهناء.

قالت: فلما رأيته أمر أن يكتب له شخص بي وهي وطني وداري فقلت: يا رسول الله إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك إنما هذه الدهناء مقيد الجمل ومرعى الغنم ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك فقال: أمسك يا غلام صدقت المسكينة: المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان.

فلما رأى حريث أن قد حيل دون كتابه قال: كنت أنا وأنت كما قال في المثل: حتفها تحمل ضان بأظلافها فقلت: أما والله ما علمت إن كنت لدليلاً في الظلماء جواداً لدى الرجل عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا تلمني أن أسأل حظي إذ سألت حظك قال: وأي حظ لك في الدهناء لا أباك قلت: مقيد جملي تريده لجمل امرأتك فقال: لا جرم إنني أشهد رسول الله أني لك أخ ما حييت إذ أثبت علي عنده فقلت: إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيلام ابن هذه أن يفضل الخطة وينتصر من وراء الحجرة فبكيته ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراماً فقاتل معك يوم الربرة ثم ذهب يمترى خبير فأصابته حماها ومات فقال: لو لم تكوني مسكينة لجررناك على وجهك.

أيغلب أحيديكم على أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفاً فإذا حال بينة وبينه من هو أولى بن استرجع ثم قال: رب أسني لما أمضيت وأعني على ما أبقيت.

فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبيكي فيستعير له صويحبه فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ثم كتب لها في قطعة آدم أحمر: لقيلة والنسوة من بنات قيلة أن لا يظلمن حقاً ولا يكرهن على منكح وكل مؤمن ومسلم لهن نصير أحسن ولا تسئن.

كتاب رسول الله لأكيدر دومة صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافاها: إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين.

كتابه لوائل بن حجر الحضرمي صلى الله عليه وسلم لوائل بن حجر الحضرمي من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشاييب من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في التبعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة والتيمة لصاحبها وفي السيوب الخمس لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ومن أجبي فقد أربى وكل حديث جرير بن عبد الله البجلي قدم جرير بن عبد الله البجلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن منزله ببيشة فقال: سهل ودكداك وسلم وأراك وحمض وعلاك إلى نخلة ونخلة ماؤها ينبوع وجناها مريع وشتاؤها ربيع.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن خير الماء الشبم وخير المال الغنم وخير المرعى الأراك والسلم إذا خلف كان لجينا وإذا سقط كان درينا وإذا أكل كان لبينا.

وفي كلامه عليه السلام: إن الله خلق الأرض السفلى من الزبد الجفاء والماء الكباء.

حديث عياش بن أبي ربيعة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عياش بن أبي ربيعة إلى بني عبد كلال وقال له: خذ كتابي بيمينك وادفعه بيمينك في أيمانهم فهم قائلون لك اقرأ فاقراً: " لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين " فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين فلن تأتيك حجة إلا وقد دحضت ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره ومج لونه وهم قارئون فإذا رطنوا فقد ترجموا فقل: حسن أمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله فإذا أسلموا فسلهم قضبهم الثلاثة التي إذا تخصروا بها سجد لهم: وهي الأثل قضيب ملمع بياض وقضيب ذو عجر كأنه من حديث راشد بن عبد ربه السلمى عبد الله بن الحكم الواسطي عن بعض أشياخ أهل الشام قال قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ووجه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم.

فقال راشد بن عبد ربه: صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه وردت عليه ما نفته تماضر وحكمه شيب القذال عن الصبا وللشيب عن بعض الغواية زاجر

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأقصر جهلي اليوم وارتد باطلا عن الجهل لما أبيض مني الغدائر على أنه قد هاجه بعد صحة بمعرض ذي الأجام عيس بواكر ولما دنت من جانب الغوط أخصبت وحلت ولاقاها سليم وعامر وخبرها الركبان أن ليس بينها وبين قرى بصرى ونجران كافر فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر وفود نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد أبو ليلي نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فأنشده شعره الذي يقول فيه: بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وأنا لنبغي فوق ذلك مظهرا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إلى أين أبا ليلي قال: إلى الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله.

فلما انتهى إلى قوله: ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له سن.

وبقي حتى وفد على عبد الله بن الزبير في أيامه بمكة وامتدحه فقال له: يا أبا ليلي أن أدنى وسائلك عندنا الشعر لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم ثم أحسن صلته وأجازه.

▲ وفود طهفة بن أبي زهير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبي زهير فقال: يا رسول الله أتيناك من غوري تهامة بأكوار الميس ترمي بنا العيس نستحلب الصبير ونستحلب الخبير ونستعضد البرير ونستحيل الرهام ونستجبل الجهام من أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهن ويبس الجعئن ومات العسلوج وسقط الأملوج وهلك الهدي ومات الودي.

برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام تعار ولنا نعم همل أغفال ما تبص ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل أصابتها سنية حمراء مؤزلة ليس بها علل ولا نهل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم بارك لهم في محضها ومحضها ومذقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك له في المال والولد من أقام الصلاة كان مسلماً ومن أتى الزكاة كان محسناً ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً.

لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلتط في الزكاة ولا تلحد في الحياة ولا تثاقل عن الصلاة.

وكتب معه كتاباً على بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد: السلام على من أمن بالله ورسوله لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو

مكتبة مشكاة الإسلامية

الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ما لم تضرروا
الإماق وتأكلوا الرباق من أقر بما في هذه الكتاب فله من رسول الله صلى
الله عليه وسلم الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى عليه فعليه الربوة.

▲ الوفود على عمر بن الخطاب

وفود جبلة بن الأيهم بن علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه العجلى قال:
حدثني أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن الأجدع الكوفي بهيت قال:
حدثني إبراهيم بن علي مولى بني هاشم قال: حدثنا ثقات شيوخنا: أن جبلة
بن الأيهم بن أبي شمر الغساني لما أراد أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب
من الشام يعلمه بذلك يستأذنه في القدوم عليه فسر بذلك عمر والمسلمون
فكتب إليه أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا: فخرج جبلة في خمسمائة
فارس من عك وجفنة فما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج
بالذهب والفضة ولبس يومئذ جبلة تاجه وفيه قرط مارية وهي جدته فلم يبق
يومئذ بالمدينة أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان وفرح المسلمون
بقدومه وإسلامه حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عمر بن الخطاب
فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من بني فزارة فحله
فالتفت إليه جبلة مغضبا فلطمه فهشم أنفه فاستعدى عليه الفزاري عمر بن
الخطاب فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري
فهشمت أنفه فقال: إنه وطئ أزاري فحله ولولا حرمة هذا البيت لأخذت
الذي في عيناه فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت إما أن ترضيه وإلا أقدمته
منك قال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة قال: يا جبلة إنه قد جمعك وإياه
الإسلام فما تفضله بشيء إلا بالعافية قال: والله لقد رجوت أن أكون في
الإسلام أعز مني في الجاهلية قال عمر: دع عنك ذلك قال: إذن أنتصر قال:
إن تنصرت ضربت عنقك.

قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة فقال جبلة: أخرجني إلى
غد يا أمير المؤمنين قال: ذلك لك.

فلما كان جنح الليل خرج هو وأصحابه فلم يئن حتى دخل القسطنطينية على
هرقل فتنصر وأقام عنده وأعظم هرقل قدوم جبلة وسر بذلك وأقطعته
الأموال والأرضي والرباع.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولا إلى هرقل يدعو إلى الإسلام أجابه إلى
المصالحة على غير الإسلام فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول:
ألقيت ابن عمك هذا الذي ببلدنا - يعني جبلة - الذي أتانا راغبا في ديننا قال:
ما لقيته قال: ألقه ثم ائتني أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة فإذا عليه من القهارة والحجاب والبهجة وكثر
الجمع مثل ما على باب هرقل.

قال الرسول: فلم أزل أتلف في الإذن حتى أذن لي فدخلت عليه فرأيت
رجلا أصهب اللحية ذا سبال وكان عهدي به أسمر أسود اللحية والرأس

مكتبة مشكاة الإسلامية

فنظرت إليه فأنكرته فإذا هو قد دعا بسحالة الذهب فذرهما في لحيته حتى عاد أصهب وهو قاعد على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسود من ذهب فلما عرفني رفعتني معه في السرير فجعل يسألني عن المسلمين فذكرت خيراً وقلت: قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف فقال: كيف تركت عمر ابن الخطاب قلت: بخير فرأيت الغم قد تبين فيه لما ذكرت له من سلامة عمر قال: فأنحدرت عن السرير فقال: لم تأبى الكرامة التي أكرمنك بها قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا قال: نعم صلى الله عليه وسلم ولكن نق قلبك من الدنس ولا تبال علام قعدت.

لما سمعته يقول: صلى الله عليه وسلم طمعت فيه فقلت له: ويحك يا جيلة! ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله قال: أبعدها ما كان مني قلت: نعم قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام وقبل ذلك منه وخلفه بالمدينة مسلماً قال: ذرني من هذا إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويولينني الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام قال: ضمنت لك التزوج ولم أضمن لك الإمرة قال: فأوماً إلى خادم بين يديه فذهب مسرعاً فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة وقال لي: كل فقبضت يدي وقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة فقال نعم صلى الله عليه وسلم ولك نق قلبك وكل فيما أحببت قال: فأكل في الذهب والفضة وأكلت في الخليج فلما رفع الطعام جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب وأوماً إلى خادم بين يديه فمر مسرعاً فسمعت حساً فالتفت فإذا خدم معهن الكراسي مرصعة بالجواهر فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره ثم سمعت حساً فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر متكسرات في الحلبي عليهن ثياب الديباج فلم أر وجوها قط أحسن منهن فأقعدهن على الكراسي عن يمينه ثم سمعت حساً فإذا عشر جوار أخرى فأجلسهن على الكراسي عن يساره ثم سمعت حساً فإذا جارية كأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاج وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه وفي يدها اليمنى جام فيه مسك وعنبر وفي يدها اليسرى جام فيه ماء ورد فأومات إلي الطائر أو قال فصفرت بالطائر فوق في جام ماء الورد فاضطرب فيه ثم أومات إليه أو قال فصفرت به فطار حتى نزل على صليب في تاج جيلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما ريشه عليه وضحك جيلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه فقال: بالله أطربنني.

فاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويقلن: لله در عصابة نادمتهم يوماً بخلق في الزمان الأول يسقون من وريد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول قال: فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: أتدري من قائل هذا قلت: لا قال: قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره فقال: بالله أبكيننا فاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويقلن: لمن الدار أقفرت بمعان بين أعلى اليرموك فالخمان ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر

مكتبة مشكاة الإسلامية

محللاً لحادث الأزمان قد أراني هناك دهرًا مكيناً عند ذلك التاج مقعدي
ومكاني ودنا الفصح فالولائد ينظمن سراعاً أكلة المرجان لم يعلنن بالمغافير
والصمغ ولا نقف حنظل الشريان قال: فبكي حتى جعلت الدموع تسيل على
لحيته ثم قال: أتدري من قائل هذا قلت لا أدري قال: حسان بن ثابت.

ثم أنشأ يقول: تنصرت الأشراف من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها
ضرر تكنفني منها لجاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالعود ويا ليتني
أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر ويا ليت لي بالشام
أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر ثم سألتني عن حسان: أحي
هو قلت: نعم تركته حياً.

فأمر لي بكسوة ومال ونوق موقرة يرا ثم قال لي: إن وجدته حياً فادفع إليه
الهدية وأقرئه سلامي وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله وانحر الجمال على
قبره.

فلما قدمت علي عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه من الإسلام والشرط
الذي شرطه وأني ضمننت له التزوج ولم أضمن له الإمرة.

فقال: هلا ضمننت له الإمرة فإذا أفاء الله به الإسلام قضى عليه بحكمه عز
وجل.

ثم ذكرت له الهدية التي أهداها إلى حسان بن ثابت.

فبعث إليه وقد كف بصره فأتي به وقائد يقوده فلما دخل قال: يا أمير
المؤمنين إني لأجد رياح آل جفنة عندك قال: نعم هذا رجل أقبل من عنده
قال: هات يا بن أخي إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية فحلف أن لا
يلقى أحداً يعرفني إلا أهدى إلي معه شيئاً.

فدفعته إليه الهدية: المال والثياب وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وجد
ميتاً فقال: وددت أنني كنت ميتاً فنحرت على قبري.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول: إن ابن جفنة من بقية معشر لم
يغذهم أبأؤهم باللوم يعطى الجزيل ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكر ملوكاً كفرة أبادهم الله وأفناهم
قال: ممن الرجل قال: مزني قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم لطوقت طوق الحمامة.

قال: ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به فلما
قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته فعملت أن الشقاء
غلب عليه في أم الكتاب.

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدائني

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله وقد أتتك وفود أهل العراق وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية والملوك الجبابرة ومنازل كسرى وقيصر وبني الأصفر فهم من المياه العذبة والجنان المخصصة في مثل حواء السلى وحدقة البعير تأتيهم ثمارهم غضة لم تتغير وإننا نزلنا أرضاً نشاشة طرف في فلاة وطرف في ملح أجاج جانب منها منابت القصب وجانب سبخة نشاشة لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها تأتينا منافعها في مثل مريء النعامه يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق ولدها ترنق العنز تخاف عليه العدو والسبع فإلا ترفع خسيستنا وتنعش ركيستنا وتجبر فاقتنا وتزيد في عيالنا عيالاً وفي رجالنا رجالاً وتصفر درهمنا وتكبر قفيزنا وتأمّر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكننا.

قال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس هناك وأمه باهلية.

قال عمر: هو خير منك إن كان صادقاً.

يريد إن كانت له نية.

فقال الأحنف: أنا ابن الباهلية أضعنتي بشدي لا أجد ولا وخيم أعض على القذى أجفان عيني إذا شر السفيه إلى الحليم قال: فرجع الوفد واحتبس الأحنف عنده حولاً وأشهرأ ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافق صنع اللسان وإني خفتك فاحتبستك فلم يبلغني عنك إلا خير رأيت لك حولاً ومعقولاً فارجع إلى منزلك واتق الله ربك.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن يحتفر لهم نهراً.

على عمر بن الخطاب رضي الله عنه العتبي عن أبيه قال: وفد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأراد أن يقرع بينهما في الرياسة فلما اجتمعت بنو تميم قال الأحنف: ثوي قدح عن قومه طالما ثوي فلما أتاهم قال قوموا تاجزوا فقال عمرو بن الأهتم: إنا كنا وأنتم في دار جاهلية فكان الفضل فيها لمن جهل فسفكنا دماءكم وسبينا نساءكم وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم فغفر الله لنا ولك.

قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهتم.

فقال عمرو بن الأهتم: لما دعنتي للرياسة منقر لدى مجلس أضحي به النجم باديا شددت لها أزري وقد كنت قبلها لأمثالها مما أشد إزاريا وعمرو بن

مكتبة مشكاة الإسلامية

الأهتَم: هو الذي تكلم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن الزبرقان فقال عمرو: مطاع في أدنيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبرقان: والله يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال ولكن حسدني قال: أما والله يا رسول الله إنه لزمير المروءة ضيق العطن أحق الولد لئيم الخال والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى رضيت عن ابن عمي فقلت أحسن ما علمت ولم أكذب وسخطت عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً.

▲ وفود عمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إذ أوفده سعد لما فتحت القادسية على يدي سعد بن أبي وقاص أبلى فيها عمرو بن معد يكرب بلاءً حسناً فأوفده سعد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب على عمرو.

فلما قدم على عمر بن الخطاب سأله عنه سعد فقال: أعرابي في نمرته أسد في تأمورته نبطي في جبايته يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفر في السرية وينقل إلينا حقنا نقل الذرة.

فقال عمر: لشد ما تقارضتما الثناء.

وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسية أن يعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن.

فقال سعد لعمرو بن معد يكرب: ما معك من القرآن قال: ما معي شيء قال: إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن فقال عمرو: إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير نعطي السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ نعطي الدنانير وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد إيقاع خالد بهم وقتله مسيلمة الكذاب فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبكم قالوا: أعفنا يا خليفة رسول الله قال: لا بد أن تقولوا قالوا: كان يقول: يا ضفدع كم تنقن لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون.

فقال لهم أبو بكر: وحيكم! ما خرج هذا من إل ولا بر فأين ذهب بكم قال أبو عبيد: الإل: الله تعالى.

والبر: الرجل الصالح.

▲ وفود عمرو بن معد يكرب على مجاشع بن مسعود

مكتبة مشكاة الإسلامية

وفد عمرو بن معد يكرب الزبيدي على مجاشع بن مسعود السلمى - وكانت بين عمرو وبين سليم حروب في الجاهلية - فقدم عليه البصرة يسأله الصلة فقال: اذكر حاجتك فقال له: حاجتي صلة مثلي.

فأعطاه عشرة آلاف درهم وفرساً من بنات الغبراء وسيفاً جرازاً ودرعاً حصينة وعلماً خباراً.

فلما خرج من عنده قال له أهل المجلس: كيف وجدت صاحبك قال: لله در بني سليم ما أشد في الهيجاء لقاءها وأكرم في الأواء عطاءها وأثبت في المكرمات بناءها والله يا بني سليم لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجيناكم ولقد هاجيناكم فما أقحمتناكم وقد سألناكم فما أبخلناكم.

فله مسؤولاً نوالاً ونائلاً وصاحب هيج يوم هيج مجاشع الوفود على معاوية وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه أبو بكر بن أبي شيبة قال: وفد الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة فقال له معاوية والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجز بها أحداً بعدك فأمر بمائة ألف.

وفي بعض الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته فاطمة فوجد الحسن طفلاً يلعب بين يديها فقال لها: إن الله تعالى سيصلح على يدي ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

على معاوية رحمه الله العتبي قال: قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة - وهو أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة ومتولي تلك الحروب ورأس أهل البصرة وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج يعلى بن منية - فلما دخل على معاوية شكاً إليه ديناً لزمه فقال: يا كعب أعطه ثلاثين ألفاً فلما ولى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى: ثم قال له: الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر فقال: إن سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف ألبس أردية الليل مرة وأخوض في لجج السراب أخرى موقراً من حسن الظن بك وهارباً من دهر قطم ودين لزم بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين فلم أجد إلا إليك مهرباً وعليك معولاً فقال عتبة: مرحباً بك وأهلاً إن الدهر أعاركم غنى وخلطكم بنا ثم استرد ما أمكنه أخذه وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه وأنا واضح يدي ويدك بيد الله.

فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية رحمه الله.

▲ وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رحمه الله

وفد عبد العزيز بن زرارة على معاوية وهو سيد أهل الكوفة فلما أذن له وقف بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين لم أزل أهر ذوائب الرجال إليك إذ لم أجد معولاً إلا عليك أمتطي الليل بعد النهار وأسم المجاهل بالآثار يقودني إليك أمل وتسوقني بلوى والمجتهد يعذر وإذ بلغتك فقطني.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فقال معاوية: احطط عن راحتك رحلها.

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة فهلك هناك فكتب به يزيد بن معاوية إلى معاوية فقال لزرارة: أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب قال زرارة: يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنك قال: بل ابنك قال: للموت ما تلد الوالدة.

أخذ سابق البربري فقال: وللموت تغدو الوالدات سخالها كما لخراب الدار تبنى المساكن وقال آخر: للموت يولد منا كل مولود لا شيء يبقى ولا يفنى بوجود وفود عبد الله جعفر على يزيد بن معاوية المدائني قال: قدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية.

فقال له: كم كان عطاؤك فقال له: ألف ألف قال: قد أضعفاناها لك قال: فداك أبي وأمي وما قلتها لأحد قبلك قال: أضعفاناها لك ثانية.

ف قيل ليزيد: أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف! فقال: ويحكم! إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيها إلا عارية.

فلما كان في السنة الثانية قدم عبد الله بن جعفر وقدم مولى له يقال له نافع كانت له منزلة من يزيد بن معاوية.

قال نافع: فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف وقضى عنه ألف ألف ثم نظر إلي فتبسم فقلت: هذه لتلك الليلة.

وكنت سامرته ليلة في خلافة معاوية وأسمعته فيها فذكرته بها.

وقدمت عليه هدايا من مصر كثيرة فأمر بها لعبد الله بن جعفر وكان له مائة ناقة فقلت لابن جعفر: لو سألته منها شيئاً نحتلبه في طريقنا ففعل فأمر بصرفها كلها إليه.

فلما أراد الوداع أرسل إلي فدخلت عليه فقال: ويلك! إنما أخترك لأتفرغ إليك هات قول جميل: خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي قال: فأسمعته! فقال: أحسنت والله هات حاجتك.

فما سألته شيئاً إلا أعطانيه فقال: إن يصلح الله هذا الأمر من قبل ابن الزبير تلقنا بالمدينة فإن هذا لا يحسن إلا هناك.

فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير.

▲ الوفود على عبد الملك بن مروان

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج

مكتبة مشكاة الإسلامية

على ألفي ألف في السر وخمسائة في العلانية وحملها إليه إلى العراق
فمكنت عنده ثمانية أشهر.

قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان خرجنا معه
حتى دخلنا دمشق فإننا لنحط رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة
وردة ومعه الناس فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله.

فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً مهلاً يا
بن أخي فليست أهلاً لهذه المقالة منك قال: بلى ولشر منها قال: وفيم ذلك
قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة بني عبد مناف ففرشتها عبد
ثقيف يتفخذها قال: وفي هذا عتب علي يا بن أخي قال: وما أكثر من هذا
قال: والله إن أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنك وأبوك إن كان من
قبلكم من الولاة ليصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأياك منعتما مني ما
عندكما حتى ركبني من الدين ما والله لو أن عبداً مجدعاً حبشياً أعطاني بها
ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها فإنما فديت بها رقبتي من النار.

قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك -
وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك
أبا العباس قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته ورفعته حتى تفخذ نساء عبد
مناف وأدركنه الغير.

فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى
يطلقها.

فما قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا.

قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك.

قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا عبر مقبلة من الحجاج عليها
لطف وكسوة وميرة حتى لحق عبد الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابن جعفر على عبد الملك فلما دخل عليه استقبله عبد الملك
بالترحيب ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره ثم سأله فألطف المسألة
حتى سأله عن مطعمه ومشربه فلما انقضت مسألته قال له يحيى بن
الحكم: أمن خبيثة كان وجهك أبا جعفر قال: وما خبيثة قال: أرضك التي جئت
منها قال: سبحان الله! رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طيبة
وتسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين.

فلما خرج من عنده هياً له ابن جعفر هدايا وألطافاً.

فقلت لبديح: ما قيمة ذلك قال: قيمته مائة ألف من وصفاء ووصائف وكسوة
وحرير ولطف من لطف الحجاز.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فبعثني بها فدخلت عليه وليس عنده أحد فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً.

قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك وجعل يقول كلما أريت شيئاً: عافى الله أبا جعفر ما رأيت كاليوم وما كنا نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا وإن كنا لمتذممين محتشمين.

قال: فخرجت من عنده وإذن لأصحابه فوالله لبينا أنا أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه إذا بفارس قد أقبل علينا فقال: أبا جعفر إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك ويقول لك: جمعت لنا وخش رقيق الحجاز أباقهم وحبست عنا فلانة فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدثهم عن هدايا ابن جعفر وبعظمها عندهم فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبس عنك فلانة قال: ويلك! وما فلانة هذه قال: ما لم يسمع والله أحد بمثلها قط جمالاً وكمالاً وخلقاً وأدياً لو أراد كرامتك بعث بها إليك قال: وأين تراها وأين تكون قال: هي والله معه وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر إذا سمع ما يكره تصام فأقبل علي فقال: ما يقول بديح قال: قلت: فإن أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل له: أعز الله نصرك وكبت عدوك فقال الرسول: يا أبا جعفر إني لست أقول هذا وأعاد مقالته الأولى.

فسألني فصرفته إلى وجه آخر فأقبل علي الرسول فقال: يا ماص أبرسل أمير المؤمنين تهكم وعن أمير المؤمنين تجيب هذا الجواب قال: والله لأظن دمك فانصرف.

وأقبل علي ابن جعفر فقال: من ترى صاحبنا قال: صاحبك بالأمس قال: أظنه فما الرأي عندك قلت: يا أبا جعفر قد تكلفت له ما تكلفت فإن منعها إياه جعلتها سبباً لمنعك ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه قال: ادعها لي.

فلما أقبلت رحب بها ثم أجلسها إلى جنبه ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت قالت: وما ذاك قال: إنه حدث أمر وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببت جاء الدهر فيه بما جاء قالت: وما هو قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك فإن تهوين فذاك وإلا والله لا يكون أبداً قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي وأرسلت عينيها بالبكاء فقال لها: أما إذا فعلت فلا ترين مكروهاً فمسحت عينيها وأشار إلي فقال: ويحك يا بديح! استحثها قبل أن تتقدم إلي من القوم بادرة.

قال: ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسائة دينار ودعا مولاة له كانت تلي طيبه فدحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيباً ثم قال: عجلها ويلك! فخرجت أسوقها حتى انتهيت إلى الباب وإذا الفارس قد بلغ عني فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو

مكتبة مشكاة الإسلامية

يتلظى فقال لي: يا ماص! وكذا أنت المجيب عن أمير المؤمنين والمتهم برسله قلت: يا أمير المؤمنين ائذن لي أتكلم قال: وما تقول يا كذا وكذا قلت: ائذن لي يجعلني الله فداك أتكلم قال: تكلم قلت: يا أمير المؤمنين أنا أصغر شأنًا وأقل خطراً من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين نعم قد قلت ما بلغك وقد يعلم أمير المؤمنين أنا إنما نعيش في كنف هذا الشيخ وأن الله لم يزل إليه محسناً فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قط مثله إنما طلبت نفسه التي بين جنبيه فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه ثم سألتني فأخبرته واستشارني فأشرت عليه وها هي ذه قد جئتك بها قال: أدخلها وبلك! قال: فأدخلتها عليه وعنده مسلمة ابنه غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه فلما جلست وكلها أعجب بكلامها فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك أم أهبك لهذا الغلام فإنه ابن أمير المؤمنين قالت: يا أمير المؤمنين لست لك بحقيقة وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً قال: فقام من مكانه ما راجعها فدخل وأقبل عليها مسلمة يالكاع أعلى أمير المؤمنين تختارين قالت: يا عدو نفسه إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله لقد قال: رأي من اختارتك.

قال: فضيقت والله مجلسه واطلع علينا عبد الملك قد ادهن بدهن وارى الشيب وعليه حلة تتلألاً كأنها الذهب بيده مخصرة يخطر بها فجلس مجلسه على سريره ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك أم أهبك لهذا الغلام قالت: ومن أنت أصلحك الله قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين قالت: لست مختارة علي أمير المؤمنين أحداً قال: فأين قولك أنفاً قالت: رأيت شيخاً كبيراً وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم ولست مختارة عليه أحداً قال: دونكها يا مسلمة.

قال بديح: فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي وأريته الجواري والطيب قال: عافى الله ابن جعفر أخشي أن لا يكون لها عندنا نفقة وطيب وكسوة فقلت: بلى ولكن أحب أن يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس.

قال: فقبضها مسلمة.

فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هلكت.

قال بديح: فوالله الذي ذهب بنفس مسلمة ما جلست معه مجلساً ولا وقفت موقفاً أنازعه فيه الحديث إلا قال: أبغني مثل فلانة فأقول: أبغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: وبلك! فما أجازه به قال: قال: حين دفع إليه حاجته ودينه لأجيزتك جائزة لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها فأمر له بمائة ألف وأيم الله إنني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاربه التي كانت عدل نفسه مائتي ألف.

مكتبة مشكاة الإسلامية

على عبد الملك بن مروان كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث رجلاً يصلح للدين وللدنيا أتخذه سميراً وجليساً وخلياً فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي وبعث به إليه.

فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتماً فقال: ما بال أمير المؤمنين قال: ذكرت قول زهير: كاني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجامي رممني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برامي فلو أنني أرمى بنبل رأيتها ولكنني أرمى بغير سهام على الراجحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ سبعين حجة: كاني وقد جاوزت سبعين حجة خلصت بها عن منكبي رداً ولما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال: بانث تشكي إلى النفس موهنة وقد حملتك سبعاً بعد سبعيناً فإن تزاذي ثلاثاً تبلغني أملاً وفي الثلاث وفاء للثمانيناً وقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد ولما بلغ عشراً ومائة قال: أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع أخبر أخبار القرون التي خلت أنوء كاني كلما قمت راعع ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال: تمنى ابتائي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر فقوماً فقولاً بالذي تعلمانه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر وقولا هو المرء الذي لا صديقه أضاع ولا خان الخليل ولا غدر إلى سنة ثم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

▲ وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعظم منزلته فلم تزل حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان فخرج معه معادلاً لا يقصر له في بر ولا إعظام حتى حضر به عبد الملك فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قد الأبوة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذكك وتعرف له ما عرفتك فقال: أذكرتنا رحماً قريبة وحقاً واجباً يا غلام ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه ثم قال له: يا بن طلحة إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الوازنة فلا تدعن حاجة عن خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها فقال: يا أمير المؤمنين إن أول الحوائج وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة وعندني نصيحة لا أجد بداً من ذكرها ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال فأخطني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي قال: دون أبي محمد قال: نعم دون أبي محمد.

قال عبد الملك للحجاج: قم.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما خطر فستر أقبل علي فقال: يا بن طلحة قل نصيحتك فقال: تالله يا أمير المؤمنين لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه وبعده من الحق وقربه من الباطل فوليته الحرمين وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطؤونهم بطغام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة بعد الذي كان من سفك دمائهم وما انتهك من جرمهم ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جئتك للخصومة بين يدي الله في أمته أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة فاربع على نفسك أودع.

فقال له عبد الملك: كذبت ومنت وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك وقد يظن الخير بغير أهله قم فأنت الكاذب المائن.

قال: فقممت وما أعرف طريقاً فلما خطر فستر لحقني لاحق فقال: احبسوا هذا وقال للحجاج: ادخل فدخل فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري ثم خرج الأذن فقال: ادخل يا بن طلحة فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وهو خارج وأنا داخل فاعتقني وقبل ما بين عيني وقال: أما إذا جرى الله المتواخين خيراً تواصلهم فجزاك الله عني أفضل الجزاء فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك ولأعلن كعبك ولأتبعن الرجال غبار قدميك قال: قلت: يهزأ بي وحق الكعبة.

فلما وصلت إلي عيد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول ثم قال: يا بن طلحة لعل أحداً شاركك في نصيحتك هذه قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أعلم أحداً أنصع عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج ولو كنت محايياً أحداً لغرض دنيا لحاييته ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا ولو أردتها لكانت لك في الحجاج ولكن أردت الله والدار الآخرة وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما ووليته العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له لألزمه بذلك من حقك ما يؤدي إليك عني أجر نصيحتك فأخرج معه فإنك غير ذام لصحبته.

فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

▲ وفود رسول المهلب على الحجاج

بقتل الأزارقة أبو الحسن المدائني قال: لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة بعث إلى مالك بن بشير فقال له: إني موفدك إلى الحجاج فسر فإنما هو رجل مثل وبعث إليه بجائزة فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق وتوجه.

فلما دخل إلى الحجاج قال له ما اسمك قال: مالك بن بشير قال: ملك وبشارة كيف تركت المهلب قال: أدرك ما أمل وأمن من خاف قال: كيف هو

مكتبة مشكاة الإسلامية

بجنده قال: والد رءوف قال: فكيف جنده له قال أولاد بررة قال: كيف رضاهم عنه قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم قال: نلقاهم بحدنا فنطمع فيهم ويلقوننا بدهم فيطمعون فينا قال: كذلك الحد إذا لقي الحد قال: فما حال قطري قال: كادنا ببعض ما كدناه قال: فما منعكم من إتباعه قال: رأينا المقام من وراءه خيراً من إتباعه قال: فأخبرني عن ولد المهمل قال: أعباء القتال بالليل حماة السرح بالنهار قال: أيهما أفضل قال: ذلك إلى أبيهم قال: لتقولن قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها قال: أقسمت عليك هل روات في هذا الكلام قال: ما أطلع الله على غيبة أحداً فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

▲ وفود جرير على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه: أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج وقوله: دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فسر إليه بكتابي هذا.

فسار إليه ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له فقال: أتصحو بل فؤادك غير صاحي قال له عبد الملك: بل فؤادك.

فلما انتهى إلى قوله: تعزت أم حذرة ثم قالت رأيت الواردين ذوي امتياح ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح سأشكر إن رددت إلي ريشي وأثبت القوادم في جناحي أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ارتاح عبد الملك وكان متكئاً فاستوى جالسا ثم قال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت ثم قال له: يا جرير أتري أم حذرة ترويهما مائة ناقة من نعم كلب قال: إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أروها الله.

فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب كلها سود الحدقة فقال: يا أمير المؤمنين إنها أباق ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته فلو أمرت بالرعاء فأمر له بثمانية من الرعاء.

وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين وأشار إلى صحيفة منها فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك.

ففي ذلك يقول جرير: أعطوا هنيذة يحدوها ثمانية ما في عطائهم من ولا شرف الوفود على عمر بن عبد العزيز وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن أهل الحجاز فاستأذنه في الشعر فقال: ما لي وللشعر يا جرير إني لفي شغل عنه قال: يا أمير المؤمنين إنها رسالة عن

مكتبة مشكاة الإسلامية

أهل الحجاز قال: فهاثها إذاً فقال: كم من ضرير أمير المؤمنين لدى أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر أصابت السنة الشهباء ما ملكت يمينه فحناه الجهد والكبر ومن قطع الحشا عاشت مخبأة ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر لما اجتلتها صروف الدهر كارهة قامت تنادي بأعلى الصوت يا عمر وفود دكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال دكين بن رجاء الفقيمي الراجز: مدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعباً فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر علي ولم تطب نفسي ببيعها فقدمت علينا رفقة من مضر فسألتهم الصحة فقالوا: إن خرجت الليلة فقلت: إني لم أودع الأمير ولا بد من وداعه قالوا: فإن الأمير لا يجب عن طارق ليل فاستأذنت عليه فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما فقال لي: يا دكين إن لي نفساً تواقه فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا في فبعين ما أرينك قلت: أشهد لي بذلك أيها الأمير قال: إني أشهد الله قلت: ومن خلقه قال: هذين الشيخين قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرفك قال: سالم بن عبد الله فقلت: لقد استسمنت الشاهد وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله قال: أبو يحيى مولى الأمير وكان مزاحم يكنى أبا يحيى.

قال دكين: فخرجت بهن إلى بلدي فرمى الله في أذناهن بالبركة حتى اتخذت منهن الصياح والربع والغلمان فإني لبحراء فلج إذا يريد يركض إلى الشام فقلت له: هل من مغربة خبر قال: مات سليمان بن عبد الملك قلت: فمن القائم بعده قال: عمر بن عبد العزيز.

قال: فأنخت قلوصي فألقيت عليها أداتي وتوجهت عنده فلقيت جريراً في الطريق جائباً من عنده فقلت: من أبا أبا حزره قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء قلت: فما ترى فإني خرجت إليه قال: عول عليه في مال ابن السبيل كما فعلت.

فانطلقت فوجدته قاعداً على كرسي في عرصة داره قد أحاط الناس به لم أجد إليه يا عمر الخيرات والمكارم وعمر الدسائع العظام إني امرؤ من قطن بن دارم أطلب حاجي من أخي مكارم إذ نتجني والله غير نائم في ظلمة الليل وليلي عاتم عند أبي يحيى وعند سالم فقام أبو يحيى ففرج لي وقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا البدوي عندي شهادة عليك قال: أعرفها ادن مني يا دكين أنا كما ذكرت لك أن لي نفساً تواقه وأن نفسي تاقته إلى أشرف منازل الدنيا فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة والله ما رزأت من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه وما عندي إلا ألفا درهم أعطيك أحدهما فأمر لي بألف درهم.

فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركة منها.

▲ وفود كثير والأحوص على عمر بن العزيز رضي الله عنه

حماد الراوية قال: قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر قلت: نعم قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم ونحن لا نشك أنه سيشر

مكتبة مشكاة الإسلامية

كنا في خلافته فلما رفعت لنا أعلام خناصرة لقينا مسلمة بن عبد الملك وهو يومئذ فتى العرب فسلمنا فرد ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك ووجمنا وجمه عرف ذلك فينا فقال: إن يك ذو دين بنى مروان قد ولي وخشيتم حرمانه فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله.

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزل عليه فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أني دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأياً ففعلت.

فكان مما حفظت من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى وكونوا كمن عابن ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه فترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتناقداوا لعدوكم في كلام كثير لا أحفظه.

ثم قال: أعود بالله أن أمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيلتي وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق.

ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه وارتح المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرح من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وأبائه فإن الرجل آخري وليس بدنيوي.

إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للامة فلما دخلت سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب قال يا كثير " [إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبل الله وابن السبيل](#) " أفي واحد من هؤلاء أنت قلت: بلى ابن سبيل منقطع به وأنا ضاحك قال: ألسنت ضيف أبي سعيد قلت: بلى قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الإنشاء قال: نعم ولا تقل إلا حقاً فقلت: وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تقبل إشارة مجرم وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم إلا إنما الفتى بعد زبغة من الأود البادي ثقاف المقوم وقد لبست لبس الهلوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكف ومعصم وتومض أحياناً بعين مريضة وتبسم عن مثل الجمان المنظم فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما سقتك مدوفاً من سممام وعلقم وقد كنت من أجبالها في ممنوع ومن بحرهما في مزيد الموج مفعم وما زلت تواقاً إلي كل غاية بلغت بها أعلى البناء المقوم تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً وأثرت ما يبقى برأي مصمم وأضررت بالفاني وشمرت للذي أمامك في يوم من الهول مظلم ومالك إذ كنت الخليفة مانع سوى الله من مال رغب ولا دم سما لك هم في الفؤاد مؤرق بلغت به أعلى المعالي بسلم فما بين شرق الأرض والغرب كلها مناد ينادي من فصيح وأعجم يقول: أمير المؤمنين ظلمتني بأخذ للدينار ولا أخذ درهم ولا بسط كف لامرئ غير مجرم ولا السفك منه ظالماً ملء محجم ولو يستطيع المسلمون لقسموا لك الشطر من أعمارهم غير

مكتبة مشكاة الإسلامية

ندم فأريج بها من صفقة لمبايع وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم قال: فأقيل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت.

ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد فقال: قل ولا تقل إلا حقاً فقال: وما الشعر إلا حكمة من مؤلف بمنطق حق أو بمنطق باطل فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ولا ترجعنا كالنساء الأرامل فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ومن ذا يرد الحق من قول قائل ومن ذا يرد السهم بعد مضائه على فوقه إذ عار من نزع نابل ولولا قد عودتنا خلائف غطاريف كانوا كالليوث البواسل لما وخذت شهراً برحلي شملة تقدمتون البيد بين الرواحل ولكن رجونا منك مثل الذي به حيننا زماناً من ذوبك الأوائل فإن لم يكن للشعر عندك موضع وإن كان مثل الدر من نظم قائل وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه سوى أنه يبني بناء المنازل فإن لنا قربي ومحض مودة وميراث آباء مشوا بالمناصل فزادوا عدو السلم عن عقر دارهم وأرسوا عمود الدين بعد التمايل وقبلك ما أعطى الهنيدة جلة على الشعر كعباً من سديس وبازل رسول الإله المستضاء بنوره عليه سلام الضحى والأصائل فقال: إنك مسؤول عما قلت.

قم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد فلم يأذن له وأمره بالغزو على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ابن الكبي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز وعليه عمامة قد أرخى طرفيها وكانت له منه مكانة فصاح به جريراً: يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك إنني قد مضى زماني أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أني لدى الباب كالمصفود في قرن وحش المكانة من أهلي ومن لدى نائي المحلة عن داري وعن وطني قال: نعم أبا حزره ونعمى عين.

فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين إن الشعراء يبابك وأقوالهم باقية وسنانهم مسنونة قال: يا عون: مالي وللشعراء قال: يا أمير المؤمنين إن النبي صلى الله عليه وسلم: قد مدح وأعطى وفيه أسوة لكل مسلم قال: ومن مدحه قلت: عباس بن مرداس فكساه جلة قطع بها لسانه قال: وتروي قول قلت: نعم: ونورت بالبرهان أمراً مدمساً وأطفأت بالبرهان ناراً مضراً فمن مبلغ عني النبي محمداً وكل امرئ يجزى بما قد تكلمت تعالى علواً فوق عرش إلهنا وكان مكان الله أعلى وأعظماً قال: صدقت فم بالباب منهم قلت: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل: ألا ليت أني يوم حانت منيتي شممت الذي ما بين عينيك والفم وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوطي من مشاشك والدم وبا ليت سلمى في القبو ضجيعتي هنالك أو في جنة أو جهنم فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا ويعمل عملاً صالحاً والله لا دخل علي أبداً فمن بالباب غير من ذكرت قلت: جميل بن معمر العذري قال: هو الذي يقول: ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت يوافي لدى الموتى ضريحى ضريحها فما أنا في طول الحياة براغب إذا قيل قد سوي عليها صفيحها أطل نهاري لا أراها ويلتقي مع الليل روجي في المنام وروحها لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة راكعين سجوداً اعزب به فمن بالباب غير من ذكرت قلت: الأحوص الأنصاري قال:

مكتبة مشكاة الإسلامية

أبعد الله ومحقه أليس هو القائل وقد أفسد على أهل المدينة جارية عرب بها منه: الله بيني وبين سيدها يفر عني بها وأتبع اعزب به فمن الباب غير من ذكرت قلت: همام بن غالب الفرزدق قال: أليس هو القائل يفخر بالزنى: هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا أحي يرجى أم قتيل نحاذره وأصبحت في القوم الجلوس وأصبحت مغلقة دوني عليها دساكره فقلت أرفعا الأسباب لا يشعروا بنا ووليت في أعقاب ليل أبادره اعزب به فوالله لا دخل علي أبداً فمن الباب غير من ذكرت قلت: الأخطل التغلبي قال: أليس هو القائل: فلست بصائم رمضان عمري ولست بأكلي لهم الأضاحي ولست بزاجر عنسا بكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبج الصباح اعزب به فوالله لا وطئ لي بساطاً أدياً وهو كافر فمن الباب غير من ذكرت قلت: جرير بن الخطفي قال: أليس هو القائل: لولا مراقبة العيون أريتنا مقل المها وسوالف الآرام هل ينهيك أن قتلن مرقشا أو ما فعلن بعروة بن حزام ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام طرقتك صائدة القول وليس ذا حين الزيارة فارجمي بسلام فإن كان ولا بد فهذا فأذن له فخرجت إليه فقلت: ادخل أبا حزره فدخل وهو يقول: إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في إمام عادل وسيع الخلائق عدله ووفأؤه حتى أروعى وأقام ميل المائل والله أنزل في القرآن فريضة لابن السبيل وللفقير العائل إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول: يدعوك دعوة ملهوف كان به خيلاً من الجن أو مسا من البشر خليفة الله ماذا تأمرن بنا لنا إليكم ولا في دار منتظر ما زلت بعدك في هم يؤرقني قد طال في الحي إصعادي ومنحدري لا ينفع الحاضر المجهود باديها ولا يعود لنا باد على حضر إنا لندرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن حاجة هذا الأرملة الذكر فقال: يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر وأملك إلا ثلثمائة فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال إلي كسبته ثم خرج فقالوا له: ما وراءك قال: ما يسوؤكم خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ثم أنشأ يقول: رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقياً.

▲ الوفود على ابن الزبير

وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى: الزبير بن بكار قاضي الحرمين قال: أقحمت السنة نابغة بني جعدة فوفد إلى ابن الزبير فدخل عليه في المسجد الحرام ثم أنشده: حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح معدم وسويت بين الناس في الحق فاستووا فعاد صباحاً حالك اللون مظلم أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى دجى الليل جواب الفلاة عثمتم لتجبر منه جانباً زعزعت به صروف الليالي والزمان المصمم فقال له ابن الزبير: هو عليك أبا ليلى فالشعر أدنى وسائل عندنا أما صفوة أموالنا فلأل الزبير وأما عفوته فإن بني أسد وتيماً تشغلها عنك ولكن لك في مال

مكتبة مشكاة الإسلامية

الله سهران سهم برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم بشركتك
أهل الإسلام في فيئهم ثم أخذ بيده ودخل به دار النعم فأعطاه قلائص سبعا
وجملاً رحيلاً وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً.

فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفاً فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلي!
لقد بلغ به الجهد قال النابغة: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول: ما وليت قريش فعدلت واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت
ووعدت خيراً فأنجزت فانا والنيون فراط القاصفين.

قال الزبير بن بكار: الفارط: الذي يتقدم إلى الماء يصلح الرشاء والدلاء.

والقاصف: الذي يتقدم لشراء الطعام.

▲ وفود أهل الكوفة على ابن الزبير رحمة الله تعالى

قال: لما قتل صعّب بن الزبير المختار بن أبي عبيد خرج حاجاً فقدم على
أخيه عبد الله بن الزبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق فقال له: يا أمير
المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا
المال قال: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله! والله لا فعلت.

فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم قال لهم: يا أهل الكوفة وددت والله أن لي
بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم بل لكل عشرة رجلاً.

قال عبيد الله بن ظبيان: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت
قال: وما ذلك قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل علقته عرضاً وعقلت رجلاً
غيري وعلق أخرى غيرها الرجل أحبينك نحن وأحببت أنت أهل الشام وأحب
أهل الشام عبد الملك.

ثم انصرف القوم من عنده خائبين فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا
بمصعب بن الزبير.

▲ وفود رؤية على أبي مسلم

الأصمعي قال: حدثنا رؤية قال: قدمت على أبي مسلم صاحب الدعوة
فأنشدته فناداني: يا رؤية فنوديت له من كل مكان: يا رؤية فأجبت: لبيك إذ
دعوتني لبيكا أحمد ربا ساقني إليك الحمد والنعمة في يديكا قال: بل في
يدي الله عز وجل قلت: وأنت لما أنعمت حمدت.

ثم استأذنت في الإنشاد فأذن لي فأنشدته: ما زال يأتي الملك من أقطاره
وعن يمينه وعن يساره مشمراً لا يصطلى بناره حتى أقر الملك في قراره
فقال: إنك أتيتنا وقد شف المال واستنفضه الإنفاق وقد أمرنا لك بجائزة وهي
تافهة يسيرة ومنك العود وعليك المعول والدهر أطرق مستتب فلا تجعل

مكتبة مشكاة الإسلامية

بجنيك الأسد قال: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أحب إلي من الذي أفادني من ماله.

▲ وفود العتابي على المأمون

الشيبياني قال: كان كلثوم العتابي أيام هارون الرشيد في ناحية المأمون فلما خرج إلى خراسان شيعه إلى قومس حتى وقف على سنداد كسري فلما حاول وداعه قال له المأمون: لا تدع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء.

فلما أفضت الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتابي زائراً فحجب عنه فتعرض ليحيى بن أكرم فقال: أيها القاضي إن رأيت أن تذكر بي أمير المؤمنين فقال له يحيى: ما أنا بالحاجب قال له: قد علمت ولكنك ذو فضل وذو الفضل معوان.

فدخل على المأمون فقال: يا أمير المؤمنين أجرتني من العتابي ولسانه فلم يأذن له وشغل عنه فلما رأى العتابي جفاهه قد تمادى كتب إليه: ما على ذاكنا افترقنا بسندا دولا هكذا رأينا الإخاء تضرب الناس بالمتقفة السم ر على غدرهم وتنسى الوفاء فلما قرأ أبياته دعا به فلما دنا منه سلم بالخلافة ووقف بين يديه فقال: يا عتابي بلغتنا وفاتك فغممتنا ثم انتهت إلينا وفادتك فسرنا فقال: يا أمير المؤمنين لو قسم هذا البر على أهل منى وعرفات لوسعهم فإنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك قال: سل حاجتك قال: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة.

فأحسن جائزته وانصرف وفود أبي عثمان المازني على الواثق أبو عثمان بكر بن محمد قال: وفدت على الواثق فلما دخلت وسلمت قال: هل خليت وراءك أحداً يهملك أمره قلت: أخية لي ربيتها فكانها بنتي قال: ليس شعري! ما قالت حين فارقتها قلت: أنشدتني قول الأعشى: تقول ابنتي يوم جد الرحيل أرانا سواء ومن قد يتم أبانا فلا رمت من عندنا فإننا نخاف بأن تخترم أرانا إذا أضمرتك البلاد نجفى وتقطع منا الرحم ثقي بالله ليس له شريك ومن عنده الخليفة بالنجاح قال: أتاك النجاح وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ثم قال: حدثني حديثاً ترويه عن أبي مهدية مستظرفاً قلت: يا أمير المؤمنين حدثني الأصمعي قال: قال لي أبو مهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواء في الهجاء قلت: نعم قال: فاقراً: الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ولا تقرأ الأعراب ولا يغرناك العزب وإن صام وصلّى.

فضحك الواثق حتى شغل رجله وقال: لقد لقي أبو مهدية من العزبة شراً وأمر له بخمسمائة دينار.

▲ الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية عامر الشعبي قال: وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان فاستأذنت عليه فأذن

مكتبة مشكاة الإسلامية

لها فلما دخلت عليه سلمت فقال لها: كيف أنت يا بنة الأشر قال: بخير يا أمير المؤمنين قال لها: أنت القائلة لأخيك: شمر كفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنازة الإيمان فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسانان قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب فدع عنك تذكاري ما قد نسي قال: هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته قال: قد فعلت: فقولني حاجتك قالت: يا أمير المؤمنين إنك للناس سيد ولأمورهم مقلد والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط سلطانك فيحصدنا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيصة ويسألنا الجلييلة هذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإما عزلته فشكرناك وإلا لا فعرفناك فقال معاوية: إياي تهددين بقومك! والله قد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك فسكتت ثم قالت: صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقروناً قال: ومن ذلك قالت: علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى قالت: وما أرى عليك منه أثراً قال: بلى أتيت يوماً في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً يصلي فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فيكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم إني لم أمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم.

قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ.

إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام.

فأخذته منه يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتبوا لها الإنصاف لها والعدل عليها فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة قال: وما أنت وغيرك قال: هي والله إذا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً وإلا يسعني ما يسع قوي قال: هيهات لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تفتطمون وعركم قوله: فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام وقوله: ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب كالهنداوي لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب اكتبوا لها بحاجتها على معاوية استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه وكانت امرأة قد أسنت وعشي بصرها وضعفت قوتها ترعش بين خادمين لها فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام وقال: كيف أنت يا خالة قالت:

مكتبة مشكاة الإسلامية

بخير يا أمير المؤمنين قال: غيرك الدهر قالت: كذلك هو ذو غير من عاش
كبر ومن مات قبر.

قال عمرو بن العاص: هي والله والقائلة يا أمير المؤمنين: يا زيد دونك
فاستشير من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا قد كنت أذخره ليوم كرهية
فاليوم أبرزه الزمان مصوناً قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:
أترى ابن هند للخلافة مالكاً هيئات ذاك - وإن إراد - بعيد منتك نفسك في
الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد قال سعيد بن العاصي: هي والله
القائلة: قد كنت أطمع أن موت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبة في كل
يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائلاً ثم سكتوا.

فقال: يا معاوية كلاك أعشى بصري وقصر حجلي أنا والله قائلة ما قالوا
وما خفي عليك مني أكثر فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك اذكري
حاجتك.

قالت: الآن فلا.

▲ وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغساني عن الشعبي قال: حدثني جماعة من بني أمية
ممن كان يسمر مع معاوية قالوا: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد
وعتبة والوليد إذ ذكروا الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية وكانت
شهدت مع قومه صفين فقال: أبحكم يحفظ كلامها قال بعضهم: نحن نحفظه
يا أمير المؤمنين قال: فأشيروا علي في أمرها فقال بعضهم: نشير عليك
بقتلها قال: بئس الرأي الذي أشرت به علي أيحس بمثل أن يتحدى عنه أنه
قتل امرأة بعدما ظفر بها! فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه ما ثقة
من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وأن يمهد لها وطاء لينا ويستترها
بستر خفيف ويوسع لها في النفقة فأرسل إليها فأقرأها الكتاب فقالت: إن
كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلي فإني لا أتية وإن كان حتم فالطاعة أولى.

فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً
وأهلاً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

أدام الله لك النعمة قال: كيف كنت في مسيرك قالت: ربيبة بيت أو طفلاً
ممهداً قال: بذلك أمرناهم أتدرين فيما بعثت إليك قالت: أنى لي بعلم ما لم
أعلم قال: ألسنت الراكبة الجمل الأحمر والوقفه بين الصفين يوم الصفين
تحضين على القتال.

وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس
وبتر الذنب ولم يعد ما ذهب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعد
الأمر قال لها معاوية: صدقت.

مكتبة مشكاة الإسلامية

أتحفظين كلامك يوم صفين قالت: لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته قال: لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين: أيها الناس ارعوا وارجعوا إنكم قد أصبحتم في فتنه غشتكم جلايب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيا لها فتنه عمياء صماء بكماء لا تسع لناعقها ولا تنساق لقائدها.

إن المصباح لا يضيء في الشمس ولا تنير الكواكب مع القمر ولا يقطع الحديد إلا الحديد.

ألا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص فكان قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة العدل ودمغ الحق باطله فلا يجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى ليقص الله أمراً كان مفعولاً.

ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء ولهذا اليوم ما بعده.

والصبر خير في الأمور عواقباً أيهاً في الحرب قدماً غير ناكسين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه قالت: أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك فمثلك بشر بخير وسر جليسه قال: أو يسرك ذلك قالت: نعم والله.

لقد سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل فضحك معاوية وقال: والله لوفأؤكم له بعد موته أعجب من حكم له في حياته اذكري حاجتك قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد من غير طلبه قال: صدقت وأمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكسا.

وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية

سعيد بن أبي حذافة قال: حبس مروان بن الحكم وهو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها فاتته جدة الغلام أم أبيه وهي أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية فكلمته في الغلام فأغلظ مروان فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسب فعرفها فقال لها: مرحباً يا بنة خيثمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدتكم تشيتمينا وتحضين علينا عدونا قالت: إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة وأحلاماً وافرّة لا يجهلون بعد علم ولا يسفّهون بعد حلم ولا ينتقمون بعد عفو وإن أولى الناس باتباع ما سن أبأؤه لأنت قال: صدقت نحن كذلك فكيف قولك: عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد والليل يصدر بالهموم ويورد يا آل مذحج لا مقام فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد هذا علي كالهلال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد خير الخلائق وابن عم محمد إن يهدكم

مكتبة مشكاة الإسلامية

بالنور منه تهتدوا ما زال مذ شهد الحروب مظفراً والنصر فوق لوائه ما يفقد قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده.

فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين وهي القائلة: فإذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغصون حمامة قمرباً قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيها فاليوم لا خلف يؤمل بعده هيهات نأمل بعده إنسيا قالت: يا أمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك الأوفر والله ما ورثك الشنان في قلوب المسلمين إلا هؤلاء فأدحض مقالتهم وأبعد منزلتهم فإنك إن فعلت ذلك تزد من الله قرباً ومن المؤمنين حبا قال: وإنك لتقولين ذلك قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا كان والله علي أحب إلينا منك وأنت أحب إلينا من غيرك قال: ممن قالت: مروان بن الحكم وسعيد بن العاصي قال: وبم استحققت ذلك عندك قالت: بسعة حلمك وكريم عفوك قال: فإنهما يطمعان في ذلك قال: والله لقد قاربت فما حاجتك قالت: يا أمير المؤمنين إن مروان تبنيك بالمدينة تبنيك من لا يريد منها البراح.

لا حكم بعدل ولا يقضي بسنة يتتبع عثرات المسلمين ويكشف عورات المؤمنين حبس ابن ابني فأتيته فقال: كيت وكيت فألقمته أخشن من الحجر وألغته أمر من الصاب ثم رجعت إلى نفس باللائمة وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعمو منه فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً وعليه معدياً قال: صدقت لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته اكتبوا لها بإطلاقه قالت: يا أمير المؤمنين وأنى لي بالرجعة وقد نفذ زادي وقلت راحلتي.

فأمر لها براحلة موطأة وخمسة آلاف درهم.

▲ وفود عكرشة بنت الأطرش على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكار لها فلمت عليه بالخلافة ثم جلست فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين قالت: نعم إذ لا علي حي قال: ألسنت المتقلدة حمائل السيف بصفين وأنت واقفة بين الصفيين تقولين: أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها ولا يرههم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فلبوه فإله الله عباد الله في دين الله وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ويطفئ نور الحق هذه بدر الصغرى والعقبة الأخرى يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيتمكم فكأنني بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فكأنني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشبة بنت الأطرش بن رواحة فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله وكان أمر الله قدراً مقدوراً فما حملك على ذلك قالت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم " وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يجب إعادته قال: صدقت فأذكرك حاجتك قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا وأنا قد فقدنا ذلك فما يجبر لنا كسير ولا ينعش لنا فقير فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك من انتبه عن الغفلة وراجع التوبة وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان الخونة ولا استعمل الظلمة.

قال معاوية: يا هذه إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق ويحور تنفهم قالت: يا سبحان الله والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو غلام الغيوب قال معاوية: هيهات يا أهل العراق نيهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا.

ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافها.

مع معاوية رحمه الله تعالى سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال: حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كناية كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية وكانت سوداء كثيرة اللحم فأخبر بسلامتها فبعث إليها فجيء بها فقال: ما حالك يا بنة حام فقالت: لست لحام إن عبتني أنا امرأة من بني كناية قال: صدقت أتدريين لم بعثت إليك قالت: لا يعلم الغيب إلا الله قال: بعثت إليك لأسألك غلام أحببت علياً وأبعضتني وواليتني وعاديتني قالت: أوتعفيني يا أمير المؤمنين قال: لا أعفيك قالت: أما إذ أبيت فأنى أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمه بالسوية وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحب المساكين وإعظامه لأهل الدين وعاديتك على سفكك الدماء وجورك في القضاء وحكمك بالهوى قال: فلذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك وربت عجيزتك قالت: يا هذا بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي قال معاوية: يا هذه اربعي فإننا لم نقل إلا خيراً إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها وإذا عظم ثديها تروى رضيعها وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها فرجعت وسكنت.

قال لها: يا هذه هل رأيت علياً قالت: إي والله قال: فكيف رأيت قالت: رأيت والله لم يفتنه الملك الذي فتتك ولم تشغله النعمة التي شغلتك قال: فهل سمعت كلامه قالت: نعم والله فكان يجلو القلب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست قال: صدقت فهل لك من حاجة قالت: أو تفعل إذا سألتك قال: نعم قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فحلها وراعيها قال: تصنعين بها ماذا قالت: أغدوا بالبانها الصغر وأستحيي بها الكبار وأكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب قالت: ماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك يا: سبحان الله أو دونه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فأنشأ معاوية يقول: إذ لم أعد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم خذيها هنيئاً واذكري فعل ما جد جزاك على حرب العداوة بالسلم ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

▲ وفود أم الخير بنت الحريش

عبيد الله بن عمر الغساني عن الشعبي قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقه البارقي برحلتها وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً وبالشر شراً.

فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدري.

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلي أنه مجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً فمالي عندك يا هذا لا يطمعنك برك بي أن أسرك بباطل ولا تؤيسك معرفتي بك أن يقول فيك غير الحق.

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأنزلها مع الحرم ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير بحق ما دعوتني بهذا الاسم قالت: يا أمير المؤمنين مه فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه و لكل أجل كتاب قال: صدقت فكيف حالك يا خالة وكيف كنت في مسيرك قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق عند ملك رفيق قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم قالت: يا أمير المؤمنين يعيدك الله من دحض المقال وما تردي عاقبته قال: ليس هذا أردنا أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر قالت: لم أكن زورته قبل ولا رويته يعد وإنما كانت كلمات نفتها لساني عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالاً عن ذلك فعلت قال: لا أشاء ذلك.

فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال: أيكم يحفظ كلامها فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين قال: هات قال: كأنني بها وعليها برد زبيدي كثيف النسيج وهي على جمل أرمك وقد أحيط حولها وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم إن الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل وبين السبيل ورفع العلم ولم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فأين تريدون رحمكم الله أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتداداً عن الحق أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: " ولينولنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم " .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وييدك يا رب أزمة القلوب فاجمع اللهم بها الكلمة على

مكتبة مشكاة الإسلامية

التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضي التقي والصديق الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أجدية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون.

صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأنني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى وعمما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ولات حين مناص إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها واستطابوا الآخرة فسعوا لها فالله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبي سبطيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وأبان بغيضه المنافقين وها هو ذا مغلق الهام ومكسر الأصنام صلى والناس مشركون.

وأطاع والناس كارهون فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد وهزم الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر وفرق بن جمع هوازن.

فيالها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً وردة وشقاقاً وزادت المؤمنين أيماناً قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائقه قال: هيهات يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله قالت: وما عسيت أن أقول في عثمان استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون قال معاوية: يا أم الخير هذا أصلك الذي تبيين عليه قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً ما أردت بعثمان نقصاً ولكن كان سابقاً إلى الخير وإنه لرفيع الدرجة غداً.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله قالت: وما عسى أن أقول في طلحة اغتيل من مأمنه وأتي من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة.

قال: فما تقولين في الزبير قالت: وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ولقد كان سابقاً إلى كل مكرمة في الإسلام.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وأنا أسألك بحق الله يا معاوية - فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها - أن تسعني بفضل حلمك و أن تعفني من هذه المسائل وتسالني عما شئت من غيرها قال: نعم ونعمة عين قد أعفيتك منها ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردها مكرمة.

▲ وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله

العباس بن مكار قال: حدثني عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا عمّة فكيف كنت بعدنا فقالت: يا بن أخي لقد كفرت يد النعمة وأسأت لابن عمك الصعبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ولا سابقة في الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم فأتعس الله منك الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور فوليتم علينا من بعده تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة وأقصري من قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا بن النابغة تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وأخذهن لأجرة ادعاك خمسة نفر من قريش فسئلت أمك عنهم فقالت: كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فالحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به.

فقال مروان: كفى أيتها العجوز واقصدي لما جئت له.

فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جراً علي هؤلاء غيرك فإن أمك القائلة في قتل حمزة: نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر ما كان لي عن عتبة من صبر وشكر وحشى علي دهرى حتى ترم أعظمي في قبري فأجابتها بنت عمي وهي تقول: خزيت في بدر وبعد بدر يا بنة جبار عظيم الكفر فقال معاوية: عفا الله عما سلف يا عمّة هات حاجتك قالت: مالي إليك حاجة وخرجت عنه.

▲ كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الوفود والوفادات ومقاماتهم بين يدي نبي الله صلى الله عليه وسلم وبين يدي الخلفاء والملوك ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مخاطبة الملوك والتزلف إليهم بسحر البيان الذي يمازج الروح لطافة ويجري مع النفس رقة والكلام الرقيق مصايد القلوب وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظاً والمندمل حقداً حتى يطفئ جمرة غيظه ويسل دفائن حقه وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ويأخذ بسمع الكريم وبصره وقد جعله

مكتبة مشكاة الإسلامية

الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلة نافعة وشافعاً مقبولاً قال تبارك وتعالى: " [فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم](#) ".

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلص من أنشودة الهلاك وتفلت من حبال المنية بحسن التفصيل ولطيف التوصل ولين الجواب ورقيق الاستعتاب حتى عادت سياته حسنات وعيض بالثواب بدلاً من العقاب.

وحفظ هذا الباب أوجب على الإنسان من حفظ عرضه وألزم له من قوام بدنه.

كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه ومن به على عباده فقال تعالى: " [الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان](#) ". وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: فيم الجمال فقال: في اللسان يريد البيان.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً.

وقالت العرب: أنفذ من الرمية كلمة فصيحة.

وقال الراجز: لقد خشيت أن تكون ساحراً راوية طوراً وطوراً شاعراً.

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: البيان بصر والعي عمى كما أن العلم بصر والجهل عمى.

والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل.

وقالوا: ليس لمنقوص البيان بهاء ولو حك بيافوخه عنان السماء.

وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين.

وقال: الروح عماد البدن والعلم عماد تيجيل الملوك وتعظيمهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا.

وقالت العلماء: لا يؤم ذو سلطان في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال زياد ابن أبيه: لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين.

وقال يحيى بن خالد بن برمك: مساءلة الملوك عن حالها من سجية النوكى فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير فقل: أصبح الله الأمير بالنعمة والكرامة وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف وأنشد: إن

مكتبة مشكاة الإسلامية

الملوك لا يخاطبون ولا إذا ملوا يعاتبونا وفي المقال لا ينازعونا وفي العطاس لا يشمتونا وفي الخطاب لا يكيّفونا يثنى عليهم ويبجلونا اعتل الفضل بن يحيى فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يزد على السلام عليه والدعاء له ويخفف في الجلوس ثم يلقي حاجبه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه وكان غيره يطيل الجلوس.

فلما أفاق من علقته قال: ما عادني في علتي هذه إلا إسماعيل بن صبيح.

وقال أصحاب معاوية له: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم.

وقيل ذلك ليزيد فقال: إذا قلت: على بركة الله.

وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال: إذا وضعت الخيزرانة من يدي.

ومن تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه ولا يدعه يمشي إليهما ويجعل النعل اليمنى مقابلة الرجل اليمنى واليسرى مقابلة اليسرى وإذا رأى متكأً يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يؤمر فلا ينتظر في ذلك ويتفقد الدواة قبل أن يأمره وينفض عنها الغبار إذا قربها إليه وإن رأى بين يديه قرطاساً قد تباعد عنه قربه ووضع بين يديه على كسره.

ودخل الشعبي على الحجاج فقال له: كم عطاك قال: ألفين قال: وبحك! كما عطاؤك قال ألفان قال: فلم لحت فيما لا يلحن فيه مثلك قال: لحن الأمير فلحنت وأعرب الأمير فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول قبله.

فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً.

قبلة اليد ذكر عبد الرحمن بن أبي ليلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن حديث عبد الرحمن وكيع عن سفيان قال قال: قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ومن حديث الشعبي قال: لقي النبي عليه الصلاة والسلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فالتزمه وقبل ما بين عينيه.

قال إياس بن دغفل: رأيت أبا نضرة يقبل خد الحسين.

الشيباني عن أبي الحسن عن مصعب قال: العتبي قال: دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبل يده وقال: يدك يا أمير المؤمنين أحق يد بالتقيل لعلوها في المكارم وطهرها من المآثم وإنك تقل التثريب وتصفح عن الذنوب فمن أراد بك سوءاً جعله الله حصيد سيفك وطريد خوفك.

مكتبة مشكاة الإسلامية

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجري على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين نغض فمي وأنتم أهل البيت بركة فلو أذنت فقبلت رأسك لعل الله يمسك علي ما بقي من أسناني قال: اختر بينها وبين الجائزة فقال: يا أمير المؤمنين أيسر علي من ذهاب الجائزة أن لا تبقى في فمي حاكة فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

ودخل جعفر بن يحيى في زي العامة وكتمان النباهة على سليمان صاحب بيت الحكمة معه ثمامة بن أشرس فقال ثمامة: هذا أبو الفضل فنهض إليه سليمان فقبل يده وقال له: بأبي أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك ثقل هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها.

الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت فأخذ عبد الله بن عباس بركابه فقال له: لا تفعل يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هكذا: أمرنا أن نفعل بلعمائنا فقال له زيد: أرني يدك فأخرج إليه يده فأخذها وقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقالوا: قبله الإمام في اليد وقبله الأب في الرأس وقبله الأخ في الخد وقبله الأخت في الصدر وقبله الزوجة في الفم.

من كره من الملوك تقبيل اليد

العتبي قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده فقال: أف له إن العرب ما قبلت الأيدي إلا هلوغاً ولا فعلته العجم إلا خضوعاً.

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده فقال له: إن قبله اليد من المسلم ذلة ومن الذمي خديعة ولا حاجة بك أن تذلل ولا بنا أن نخدع.

واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده فقال: أما هذه فدعها قال: ما منعت عيالي شيئاً أيسر فقدأ عليهم من هذه.

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة: كيف زمانك يا معن قال: يا أمير المؤمنين أنت الزمان فإن أصلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان.

وهذا نظير قول سعيد بن سلم وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من بيت قيس في الجاهلية قال: يا أمير المؤمنين بنو فزارة قال: فمن بيتهم في الإسلام قال: يا أمير المؤمنين الشريف من شرفتموه قال: صدقت أنت وقومك.

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر فقال له: كبرت يا معن قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين قال: وإنك لجلد قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين قال وإن فيك لبقية قال: هي لك يا أمير المؤمنين قال أي الدولتين أحب إليك أو أبغض أدولتنا أم دولة بني أمية قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين وإن زاد

مكتبة مشكاة الإسلامية

برك على برهم كانت دولتك أحب إلي وإن زاد برهم على برك كانت دولتهم أحب إلي قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلك قال: هو لأمير المؤمنين ولي به قال: كيف ماؤه قال: أطيب ماء قال: فكيف هواؤه قال: أصح هواؤه.

وقال أبو جعفر المنصور لجريز بن يزيد: إنك أردتكَ لأمرٍ قال: يا أمير المؤمنين قد أعد الله لك مني قلباً معقوداً بطاعتك ورأياً موصولاً بنصيحتك وسيفاً مشهوراً على عدوك فإذا شئت وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله قال: يا أمير المؤمنين إن مدحته عبته وإن ذمته اغتبه ولكنه قدح في كف مثقف ليوم نضال في خدمة أمير المؤمنين.

وأمر بعض الخلفاء رجلاً بأمر فقال: أنا أطوع من الرداء وأذل لك من الحذاء. وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات.

وقال آخر: أطوع لك من يدك وأذل لك من نعالك وقال المنصور لمسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم قال: "[لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا](#)".

قال: حسبك أبا أمية.

وقال المأمون ليزيد بن يزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة قال: بلى ولكن منابرهم الجدوع.

وقال المنصور لإسحاق بن مسلم: أفرطت في وفائك لبني أمية قال: يا أمير المؤمنين إنه من وفئ لمن لا يرجى كان لمن يرجى أوفى.

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منيج قال: رقيقة الهواء لينة الوطاء قال: فصف لي منزلك بها قال: دون منازل أهلي وفوق منازل أهلها قال: ولم قدرك فوق أقدارهم قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثره وأحذو مثاله.

ودخل المأمون يوماً بيت الديوان فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم فقال: من أنت يا غلام قال: أنا الناشئ في دولتك والمتقلب في نعمتك والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

علي بن يحيى قال: إنني عند المتوكل حين دخل عليه الرسول برأس إسحق بن إسماعيل فقام علي بن الجهم يخطر بين يدي المتوكل ويقول: أهلاً وسهلاً بك من رسول جئت بما يشفي من الغليل برأس إسحق بن إسماعيل فقال المتوكل: قوموا التقطوا هذا الجوهر لئلا يضيع.

ودخل عقال بن شبة على أبي عبيد الله كاتب المهدي فقال: يا عقال لم أرك منذ اليوم قال: والله إنني لألقاك بشوق وأغيب عنك بتوق.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال عبد العزيز بن مروان لنصيب بن رياح - وكان أسود - يا نصيب هل لك فيما يثمر المحادثة يريد المنادمة فقال: أصلح الله الأمير اللوم مرمد والشعر مفلفل ولم أقعد إليك بكريم عنصر ولا بحسن منظر وإنما هو عقلي ولساني فإن رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل.

ولما ودع المأمون الحسن بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام وقال له: يا أبا محمد ألك حاجة تعهد إلي فيها قال: نعم يا أمير المؤمنين أن تحفظ علي من قلبك ما لا أستعين على حفظه إلا بك.

وقال سعيد بن سلم بن قتيبة للمأمون: لو لم أشكر الله إلا على حسن ما أبلاني في أمير المؤمنين من قصده إلي بحديثه وإشارته إلي بطرفه لكان ذلك من أعظم ما توجهه النعمة وتفرضه الصنيعة قال المأمون: ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت وحسن الفهم إذا حدثت ما لا يجده عند غيرك.

▲ مدح الملوك والتزلف إليهم

في سير العجم أن أردشير بن يزجرد لما استوثق له أمره جمع الناس فخطبهم خطبة حضمهم فيها على الألفة والطاعة وحذرهم المعصية ومفارقة الجماعة وصنف لهم الناس أربعة أصناف فخرؤا له سجداً.

وتكلم متكلمهم فقال: لا زلت أيها الملك محبوباً من الله بعز النصر ودرك الأمل ودوام العافية وتمام النعمة وحسن المزيد ولا زلت تتابع لديك المكرمات وتشفع إليك الذمامات حتى تبلغ الغاية التي يؤمن زوالها ولا تنقطع زهرتها في دار القرار التي أعدها الله لنظرائك من أهل الزلفى عنده والحظوة لديه ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر زائدين زيادة البحور والأنهار حتى تستوي أقطار الأرض كلها في علوك عليها ونفاذ أمرك فيها فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الصبح ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بانفسنا اتصال النسيم فأصبحت قد جمع الله بك الأيادي بعد افتراقها وألف بين القلوب بعد تباعضها وأذهب عنا الإحن والحسائف بعد توقد نيرانها بفضلك الذي لا يدرك بوصف ولا يحد بنعت.

فقال أردشير: طوبى للممدوح مستحقاً وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً.

ودخل حسان بن ثابت على الحارث الجفني فقال: أنعم صباحاً أيها الملك السماء غطاؤك والأرض وطاؤك ووالدي فداؤك أنى يناوئك المنذر فوالله لقدالك أحسن من وجهه ولأمك أحسن من أبيه ولظلك خير من شخصه ولصمتك أبلغ من كلامه ولشمالك خير من يمينه.

ثم أنشأ يقول: ونبئت أن أبا منذر يساميك للحدث الأكبر قذالك أحسن من وجهه وأمك خير من المنذر ويسرى يديك إذا أعسرت كيمنى يديه فلا تتمر ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة فقال: يا أمير المؤمنين من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها ومن تكون

مكتبة مشكاة الإسلامية

شرفته فأنت قد شرفتها وأنت كما قال الشاعر: وإذا الدر زان حسن وجوه
كان للدر حسن وجهك زينا.

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أعطي صاحبكم مقولاً ولم يعط
مقولاً.

ذكر بن أبي طاهر قال: دخل المأمون بغداد فتلقيه وجوه أهلها فقال له رجل
منهم: يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك وزادك في نعمتك وشكرك
على رعتك تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك وأيست أن يعاين مثلك أما
فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه فنحن جميعاً ندعو لك ونشني
عليك خصب لنا جنابك وعذب شرابك وحسنت نظرتك وكرمت مقدرتك
جبرت الفقير وفككت الأسير فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول: ما زلت
في البذل للنوال وإط لاق لعان بجرمه علق حتى تمنى البراء أنهم عندك
أسرى في القيد والحلق ودخل رجل على خالد بن عبد الله القسري فقال:
أيها الأمير إنك لتبذل ما جل وتجبر ما اعتل وتكثر ما قل ففضلك بديع ورأيك
جميع.

وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرت لا أستكثر كثيرك ولا أستقل قليلك
قال: وكيف ذلك قال: لأنك أكثر من كثيرك ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك.

وقال خالد بن صفوان لوال دخل عليه: قدمت فأعطيت كلاً بقسطه من
نظرك ومجلسك وصلاتك وعداتك حتى كأنك من كل أحد وكأنك لست من
أحد.

وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً قال: يا أمير المؤمنين
المدح كله دون قدرك والشعر فيك فوق قدرتي ولكني أستحسن قول
العتابي: فت الممدوح إلا أن ألسنتنا مستنطقات بما تخفي الضماير مدح خالد
بن صفوان رجلاً فقال: قريع المنطق جزيل الألفاظ عربي اللسان قليل
الحركات حسن الإشارات حلو الشمائل كثيرة الطلاوة صموتاً قوولاً يهناً
الجرب ويداوي الدبر ويقل الحز ويطبق المفصل لم يكن بالبرم في مروءته
ولا بالهذر في منطقه متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار دخل سهل بن هارون على الرشيد فوجده يضحك
ابنه المأمون فقال: اللهم زده من الخيرات وابسط له في البركات حتى
يكون كل يوم من أيام موفياً على أمسه مقصراً على غده فقال له الرشيد:
يا سهل من روي من الشعر أحسن وأجوده ومن الحديث أصحه وأبلغه ومن
البيان أفصحه وأوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه قال سهل: يا أمير
المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمني سبقني إلى هذا المعنى فقال: بل أعشى
همدان حيث يقول: وجدتك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سيادة عبد شمس وكان المأمون قد
استنقل سهل بن هارون فدخل عليه يوماً والناس عنده على منازلهم فتكلم
المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب فلما فرغ أقبل سهل بن هارون على ذلك
الجمع فقال لهم: ما لك تسمعون ولا تعون وتفهمون ولا تعجبون وتعجبون ولا

مكتبة مشكاة الإسلامية

تصفون أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثل ما قالت وفعلت بنو مروان في الدهر الطويل عربكم كعجمهم وعجمهم كعرب بني تميم ولكن كيف يشعر بالدواء من لا يعرف الداء قال: فرجع له المأمون إلى رآيه الأول.

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان قال زياد: يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينو وسهمك الذي لا يطيش وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم.

فلم يكن بعد ذلك أحد أخف على الحجاج ولا أحب إليه منه.

حدث الشيباني قال: أقام المنصور صالحاً ابنه فتكلم في أمر فأحسن فقال شبيب بن شيبه: تالله ما رأيت كاليوم أئين بياناً ولا أعرب لساناً ولا أربط جاشاً ولا أبل ريقاً ولا أحسن طريقاً وحق لمن كان المنصور أباه والمهدي أخاه أن يكون كما قال زهير: هو الجواد فإن يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا أو يسبقاه على ما كان من مهله فمثل ما قدما من صالح سبقا وخرج شبيب بن شيبه من دار الخلافة يوماً فقيل له: كيف رأيت الناس قال: رأيت الداخل راجياً والخارج راضياً.

وقيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعد له فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح.

قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعده المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: فمنها الأسد الخادر والبحر الزاخر والقمر الباهر والربيع الناضر فأما الأسد الخادر فأشبهه منه صولته ومضاءه وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وعطاءه وأما القمر الباهر فأشبهه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه وبهائه ثم نزل.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تكلم بحاجتك قال: يا أمير المؤمنين بهر الدرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك قال: فعلى رسلك فإننا لا نحب مدح المشاهدة ولا تزكية اللقاء قال: يا أمير المؤمنين لست أمدحك ولكن أحمد الله على النعمة فيك قال: حسبك فقد أبلغت.

ودخل رجل على المنصور فقال له: تكلم بحاجتك فقال: يبيك الله يا أمير المؤمنين قال: تكلم بحاجتك فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين قال: والله يا أمير المؤمنين ما أستقصر أجلك ولا أخاف بخلك ولا أعتنم مالك وإن عطاءك لشرف وإن سؤال لزين وما لامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين.

قال: فاحسن جائزته وأكرمه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

حدث إبراهيم بن السندي قال: دخل العماني على المأمون وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج فقال له: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان رائقان.

قال: فغدا علي في زي الأعراب فأنشده ثم دنا فقبل يده وقال: قد والله يا أمير المؤمنين أنشدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ورأيت وجوههما وقبلت أيديهما وأخذت جوائزهما وأنشد مروان وقبلت يده وأخذت جائزته وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته وأنشدت المهدي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبراء الأمراء والسادة الرؤساء فلا والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فيهم أبهى منظراً ولا أحسن وجهاً ولا أنعم كفاً ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين.

قال: فأعظم له الجائزة على شعره وأضعف له علي كلامه وأقبل عليه بوجهه وبشره فبسطه حتى تمنى جميع من حضره أنهم قاموا مقامه.

حدث العتبي عن سفيان بن عيينة قال: قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق فنظر إلى شاب منهم يتحوش للكلام فقال: أكبروا أكبروا فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس بالسن ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من أهو أسن منك فقال عمر: صدقت رحمك الله تكلم فقال: يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا وقدمت علينا بلادنا وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك قال: فما أنتم قال: وفد الشكر قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل فقال: يا أمير المؤمنين لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك فإن ناساً خدعهم الثناء وعرهم شكر الناس فهلكوا وأنا أعيدك بالله أن تكون منهم فألقى عمر رأسه على صدره.

▲ التنصل والاعتذار

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من لم يقبل من متنصل عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يرد على الحوض.

وقال صلى الله عليه وسلم: المعترف بالذنب كمن لا ذنب له.

وقال: الاعتراف يهدم الاقتراف.

وقال الشاعر: إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تغفر له فلك الذنب واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدي فقال: قد عذرتك غير معتذر إن المحاذير يشوبها الكذب.

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال إبراهيم الموصلي: سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخر حاجة ضمنها له وهو يقول: أحتج إليك بغالب القضاء وأعتذر إليك بصادق النية.

وقال رجل لبعض الملوك: أنا من لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك في جرمه ولا يلتمس رضاك إلا من جهة عفوك ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزلة.

وقال الحسن بن وهب: ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذي ناصر إن كان لي ذنب ولا ذنب لي فما له غيرك من غافر أعوذ بالود الذي بيننا أن يفسد الأول بالآخر وكتب الحسن بن وعب إلى محمد بن عبد الملك الزيات: أبا جعفر ما أحسن العفو كله ولا سيما عن قائل: ليس لي عذر وقال آخر: أقبل معاذير من ياتيك معتذراً إن بر عندك فيما قال أو فجرا فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا خير الخليطين من أغضى لصاحبه ولو أراد انتصاراً من لانتصرا وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعة العدل.

وقال آخر: لعل له عذراً وأنت تلوم وقال حبيب: البر بي منك وطى العذر عندك لي فيما أتاك فلم تقبل ولم تلم وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم وقال آخر: إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب ومن قولنا في هذا المعنى: عذيري من طول البكا لوعة الأسى وليس لمن لا يقبل العذر من عذر وقال آخر: فهيني مسيئاً كالذي قلت ظالماً فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل فإن لم أكن للعفو عندك للذي أتيت به أهلاً فأنت له أهل ومن الناس من لا يرى الاعتذار ويقول: إياك وما يعتذر منه.

وقالوا: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنباً.

إذا كان وجه العذر ليس بين فإن أطراح العذر خير من العذر قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة فراني أحدثهم سناً فقال لي: من أنت فانتسبت له فقال: لقد كان أبوك وعمك نعاقين في فتنة ابن الأشعث فقلت: يا أمير المؤمنين إن مثلك إذا عفا لم يعدد وإذا صفح لم يثرب.

فأعجبه ذلك وقال: أين نشأت قلت: بالمدينة قال: عند من طليت قلت: سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب قال: فأين أنت من عروة بن الزبير فإنه بحر لا تكدره الدلاء.

فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

ودخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي فرآه معرضاً عنه فقال: مالي أرى الأمير كالعاتب علي قال: ذلك لشيء بلغني عنك كرهته قال: إذا لا أبالي قال: ولم قال: لأنه إذا كان ذنباً غفرته وإن كان باطلاً لم تقبله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ودخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور وكان واجداً عليه فقال له: تكلم بحجتك فقال لو كان لي ذنب تكلمت بعذري ولكن عفو أمير المؤمنين أحب إلي من براءتي.

وأتي موسى الهادي برجل فجعل يقرعه بذنوبه فقال: يا أمير المؤمنين إن اعتذاري مما تقررني فإن كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر سعي بعبد الملك بن الفارسي إلى المأمون فقال له المأمون: إن العدل من عدله أبو العباس وقد كان وصفك بما وصفك به ثم أتتني الأخبار بخلاف ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن الذي بلغك عني تحميلي علي ولو كان كذلك لقلت: نعم كما بلغك فأخذت بحظي من الله في الصدق واتكلت على فضل أمير المؤمنين في سعة عفوهِ قال: صدقت.

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات النصره فجار فيها وظلم فكثر الشاكي له والداعي عليه ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلاً من جلة البصريين فعزله المأمون وجلس لهم مجلساً خاصاً وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم.

فكان مما حفظ من كلامه أن قال: يا أمير المؤمنين لو أن أحداً ممن ولي الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل: " ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون " فأعجب المأمون جوابه واستجزل مقاله وخلي سبيله.

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: قال لي أبو عبد الله أحمد بن أبي داود: دخلت على الواثق فقال لي: ما زال قوم في ثلبك ونقصك فقلت: يا أمير المؤمنين.

" لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم " والله ولي جزائه وعقاب أمير المؤمنين من وراءه وما ذل من كنت ناصره ولا ضاع من كنت حافظه فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين قال: قلت أبا عبد الله: وسعى إلي بعيب عزة نسوة جعل الإله خدودهن نعالها قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي داود: إن قوماً تظافروا علي قال: " يد الله فوق أيديهم ".

قلت: إنهم عدد وأنا واحد قال: " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ".

قلت: إن للقوم مكرراً قال: " ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ".

قال أبو العيناء: فحدثت بها الحديث أحمد بن يوسف الكاتب فقال: ما يرى ابن أبي داود إلا أن القرآن أنزل عليه.

قال: وهجا نهار بن توسعة قتيبة بن مسلم وكان ولي خراسان بعد يزيد بن المهلب فقال: كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح

مكتبة مشكاة الإسلامية

فبدلت بعده قرداً نطوف به كأنما وجهه بالخل منضوح فطلبه فهرب منه ثم دخل عليه بكتاب أمه فقال له: ويحك! بأي وجه تلقاني قال: بالوجه الذي ألقى به ربي وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك.

فقر به ووصله وأحسن إليه.

وأقبل المنصور يوماً ركباً والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب فقام الناس إليه ولم يقم فاستشيط المنصور غيظاً وغيظاً ودعا به فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت ويسألك عنه لم رضيت وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فسكن غضبه وقر به وقضى حوائجه.

يحيى بن أكثم قال: إني عند المأمون يوماً حتى أتني برجل ترعد فرائضه فلما مثل بين يديه قال له المأمون: كفرت نعمتي ولم تشكر معروفني قال له: يا أمير المؤمنين وأين يقع شكري في جنب ما أنعم الله بك علي فنظر المأمون إلي وقال متمثلاً: فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لكثرة مال أو علو مكان لما ندب الله العباد لشكره فقال أشكروا لي أيها الثقلان ثم التفت إلى الرجل فقال له: هلا قلت كما قال أصرم بن حميد: رشحت حمدي حتى إنني رجل كلي بكل ثناء فيك مشغول خولت شكري ما خولت من نعم فحر شكري لما خولتني خول الاستعطاف والاعتراف لما سخط المهدي على يعقوب بن داود قال له: يا يعقوب قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب لموجدتك قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنت وضيعاً وأبعد من ذكرك إذ كنت خاملاً وألبسك من نعمتي ما لم أجد بها يدين من الشكر فكيف رأيت الله أظهر عليك ورد إليك مني قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديق معترف منيب وإن كان مما استخرجته دفائن الباغين فعائذ بفضلك فقال: والله لولا الحنث في دمك بما تقدم لك لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً ثم أمر به إلى الحبس.

فتولى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم والمودة رحم وأنت بها جدير.

أخذت الشعراء معنى قول المهدي: لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً فقال معلي الطائي: طوقته بالحسام طوق ردى ما يستطيع عليه شد أزرار وقال حبيب: طوقته بالحسام طوق داهية أغناه عن مس طوقه بيده ومن قولنا: ولما رضي الرشيد عن يزيد بن مزيد أذن له بالدخول عليه فلما مثل بين يديه قال: الحمد لله الذي سهل لي سبيل الكرامة بلقائك ورد على النعمة بوجه الرضا منك وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سخطك جزاء المحسنين المرغبين وفي حال رضاك جزاء المنعمين المتطولين: فقد جعلك الله وله الحمد تثبت تحرجاً عند الغضب وتمتن تطولاً بالنعم وتستبقي المعروف عند الصنائع تفضلاً بالعفو.

ولما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي - وهو الذي يقال له ابن شكلة - أمر بإدخاله عليه فلما مثل بين يديه قال: ولي الثار محكم في القصاص والعفو

مكتبة مشكاة الإسلامية

للتقوى وقد جعل الله كل ذنب دون عفوكم فإن صفحت فيكرمكم وإن أخذت فيحقكم.

قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك فأشارا علي به قال: أما أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله ثم استعبر باكياً قال له المأمون: ما يبكيك قال: جزلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته ثم قال: يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي فحلتم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوهُ ولي بعدها شفاعة الإقرار بالذنب وحرمة الأب بعد الأب قال المأمون: لو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك إليه حسن توصلك ولطيف تنصلك.

وكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحاق والعباس ألطف في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما.

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت إجلالك مع ابن المهلب وتأبيدك لرأيه وإيقادك لناره قال: يا أمير المؤمنين والله لإجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمي إليك ولرحمي أمس من أرحامهم وقد قال كما قال يوسف لإخوته: " [لا تشرى عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين](#) " وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه المنة وممثل لها قال: هيهات تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجرمك جرم في إسلامك وفي دار خلافتك قال: يا أمير المؤمنين فوالله للسلام أحق بإقالة العثرة وغفران الزلة من الكافر هذا كتاب الله بيني وبينك يقول الله تعالى: " [وسارعوا إلى مغفرة من ربكم](#) " إلى " [والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين](#) ".

فهي للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف قال: صدقت اجلس وريت بك زنادي فلا برح نادماً من القادرين من أهلك وأمثالك.

العتبي عن أبيه قال: قبض مروان بن محمد من معاوية بن عمرو بن عتبة ماله بالفرسان وقال: إني قد وجدت قطيعة عمك لأبيك: إني أقطعتك بستاني والبستان لا يكون إلا غامراً وأنا مسلم إليك الغامر وقابض منك الغامر فقال: يا أمير المؤمنين إن سلفك الصالح لو شهدوا مجلسنا هذا كانوا شهوداً على ما ادعيتهم وشفعاء فيما طلبته يسألونك بإحسانك إلي مكافأة إحسان سلفي إليهم فشفع فينا الأموات واحفظ منا القرايات واجعل مجلسك هذا مجلساً يلزم من بعدنا شكره قال: لا والله إلا أن أجعلها طعمة مني لك لا قطيعة من عمك لأبيك قال: قد قبلت ذلك ففعل.

العتبي قال: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجوده وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية فدخل عليه عمر بن عتبة فقال: يا أمير المؤمنين إن أدنى حقك معتب وبعضه فادح لنا ولنا من حقك علينا حق عليك بإكرام سلفنا لسلفك فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم

مكتبة مشكاة الإسلامية

وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك قال: عبد الملك: إنما ما يستحق عطيتي من استعطاها فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه فسنكله إلى نفسه ثم أمر له بعطيته.

فبلغ ذلك خالداً فقال: أبا لحرمان يهددني! يد الله فوق يده باسطة وعطاء الله دونه مبذول فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

العتبي قال: حدثنا طارق بن المبارك عن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة قال: جاءت دولة المسودة وأنا حديث السن كثير العيال متفرق المال فجعلت لا أنزل قبيلة من قبائل العرب إلا شعرت فيها فلما رأيت أمري لا يكتتم أتيت سليمان بن علي فاستأذنت عليه قرب المغرب فأذن لي وهو لا يعرفني فلما صرت إليه قلت: أصلحك الله لفظتني البلاد إليك ودلني فضلك عليك فإما قبلتني غانماً وإما رددتني سائلاً قال: ومن أنت فانتسبت له فعرفني وقال: مرحباً أقعد فتكلم غانماً قلت: أصلحك الله إن الحرم اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن بخوفنا ومن خاف خيف عليه قال: فاعتمد سليمان على يديه وسالت دموعه على خديه ثم قال: يا بن أخي يحقن الله دمك ويسترحمك ويسلم مالك إن شاء الله ولو أمكنتني ذلك في جميع قومك لفعلت.

فلم أزل في جوار سليمان آمناً.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين فإننا إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم ولم نحاربهم على أرحامهم وقد دفت إلي منهم دافة.

لم يشهروا سلاحاً ولم يكثروا جمعاً وقد أحسن الله إليك فأحسن فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أماناً ويأمر بإنفاذه إلي فليفعل.

فكتب لهم كتاباً منشوراً وأنفذه إلى سليمان بن علي في كل من لجأ إليه من بني أمية فكان ودخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد فقال متمثلاً: أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد ثم قال: أما والله لكأنني أنظر إلى شؤبؤها قد همع وعارضها قد لمع وكأنني بالوعيد قد وقع فأقلع عن براجم بلا معاصم وجمام بلا غلاصم فمهلاً مهلاً فبي والله يسهل لكم الوعر.

ويصفو لكم الكدر وألقت إليكم الأمور مقاليد أزمتهما فالتدارك التدارك قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل.

قال عبد الملك: أفذاً ما تكلمت أم توأمًا يا أمير المؤمنين قال: بل فذاً قال اتق الله في ذي رحمك وفي رعيتك التي استرعاك الله ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد محضت لك النصيحة وأديت لك الطاعة وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يللمم وتركت عدوك سبيلاً تتعاوره الأقدام فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته إن الكتاب

مكتبة مشكاة الإسلامية

لنميمة واش وبغي باغ ينهش اللحم وبلغ في الدم فكم ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق فرجته وكنت كما قال الشاعر أخو بني كلاب: ومقام ضيق فرجته بلساني ومقامي وجدل لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزجل والتفت الرشيد يوماً إلى عبد الملك بن صالح فقال: أكفراً بالنعمة وغدراً بالإمام قال: لقد بؤت إذا بأعباء الندم وسعيت في استجلاب النقم وما ذلك يا أمير المؤمنين إلا بغي باغ نافسني فيك بقديم الولاية وحق القرابة يا أمير المؤمنين إنك خليفة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في أمته وأمينه على رعيته لك عليها فرض الطاعة وأداة النصيحة ولها عليك التثبيت في حادثها والعدل في حكمها.

فقال له هارون: تضع لي من لسانك وترفع علي من جنانك بحيث يحفظ الله لي عليك هذا قمامة كاتبك يخبرني بفعلك فقال عبد الملك: أحقاً يا قمامة قال: نعم لقد أردت قتل أمير المؤمنين والغدر به فقال عبد الملك: كيف لا يكذب علي من خلفي من بهتني في وجهي! قال الرشيد: هذا ابنك عبد الرحمن شاهد عليك قال: يا أمير المؤمنين هو بين مأمور أو عاق فإن كان مأموراً معذور وإن كان عاقاً فما أخاف من عقوقه أكثر.

وقال له الرشيد يوماً وكان معتلاً عليه: أتبقون بالرقعة قال: نعم ونبرغث قال له: يا بن الفاعلة ما حملك على أن سألتك عن مسألة فرددت علي في مسألتين وأمر به إلى الحبس.

فلم يزل في حبسه حتى أطلقه الأمين.

إبراهيم بن السندي قال: سمعت عبد الملك بن صالح يقول بعد إخراج المخلوع له من الحبس وذكر الرشيد وفعله به فقال: والله إن الملك لشيء ما نوبته ولا تمنيته ولا نصبت له ولا أردته ولو أردته لكان إلي أسرع من الماء إلى الحدور ومن النار إلى بيس العرفج وإني لماخوذ بما لم أجن ومسؤول عما لم أعرف ولكن حين رأني للملك قميناً وللخلافة خطيراً ورأي لي يداً تنالها إذا مدت وتبلغها إذا بسطت ونفساً تكمل لخصالها وتستحقها بفعالها - وإن كنت لم أجن تلك الخصال ولم أصطنع تلك الفعال ولم أترشح لها في السر ولا أشرت إليها في الجهر - ورأها تجن حين الوالدة الوالهة وتميل ميل الهلوك خاف أن ترغب إلى خير مرغّب وتنزع إلى أخصب منزع وعاقبني عقاب من سهر في طلبها وجهد في التماسها فإن كان إنما حسبني أني أصلح لها وتصلح لي وأليق بها وتليق لي فليس ذلك بذنب جنيته فأتوب منه ولا تناولت له فأحط نفسي عنه وإن زعم أن لا صرف لعقابه ولا نجاة من عذابه إلا أن أخرج له من حد العلم والحلم والحزم فكما لا يستطيع المضياح أن يكون مصلحاً كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً وسواء علي أعاقبني على علمي وحلمي أم عاقبني على نسبي وسني وسواء علي عاقبني على جمالي أو عاقبني على محبة الناس لي ولو أردتها لأعجلته عن التفكير وشغلته عن التدبير ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير.

إبراهيم بن السندي قال: كنت أساير سعيد بن سلم حين قيل له: إن أمير المؤمنين قد غضب على رجاء بن أبي الضحاك وأمر بأخذ ماله فارتاع بذلك

مكتبة مشكاة الإسلامية

وجزع فقيل له: ما يروعك منه فوالله ما جعل الله بينكما نسباً ولا سبياً فقال: بلى النعمة نسب بين أهلها والطاعة سبب مؤكد بين الأولياء.

وبعث بعض الملوك إلى رجل وجد عليه فلما مثل بين يديه قال: أيها الأمير إن الغضب شيطان فاستعذ بالله منه وإنما خلق العفو للمذنب والتجاوز للمسيء فلا تضق عما وسع الرعية من حلمك وعفوك. فعفا عنه وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مسلم أبا مجلز على بعض الأمر قال: أصلح الله الأمير تثبت فإن التثبت نصف العفو.

قال الحجاج لرجل دخل عليه: أنت صاحب الكلمة قال: أبوء بالذنب وأستغفر الرب وأسأل العافية قال: قد عفونا عنك.

وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته فلما مثل بين يديه قال: أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك وهو على عقابك أقدر منك على عقابي إلا نظرت في أمري نظر من برئي أحب إليه من سقمي وبراءتي أحب إليه من جرمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وجد عليه: يا أمير المؤمنين إن القدرة تذهب الحفيظة وأنت تجل عن العقوبة ونحن مقرون بالذنب فإن تعف عني فأهل ذلك أنت وإن تعاقبني فأهل ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روح بن زبناع فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع مني خسيصة أنت رفعتها أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها أو تشمت بي عدواً أنت وقمته إلا أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي فقال معاوية: خليا عنه إذا أراد الله أمراً يسره.

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه ثم دعا به ليسأله عن شيء فرآه شاحباً ناحلاً فقال له: مذمتي اعتلتت فقال: ما مسني سقم ولكنني جفوت نفسي إذ جفاني الأمير وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين.

فأعاده إلى حسن رأيه.

وقعد الحسن بن سهل لنعيم بن حازم فأقبل إليه حافياً حاسراً وهو يقول: ذنبي أعظم من السماء ذنبي أعظم من الأرض فقال الحسن: على رسلك أيها الرجل لا بأس عليك قد تقدمت لك طاعة وحدثت لك توبة وليس للذنب بينهما موضع ولئن وجد موضعاً فما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

أذنب رجل من بني هاشم ذنباً إلى المأمون فعاتبه فيه فقال يا أمير المؤمنين من حمل مثل دالتي وليس ثوب حرمتي ومت بمثل قرابتي اغتفر له فوق

مكتبة مشكاة الإسلامية

زلتي قال: صدقت يا بن عمي واعتذر رجل إلى المأمون من ذنب فقال: إني وإن كانت زلتي قد أحاطت بحرمتي فإن فضلك محيط بها وكرمك موقوف عليها.

أخذه صريع الغواني فقال: إن كان ذنبي قد أحاط بحرمتي فأحط بذنبي عفوك المأمولا دخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي جعفر المنصور بعدما كتب أمانه فقال: يا أمير المؤمنين إن إمارتك بكر ودولتكم جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها تخف على قلوبهم طاعتكم وتسرع إلى أنفسهم محبتكم وما زلت مستبطناً لهذه الدعوة.

فلما قام قال أبو جعفر: عجباً من كل من يأمر بقتل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً.

الهيثم بن عدي قال: لما انهزم عبد الله بن علي من الشام قدم على المنصور وفد منهم فتكلموا عنده ثم قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة وإنما نحن وفد توبة ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا واستفرت حلیمنا ونحن بما قدمنا معترفون ومما سلف منا معتذرون فإن تعاقبنا فقد أجرمنا وإن تعف عنه فطالما أحسنت إلى من أساء منا فقال المنصور للحرسي: هذا خطيبهم وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة.

قال أحمد بن أبي داود: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعله إلا تميم بن جميل فإنه كان تغلب على شاطئ الفرات وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامّة ودخل عليه فلما مثل بين يديه دعا بالنطع والسيف فأحضره بجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً وجعل المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه وكان جسيماً وسيماً ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره فقال: يا تميم إن كان لك عذر فات به أو حجة فأدل بها فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين.

يا أمير المؤمنين إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة ولقد عظمت الجريرة وكبر الذنب وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولهما بإمامتك وأشبههما بخلافتك ثم أنشأ يقول: أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يلاحظني من حيثما أتلفت وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرئ مما قضى الله يفلت ومن ذا الذي يدلى بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مصلت يعز على الأوس بن تغلب موقف يسئل علي السيف فيه وأسكت ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت كأني أراهم حين أنعى إليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مت موتوا فكم من قائل: لا يبعد الله روحه وآخر جذلان يسر ويشمت قال: فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل اذهب فقد غفرت لك الصبوة وتركتك للصبية.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وحكي أن أمير المؤمنين المهدي قال لأبي عبيد الله لما قتل ابنه: إنه لو كان في صالح خدمتك وما تعرفناه من طاعتك وفاء يجب به الصفح عن ولدك ما تجاوز أمير المؤمنين ذلك به إلى غيره ولكنه نكص على عقبيه وكفر بربه قال أبو عبيد الله: رضانا عن أنفسنا وسخطنا عليها موصول برضاك وسخطك ونحن خدم نعمتك تئيبنا على الإحسان فنشكر وتعاقبنا على الإساءة فنصبر.

أبو الحسن المدائني قال: لما حج المنصور مر بالمدينة فقال للربيع الحاجب: علي بن جعفر بن محمد قتلني الله إن لم أقتله فمطل به ثم ألج عليه فحضر فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين يديه همس جعفر بشفتيه ثم تقرب وسلم فقال: لا سلم الله عليك يا عدو الله تعمل علي الغوائل في ملكي قتلني الله إن لم أقتلك قال: يا أمير المؤمنين إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر وإن أيوب ابتلى فصبر وإن يوسف ظلم فغفر وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم.

فنكس أبو جعفر رأسه ملياً وجعفر واقف ثم رفع رأسه فقال: إلي أبا عبد الله فانت القريب القرابة وذو الرحم الواشجة السليم الناحية القليل الغائلة ثم صافحه بيمينه وعانقه بشماله وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بعضه وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ثم قال: يا ربيع عجل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه.

قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه فقال: ما أرانا يا ربيع إلا وقد حبسنا فقلت: لا عليك هذه مني لا منه فقال: هذه أيسر سل حاجتك فقلت له: إنني منذ ثلاث أدفع عنك وأداري عليك ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك ثم رأيت الأمر انجلي عنك وأنا خادم سلطان ولا غنى لي عنه فأحب منك أن تعلمينه قال: نعم قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بحفظك الذي لا يرام ولا أهلك وأنت رجائي فكم من نعمة أنعمتها علي قل لك عندها شكري فلم تحرمني وكم من بلية ابتليت بها قل عندها صبري فلم تخذلن اللهم بك أدرأ في نحره وأستعيذ بخيرك من شره فإنك على كل شيء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

كان يزيد بن راشد خطيباً وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد فنذر سليمان قطع لسانه.

فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد فجلس على طرف البساط مفكراً ثم قال: يا أمير المؤمنين كن كنبى الله صلى الله عليه وسلم ابتلي فصبر وأعطى فشكر وقدر فغفر قال: ومن أنت قال: يزيد بن راشد.

فعفا عنه.

حبس الرشيد رجلاً فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله والأمد قريب والحكم لله.

فأطلقه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ومر أسد بن عبد الله القسري وهو والي خراسان بدار من دور الاستخراج ودهقان يعذب في حبسه وحول أسد مساكين يستجدونه فأمر لهم بدرهم تقسم فيهم فقال الدهقان: يا أسد إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم يا أسد احذر من ليس له ناصر إلا الله وأتق من لا جنة له إلا الابتهاج إليه إن الظلم مصرعه وخيم ولا تغتر بإبطاء الغيئات من ناصر متى شاء أن يجيب أجاب وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً. فأمر أسد بالكف عنه.

عتب المأمون على رجل من خاصته فقال: يا أمير المؤمنين إن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحوان ما بينهما من الإساءة فقال: صدقت ورضي عنه.

وكان ملك من ملوك فارس عظيم المملكة شديد النعمة وكان له صاحب مطبخ فلما قرب إليه طعامه صاحب المطبخ سقطت نقطة من الطعام على يديه فزوى لها الملك وجهه وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله فكفأ الصحيفة على يديه فقال الملك: علي به فلما أتاه قال له: قد علمت أن سقوط النقطة أخطأت بها يدك فما عذرك في الثانية قال: استحييت للملك أن يقتل مثلي في سني وقديم حرمتي في نقطة فأردت أن أعظم ذنبي ليحسن به قتلي فقال له الملك: لئن كان لطف الاعتذار ينجيك من القتل ما هو بمنجيك من العقوبة اجلدوه مائة جلدة وخلوه.

الشيبياني قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم فقال: يا أمير المؤمنين محمد بن عبد الملك بين يديك ربيب دولتك وسليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك أأذن لي في الكلام قال: نعم قال: نستمتع الله حياة ديننا ودينانا ورعاية أدنانا وأقصادنا ببقائك ونسأله أن يزيد في عمرنا من أعمارنا وفي أثرنا من آثارنا ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا هذا مقام العائد بفضلك الهارب إلى كنفك وظلك الفقير إلى رحمتك وعدلك ثم تكلم في حاجته فقضاها.

أذقني طعم النوم أو سل حقيقة علي فإن قامت ففصل بنانيا خلعت فاستطار فأصبحت ترامي به البيد القفار تراميا ولم يقل أحد في هذا المعنى أحسن من قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر: أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع أكلفتني ذنب امرئ وتركته كذي العري كوى غيره وهو رافع فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع وقال فيه أيضاً: ولست بمستيق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته وإن تك ذا عتب فمثلك يعتب حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب لئن كنت قد بلغت عني جناية لمبلغك الواشي أعش وأكذب ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب فهبني امراً إما بريئاً علمته وإما مسيئاً تاب منه وأعتبا وكنت كذي داء يبغي لدائه طبيباً فلما لم يجده تطيباً وقال الممزق لعمر بن هند: تروح وتغدو ما يحل وضيئها إليك ابن ماء المزن وابن محرق أحقاً أبيت اللعن أن ابن مزنا على غير إجرام برريقي مشرقني فإن كنت مأكولاً فكن خير أكل وإلا

مكتبة مشكاة الإسلامية

فادركني ولما أمزق فأنت عميد الناس مهما تقل نقل ومهما تضع من باطل لا يحقق وتمثل بهذه الأبيات عثمان بن عفان في كتابه إلى علي بن أبي طالب يوم الدار.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات لما أحس بالموت وهو في حبس المتوكل برقعة إلى المتوكل فيها: هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم لا تعجلن رويداً إنما دول دنيا تنقل من قوم إلى قوم إن المنايا وإن أصبحت ذا فرح تحوم حولك حوماً أيما حوم وقال عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة للمنصور وقد أراد عقوبة رجل: يا أمير المؤمنين إن الانتقام عدل والتجاوز فضل والمتفضل قد جاوز حد المنصف ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أو كس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين.

جرى بين أبي مسلم صاحب الدعوة وبين قائد من قواده يقال له شهرام كلام فقال له قائده كلمة فيها بعض الغلط ثم ندم على ما كان منه فجعل يتضرع ويتنصل إليه فقال له أبو مسلم: لا عليك لسان سبق ووهم أخطأ وإنما الغضب شيطان وأنا جراتك علي بطول احتمالي منك فإن كنت للذنب متعمداً فقد شاركتك فيه وإن كنت مغلوباً فإن العذر يسعك وقد عفونا على كل حال.

فقال: أصلح الله الأمير إن عفو مثلك لا يكون غروراً قال: أجل قال: فإن عظم الذنب لا يدع قلبي يسكن وألح في الاعتذار فقال له أبو مسلم: عجباً لك إنك أسأت فأحسننت فلما أحسننت أسيء! دخل أبو دلف على المأمون وقد كان عتب عليه ثم أقاله فقال له وقد خلا مجلسه: قل أبا دلف وما عسيت أن تقول وقد رضي عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت فقال يا أمير المؤمنين: ليالي تدنو منك بالبشر مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر قال المأمون: لك بها رجوعك إلى المناصحة وإقبالك على الطاعة ثم عاد له إلى ما كان عليه.

وقال له المأمون يوماً: أنت الذي تقول: إني امرؤ كسروي الفعال أصيف الجبال وأشتوا العرافا ما أراك قدمت لحق طاعة ولا قضيت واجب حرمة قال له: يا أمير المؤمنين إنما هي نعمتك ونحن فيها خدمك وما هراقة دمي في طاعتك إلا بعض ما يجب لك.

ودخل أبو دلف على المأمون فقال: أنت الذي يقول فيك ابن جبلة: إنما الدنيا أبو دلف بين بادية ومحتضره فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره فقال: يا أمير المؤمنين شهادة زور وكذب شاعر وملق مستجد وليكن الذي يقول فيه ابن أخيه: ذريني أجوب الأرض في طلب الغنى فما الكرج بالدنيا ولا الناس قاسم الكرج: منزل أبي دلف وكان اسمه القاسم بن عيسى.

وقال المنصور وجعل لمعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن واعتسافك عليهم إلا حقاً قال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار وأنشده البيت وهو: معن بن زائدة الذي زبدت به فخراً إلى فخر بنو شيان قال: نعم يا أمير المؤمنين قد

مكتبة مشكاة الإسلامية

أعطيته ألف دينار ليس على هذا البيت ولكن على قوله: ما زلت يوم الهاشمية معلماً بالسيف دون خليفة الرحمن فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسان قال: فاستحيا المنصور وجعل ينكت بالمخصرة ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد.

أتي عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق فأمر بقطع يده فأنشأ يقول: يدي يا أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقي مكاناً يشينها ولا خير في الدنيا وكانت حبيبة إذا ما شمالي فارقتها يمينها فأبى إلا قطعه فقالت أمه: يا أمير المؤمنين واحدي وكاسبي قال: بنس الكاسب كان لك وهذا حد من حدود الله قالت: يا أمير المؤمنين اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها فعفا عنه.

▲ تذكير الملوك بدمام متقدم

قال ثمامة بن أشريس للمأمون لما صارت إليه الخلافة: إنه كان لي أملان: أمل لك وأمل بك فأما أمني لك فقد بلغته وأما أمني بك فلا أدري ما يكون منك فيه قال: يكون أفضل ما رجوت وأملت فجعله من سماره وخاصته.

الأصمعي قال: لما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك خر أصحابه سجوداً إلا الأبرش الكلبي فقال له: يا أبرش ما منعك أن تسجد كما سجدوا قال: يا أمير المؤمنين لأنك ذهبت عنا وتركتنا قال: فإن ذهبت بك معي قال: أو تفعل يا أمير المؤمنين قال: نعم قال: فالآن طاب السجود ثم سجد.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر كتب إليه رجل من إخوانه: إنا بطانتك الألى كنا نكابد ما نكابد ونرى فنعرف بالعداوة والبعاد لمن نباعد ونبيت من شفق علي ك ربيئة والليل هاجد هذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعد وقال حبيب الشاعر في هذا المعنى: وإن أولى الموالي أن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحزن إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن حسن التخلص من السلطان أبو الحسن المدائني قال: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير فلما بايع الناس عبد الملك بن مروان ولي عثمان بن حيان المري وأمره بالغلظة على أهل الظنة فعرض يوماً بذكر الفتنة وأهلها فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه كان مع ابن الزبير وعمل له فقال عثمان بن حيان: ويلى عليه والله لأقتلنه قال العباس: فبلغني ذلك فتغيبت حتى أضربني التغيب فأتيت ناساً من جلسائه فقلت لهم: ما لي أخاف وقد أمني عبد الملك بن مروان فقالوا: والله ما يذكرك إلا تعيظ عليك وقلما كلم على طعامه في ذنب إلا انبسط فلو تنكرت وحضرت عشاءه وكلمته.

قال: ففعلت وقلت على طعامه وقد أتى بجفنة ضخمة ذات ثريد ولحم: والله لكأني أنظر إلى جفنة حيان بن معبد والناس يتكاوسون عليها وهو يطوف في حاشيته يتفقد مصالحها يسحب أردية الخبز حتى إن الحسك ليتعلق به فما يميطه ثم يؤتى بجفنة تهادي بين أربعة ما يستقلون بها إلا بمشقة وعناء وهذا

مكتبة مشكاة الإسلامية

بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتنحون عنه فيأتي الحاضر من أهله بالدنو والطارئ من أشرف قومه وما باكثرهم من حاجة إلى الطعام وما هو إلا الفخر بالدنو من مائدته والمشاركة ليده قال: هيه أنت رأيت ذلك قلت: أجل والله قال لي: ومن أنت قلت: وأنا أمن قال: نعم قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري قال: مرحباً وأهلاً أهل الشرف والحق.

قال: فلقد رأيتني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده.

فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت ونزلنا ذلك الماء وغشينا وعليه عباءة ذكوانية فلقد جعلنا نذوده عن رحلنا مخافة أن يسرقه.

أبو حاتم قال: حدثنا أبو عبيدة قال: أخذ سراقة بن مرداس البارقي أسيراً يوم جبانة السبيع فقدم في الأسرى إلى المختار فقال سراقة: امنن علي اليوم يا خير معد وخير من لبي وصلى وسجد فعفا عنه المختار وخلي سبيله.

ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأتي به المختار أسيراً فقال له: ألم أعف عنك وأمنن عليك أما والله لأقتلنك قال: لا والله لا تفعل إن شاء الله قال: ولم قال: لأن أبي أخبرني أنك تفتح الشام حتى تهدم مدينة دمشق حجراً حجراً وأنا معك ثم أنشده: خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً وكان خروجنا بطراً وحيناً تراهم في مصفهم قليلاً وهم مثل الدبى لما التقينا فأسجح إذا قدرت فلو قدرنا لجرنا في الحكومة واعتدينا تقبل توبة مني فإني سأشكر إن جعلت النقد دينا قال: فخلي سبيله.

ثم خرج إسحاق بن الأشعث ومعه سراقة فأخذ أسيراً وأتي به المختار فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك يا عدو الله هذه الثالثة فقال سراقة: أما والله ما هؤلاء الذين أخذوني فأين هم لا أراهم إنا لما التقينا رأينا قوماً عليهم ثياب بيض وتحتهم خيل بلق تطيق بين السماء والأرض فقال المختار: خلوا سبيله ليخبر الناس.

ثم دعا لقتاله فقال: ألا أبلغ أبا إسحاق أنني رأيت البلق دهماً مصميتات أري عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات كفرت بوحيكم وجعلت نذراً علي قتالكم حتى الممات كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى فلما سقوا قال: يا معن أتقتل ضيفانك فأمر معن بإطلاقهم.

لما أتى عمر بن الخطاب بالهرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام فأبى عليه فأمر بقتله فلما عرض عليه السيف قال: لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظماً فأمر له بها فلما صار الإناء بيده قال: أنا أمن حتى أشرب قال: نعم.

فألقي الإناء من يده وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج قال: لك التوقف حتى أنظر في أمرك ارفعا عنه السيف فلما رفع عنه قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال له عمر: ويحك! أسلمت خير إسلام فما أخبرك قال: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال

مكتبة مشكاة الإسلامية

أن إسلامي إنما كان جزءاً من الموت فقال عمر: إن لفارس حلوماً بها استحقت ما كانت فيه من الملك.

ثم كان عمر يشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه.

لما أتى الحجاج بالأسرى الذين خرجوا مع ابن الأشعث أمر بقتلهم فقال رجل: أصلح الله الأمير إن لي حزمة قال: وما هي قال: ذكرت في عسكر ابن الأشعث فشتت في أبويك فعرضت دونهما فقلت: لا والله ما في نسبه مطعن فقولوا فيه ودعوا نسبه قال: ومن يعلم ما ذكرت فالتفت إلى أقرب الأسرى إلي فقلت: هذا يعمل له الحجاج: ما تقول فيما يقول قال: صدق أصلح الله الأمير وبر.

قال: خلياً عن هذا لنصرته وعن هذا لحفظ شهادته.

عمرو بن بحر الجاحظ قال: أتى روح بن حاتم برجل كان متلصصاً في طريق الرقاق فأمر بقتله فقال: أصلح الله الأمير لي عندك يد بيضاء قال: وما هي قال: إنك جئت يوماً إلى مجمع موالينا بني نهشل والمجلس محتفل فلم يتحفز لك أحد فقممت من مكاني حتى جلست فيه ولولا محض كرمك وشرف قدرك ونباهة أوليتك ما ذكرتك هذه عند مثل هذا قال ابن حاتم: صدق وأمر بإطلاقه وولاه تلك الناحية وضمنه إياها.

ولما ظفر المأمون بأبي دلف وكان يقطع في الجبال أمر بضرب عنقه فقال: يا أمير المؤمنين دعني أركع ركعتين قال: افعل.

فركع وحبر أبياتاً ثم وقف بين يديه فقال: يع بي الناس فإني خلف ممن تبع وإتخذني لك درعاً قلصت عنه الدروع وارم بي كل عدو فأنا السهم السريع فأطلقه وولاه تلك الناحية فأصلحها.

أني معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك قال: لا تقل يا معاوية فإنها مصيبة قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله عز وجل من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة اضرب عنقه يا غلام فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وأنت لا ترضى بقتلي وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله قال له: ويحك! لقد سببت فأبلغت وأمر مصعب بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن يضرب عنقه فقال: أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنه ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: أي رب سل هذا فيم قتلتني قال: أطلقوه فإني جاعل ما وهبت له من حياته في خفض أعطوه مائة ألف قال الأسير: بأبي أنت وأمي.

مكتبة مشكاة الإسلامية

أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً قال: ولم قال: لقوله: إنما مصعب شهاب من الل ه تجلت عن وجهه الظلماء ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء.

يتقي الله في الأمور وقد أف لح من كان همه الاتقاء أمر عبد الملك بقتل رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنك أعز ما تكون أحوج ما تكون إلى الله فعفا عنه.

أتي الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم فقدم فيهم شاب فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو فقال: أف لهذه الجيف ما كان فيهم من يقول مثل هذا! وأمسك عن القتل.

وأتي الحجاج بأسرى فأمر بقتلهم فقال له رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيراً فإن الله تعالى يقول: " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنموهم فشذوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ".

فهذا قول الله في كتابه.

وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق: وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل القلائد فقال الحجاج: ويحكم! أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني هذا المنافق! وأمسك عن بقي.

الهيثم بن عدي قال: أتي الحجاج بحرورية فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه قالوا: اقتلها أصلح الله الأمير ونكل بها غيرها.

فتبسمت الحرورية فقال لها: لم تبسمت فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزراءك يا حجاج استشارهم في قتل موسى فقالوا: أرجه وأخاه وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها.

وقال معاوية ليونس الثقفي: اتق الله لأطيرنك طيرة بطيئاً وقوعها قال: أليس بي وبك المرجع إلى الله قال: نعم قال: فاستغفر الله.

ودخل رجل من بني مخزوم على عبد الملك بن مروان وكان زبيرياً فقال له عبد الملك: أليس الله قد ردك على عقبيك قال: ومن رد إليك يا أمير المؤمنين فقد رد على عقبيه فسكت عبد الملك وعلم أنها خطأ.

دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك فقال له سليمان: على امرئ أمرك وجرأك وسلطك على الأمة لعنة الله أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها قال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك فضعه من النار حيث شئت.

وقال عبيد الله بن زياد لقيس بن عباد: ما تقول في وفي الحسين قال: أعفني عافك الله قال: لا بد أن تقول قال: يجيء أبوه يوم القيامة فيشفع له

مكتبة مشكاة الإسلامية

ويحيىء أبوك فيشفع لك قال: قد علمت غشك وخبثك لئن فارقتني يوماً لأضعن أكثرك شعراً بالأرض.

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال له: أنت الذي تقول: إن الحسين بن علي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن رسول الله لتأينني بالمخرج مما قلت أو لأضربن عنقك فقال له ابن يعمر: وإن جئت بالمخرج فأنا آمن قال: نعم قال: اقرأ: " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه " إلى قوله " ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى " إلى قوله " وعيسى " .

فمن أقرب: عيسى من إبراهيم وما هو ابن بنته أو الحسين من محمد صلى الله عليه وسلم فقال له الحجاج: والله لكانني ما قرأت هذه الآية قط وولاه قضاء بلده فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده قال: دخل عبد الرحمن بن أبي ليلى على الحجاج فقال لجلسائه: إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان ابن عفان فهذا عندكم يعني عبد الرحمن فقال عبد الرحمن: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسب أمير المؤمنين إنه ليحجزني عن ذلك آيات في كتاب الله قال الله تعالى: " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون " .

فكان عثمان منهم.

ثم قال: " والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحيون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " .

فكان أبي منهم.

ثم قال: " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " .

فكنت أنا منهم.

فقال: صدقت. أبو عوانة عن عاصم بن أبي وائل قال: بعث إلي الحجاج فقال لي: ما اسمك قال: ما أرسل إلي الأمير حتى عرف اسمي قال: متى هبطت هذا البلد قلت: حين هبط أهله قال: ما تقرأ من القرآن قلت: أقرأ منه ما لو تبعته كفاني قال: إني أريد أن أستعين بك في عملي قلت: إن تستعين بي تستعين بكبير أخرج ضعيف يخاف أعوان السوء وإن تدعني فهو أحب إلي وإن تقممني أتقحم قال: إن لم أجد غيرك أقممتك وإن وجدت غيرك لم أقمك قلت: وأخرى أكرم الله الأمير إني ما علمت الناس هابوا أميراً قط هيبتهم لك والله إني لأتعار من الليل فيما يأتيني النوم من ذكرك

مكتبة مشكاة الإسلامية

حتى أصبح هذا ولست لك علي عمل قال: هيه كيف قلت فأعدت عليه فقال:
إني والله لا أعلم على وجه الأرض خلقاً هو أجراً على دم مني قال: فقامت
فعدلت عن الطريق كأني لا أبصر فقال: أرشدوا الشيخ.

لما أتى الحجاج بأسرى الجماجم أتى فيهم بعامر الشعبي ومطرف بن عبد
الله الشخمير وسعيد بن جبير وكان الشعبي ومطرف يريان التقية وكان
سعيد بن جبير لا يراها وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج
في أسرى الجماجم أن يعرضهم على السيف فمن أقر منهم بالكفر في
خروجهم علينا فيخلي سبيله ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه فقال الحجاج
للسعبي: وأنت ممن ألب علينا مع ابن الأشعث اشهد على نفسك بالكفر
فقال: أصلح الله الأمير نبا بنا المنزل وأحزن بنا الجناب واستحلستنا الخوف
واكتحلنا السهر وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء قال:
لله أبوك لقد صدقت ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم خلوا سبيل الشيخ.

ثم قال لمطرف: أتقر على نفسك بالكفر قال: أصلح الله الأمير إن من شق
العصا وسفك الدماء ونكت البيعة وفارق الجماعة وأخاف المسلمين لجدير
بالكفر فخلي سبيله.

ثم قال لسعيد بن جبير: أتقر على نفسك بالكفر قال: ما كفرت منذ آمنت
بالله فضرب عنقه ثم استعرض الأسرى فمن أقر بالكفر خلى سبيله ومن
أبى قتله حتى أتى بشيخ وشاب فقال للشباب: أكافر أنت قال: نعم.

قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر فقال له الشيخ: أعن نفسي تخادعني يا
حجاج والله لو علمت أعظم من الكفر لقلته فضحك الحجاج وخلي سبيله.

فلما مات الحجاج وقام سليمان قال الفرزدق: لئن نفر الحجاج آل معتب لقوا
دولة كان العدو يدالها لقد أصبح الأحياء منهم أذلة وموتاهم في النار كلحا
سبالها وكانوا يرون الدائرات بغيرهم فصار عليهم بالعذاب انفتالها الكني إلى
من كان بالصين أورمت به الهند ألواح عليها جلالها هلم إلى الإسلام والعدل
عندنا فقد مات عن أهل العراق خيالها لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب
إلى عامله بالأردن: اجمع يدي عدي ابن الرفاع إلى عنقه وأبعث به إلي علي
قتب بلا وطاء ووكل به من ينخس به ففعل ذلك فلما انتهى إلى سليمان بن
عبد الملك ألقى بين يديه وهو لقي لا حراك فيه ولا روح فتركه حتى ارتد إليه
روحه ثم قال له: أنت أهل لما نزل بك ألسنت القائل في الوليد: وقال: لا
والله يا أمير المؤمنين ما هكذا قلت وإنما قلت: معاذ ربي أن نبقي ونفقدهم
وأن نكون لراع بعدهم تبعاً فنظر إليه سليمان واستضحك ثم أمر له بصلة
وخلي سبيله.

العتبي قال: كان بين شريك القاضي والربيع حاجب المهدي معارضة فكان
الربيع يحمل عليه المهدي فلا يلتفت إليه حتى رأى المهدي في منامه شريكاً
القاضي مصروفاً وجهه عنه فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقص عليه
رؤياه فقال: يا أمير المؤمنين إن شريكاً مخالف لك وإنه فاطمي محض قال
المهدي: علي به فلما دخل عليه قال له: يا شريك بلغني أنك فاطمي قال له

مكتبة مشكاة الإسلامية

شريك: أعيدك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى قال: ولكنني أعني فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم: قال: أفتلعتها يا أمير المؤمنين قال: معاذ الله فماذا تقول فيما يلغنها قال: عليه لعنة الله قال: فالعن هذا - يعني الربيع - فإنه يلغنها فعليه لعنة الله قال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين ما ألغنها قال له شريك: يا ماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال قال المهدي: دعني من هذا فأني رأيتك في منامي كأن وجهك مصروف عني وقفاك إلي وما ذلك إلا بخلافك علي ورأيت في منامي كأن أقتل زنديقا قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه وإن الدماء لا تستحل بالأحلام وإن علامة الزندقة بينة قال: وما هي قال: شرب المر والرشا في الحكم ومهر البغي قال: صدقت والله أبا عبد الله أنت والله خير من الذي حملني عليك.

ودخل شريك القاضي على المهدي فقال له الربيع: خنت مال الله ومال أمير المؤمنين قال: لو كان ذلك لأتاك سهمك.

العتبي قال: دخل جامع المحاربي على الحجاج - وكان جامع شيخاً صالحاً خطيباً ليبيا جريئاً على السلطان وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك وتورثها غير ولدك - لجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم.

فقال له جامع: أما إنه لو أحبوك لأطاعوك على أنهم ما شئتوك لنسيك ولا لبلدك ولا لذات نفسك فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك وليكن إيقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك.

قال الحجاج: ما أرى أن أريد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف قال: أيها الأمير إن السيف إذ لاقى السيف ذهب الخيار قال الحجاج: الخيار يومئذ لله قال: أجل ولكنك لا تدري لمن يجعله الله فغضب وقال: يا هناه إنك من محارب فقال جامع: فقال الحجاج: والله لقد هممت بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك قال جامع: إن صدقناك أغضبتنا وإن غششناك أغضبتنا الله فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله قال: أجل وسكن.

وشغل الحجاج ببعض الأمر فأنسل جامع فمر بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق فأبصر كبكبة فيها جماعة من بكر العراق وقيس العراق وتميم العراق وأزد العراق فلما رآه أشربوا إليه وقالوا له: ما عندك دفع الله عنك قال: وبحكم عموه بالخلع كما يعمكم بالعداوة ودعوا التعادي ما عاداكم فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاذبتهم أيها التميمي هو أعدي لك من الأزدي وأيها القيسي هو أعدي لك من التغلبي وهل ظفر بمن ناواه منكم إلا بمن بقي معه منكم.

وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام واستجار بزفر بن الحارث فأجاره.

مكتبة مشكاة الإسلامية

العتبي قال: كان هارون الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم وكان مسلم ابن الوليد صريع الغواني قد رمي عنده بالتشيع فأمر بطلبه فهرب منه ثم أمر بكلب أنس بن أبي شيخ كاتب البرامكة فهرب منه ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد فلما أتى بهما قيل له: يا أمير المؤمنين قد أتى بالرجلين قال: أي الرجلين قيل: أنس بن أبي شيخ ومسلم ابن الوليد فقال: الحمد لله الذي أظفرني بهما يا غلام أحضرهما.

فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم وقد أنس الهوى ببني علي في الحشا وأراه يطمح عن بني العباس قال: بل أنا الذي أقول يا أمير المؤمنين: أنس الهوى ببني العمومة في الحشا مستوحشاً من سائر الإيناس وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بني العباس قال: فعجب هارون من سرعة بديته وقال له بعض جلسائه: استبقه يا أمير المؤمنين فإنه من أشعر الناس وامتحنه فستري منه عجباً فقال له: قل شيئاً في أنس فقال: يا أمير المؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فإنني لم أدخل على خليفة قط ثم أنشأ يقول: تلمظ السيف من شوق إلى أنس فالموت يلحظ والأقدار تنتظر فليس يبلغ منه ما يؤمله حتى يؤامر فيه رأيك القدر أمضى من الموت عند قدرته وليس للموت عفو حين يقندر قال: فأجلسه هارون وراء ظهره لئلا يرى ما هم به حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له: أنشدني أشعر شعر لك فكلما فرغ من قصيدة قال له: التي تقول فيها الوحل فإنني رويتها وأنا صغير فأنشده شعره الذي أوله: أديرا علي الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبيا من عند قاتلتي ذحلي إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت به مشي المقيد في الوحل فضحك هارون وقال: ويحك يا مسلم! أما رضيت أن قيدته حتى جعلته يمشي في الوحل ثم أمر له بجائزة وخلي سبيله.

قال كسرى لبوشنت المغني: وقد قتل الفهليذ تلميذه كنت أستريح منك إليه ومنه إليك فأذهب حسدك ونغل صدرك شكر تمتعي وأمر أن يطرح تحت أرجل الفيلة.

فقال: أيها الملك إذا كنت أنا قد أهبت شطر تمتعك وأذهبت أنت الشطر الآخر: أليس جنايتك على نفسك مثل جنايتي عليك قال كسرى: دعوه فما دله على هذا الكلام إلا ما جعل من طول المدة.

يعقوب بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس قال: دخلت يوماً على الرشيد أمير المؤمنين وهو متغيظ متريد فندمت على دخولي عليه وقد كنت أفهم غضبه في وجهه فسلمت فلم يرد فقلت: داهية ناد ثم أوما إلي فجلست.

فالتفت إلي وقال: لله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فلقد نطق بالحكمة حيث يقول: يا أيها الزاجري عن شيمتي سفهاً عمداً عصيت مقال الزاجر الناهي أقصر فإنك من قوم أرومتهم في اللؤم فافخر بهم ما شئت أو باهي يزبن الشعر أفواهاً إذا نطقت بالشعر يوماً وقد يزري بأفواه لقد عجبت لقوم لا أصول لهم أثروا وليسوا وإن أثروا بأشباهي ما نالني من غنى يوماً ولا عدم إلا وقولي عليه الحمد لله فقلت: يا أمير

مكتبة مشكاة الإسلامية

المؤمنين ومن ذا الذي بلغت به المقدره أن يسامي مثلك أو يدانيه قال: لعله من بني أبيك وأمك.

كان الكميت بن زيد يمدح بني هاشم ويعرض ببني أمية فطلبه هشام فهرب منه عشرين سنة لا يستقر به القرار من خوف هشام وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام يوماً إلى بعض صيوده أتى الناس يسلمون عليه وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى فقال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته أما بعد: قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر حتى أنتهي إلى قوله: يا مسلم بن أبي الولي دلميت إن شئت ناشر غلقت حبالني من حبالك ذمة الجار المجاور فالآن صرت إلى أمية والأموال إلى المصاير والآن كنت به المصيب كمهتد بالأمس حائر فقال مسلمة: سبحان الله من هذا الهندكي الجلحاب الذي أقبل من أخريات الناس فبدأ بالسلام ثم أما بعد ثم الشعر قيل له: هذا الكميت بن زيد.

فأعجب لفصاحته وبلاغته فسأله مسلمة عن خبره وما كان فيه طول غيبته فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه فضمن له مسلمة أمانه وتوجه به حتى أدخله على هشام وهشام لا يعرفه.

فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته - الحمد لله - قال هشام: نعم الحمد لله يا هذا - قال الكميت: مبتدئ الحمد ومبتدعه والذي خص بالحمد نفسه وأمر به ملائكته وجعله فاتحة كتابه ومنتهى شكره وكلام أهل جنته أحمده حمد من علم يقيناً وأبصر مستبيناً وأشهد له بما شهد به لنفسه قائماً بالقسط وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده العربي ورسوله الأمي أرسله والناس في هبوات حيرة ومدلهفات ظلمة عند استمرار أبهة الضلال فبلغ عن الله ما أمر به ونصح لأمته وجاهد في سبيله وعبد ربه حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم.

ثم إنني يا أمير المؤمنين تهت في حيرة وحررت في سكرة إدلام بي خطرها وأهاب بي داعيها وأجاني غاوبها فاقطوطيت إلى الضلالة وتسكعت في الظلمة والجهالة حائداً عن الحق قائلاً بغير صدق فهذا مقام العائد ومنطق التائب ومبصر الهدى بعد طول العمي.

ثم يا أمير المؤمنين كم من عاثر أقلت عثرته ومجترم عفوتهم عن جرمه.

فقال له هشام وأيقن أنه الكميت: وبحك! من سن لك الغواية وأهاب بك في العمية قال: الذي أخرج أبي آدم من الجنة فنسي ولم يجد له عزماً وأمير المؤمنين كريح رحمة أثار سحاباً متفرقاً فلفقت بعضه إلى بعض حتى التحم فاستحكم وهدر رعدته وتلألأ برقه فنزل الأرض فرويت واخضلت واخضرت وأسقيت فروي ظمانها وامتلاً عطشاناها فكذلك نعدك أنت يا أمير المؤمنين أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها وحقن بك دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا حمرت الحدث وعضت المغافر بالهام عز بأسك واستربط جاشك مسعار هتاف وكاف بصير بالأعداء مغزي الخيل بالانكراء

مكتبة مشكاة الإسلامية

مستغن برأيه عن رأي ذوي الألباب برأي أريب وحلم مصيب فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء وتمم عليه النعماء ودفع به الأعداء.

فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة.

العتبي قال: لما أتى بابن هبيرة إلى خالد بن عبد الله القسري وهو والي العراق أتى به مغلولاً مقيداً في مدرعة فلما صار بين يدي خالد ألقته الرجال إلى الأرض فقال: أيها الأمير إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بها علي من قبلك فأنشدك الله أن تستن في بسنة يستن بها فيك من بعدك.

فأمر به إلى الحبس فأمر ابن هبيرة غلمانهم فحفروا له تحت الأرض سرداباً حتى خرج الحفر تحت سريره ثم خرج منه ليلاً وقد أعدت له أفراس يداولها حتى أتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به فأجاره واستوهبه مسلمة من هشام ابن عبد الملك فوهبه إياه.

فلما قدم خالد بن عبد الله القسري على هشام وجد عنده ابن هبيرة فقال له: إياك العبد أبقث قال له: حين نمت نومة الأمة.

فقال الفرزدق في ذلك: لما رأيت الأرض قد سد ظهرها فلم يبق إلا بطنها لك مخرجا دعوت الذي ناداه يونس بعد ما ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة وما سار سار مثلها حين أدلجا خرجت ولم تمنن عليك شفاعة سوى حثك التقريب من آل أعوجا ودخل الناس على ابن هبيرة بعدما أمنه هشام بن عبد الملك يهنئونه ويحمدون له رأيه فقال متمثلاً: من يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً ثم قال لهم: ما كان وقلكم لو عرض لي أو أدركت في طريقي ومثل هذا قول القطامي: والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل عبد الله بن سوار قال: قال لي ربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مسلمة قلت: نعم قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على وضوئه فجاءه فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير المؤمنين فإني لأصب الماء على يديه م آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح صائح من وراء الرواق: أنا بالله وبالأمر فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة اخرج إليه.

فخرجت إليه ورجعت فأخبرته فقال: أدخله فإذا رجل يميد نعاساً فقال: أنا بالله وبالأمر قال: أنا بالله وأنت بالله ثم قال: أنا بالله وبالأمر قال: أنا بالله وأنت بالله حتى قالها ثلاثاً ثم قال: أنا بالله فسكت عنه ثم قال لي: انطلق به فوضئه ولصصل ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه فأتته به وافرش له في تلك الصفة - بصفة بين يدي بيوت النساء - ولا توقظه حتى يقوم متى قام.

فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام فقال: شربة سويق فشرب وفرشت له فنام وجئت إلى مسلمة فأعلمته فغدا إلى هشام فجلس عنده

مكتبة مشكاة الإسلامية

حتى إذا حان قيامه قال: يا أمير المؤمنين لي حاجة قال: قضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة قال: رضيت يا أمير المؤمنين ثم قام منصرفاً حتى إذا كان أن يخرج من الإيوان رجع فقال: يا أمير المؤمنين عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء قال: لا بلغ هشام بن عبد الملك عن رجل كلام غليظ فأحضره.

فلما وقف بين يديه جعل يتكلم فقال له هشام: وتتكلم أيضاً فقال الرجل: يقول الله عز وجل: " يوم تأتي كل نفس تحادل عن نفسها " فنجادل الله تعالى جدالاً ولا نكلمك كلاماً فقال هشام بن عبد الملك: وبحك! تكلم بحاجتك.

▲ فضيلة العفو والترغيب فيه

كان للمأمون خادم وهو صاحب وضوئه فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء من يده فاغتاظ المأمون عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله يقول: " والكاظمين الغيظ " .

قال: قد كظمت غيظي عنك.

قال: " والعافين عن الناس " .

قال: قد عفوت عنك.

قال: " والله يحب المحسنين " .

قال: اذهب فأنت حر.

أمر عمر عبد العزيز بعقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر فافعل ما يحبه من العفو.

الأصمعي قال: عزم عبد الله بن علي علي قتل بني أمية بالحجاز فقال له عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: إذا أسرعت بالقتل في أكفائك فمن تباهي بسלטانك فاعف يصف الله عنك.

دخل ابن خريم على المهدي وقد عتب على بعض أهل الشام وأراد أن يغزيهم جيشاً فقال: يا أمير المؤمنين عليك بالعفو عن الذنب والتجاوز عن المسيء فلأن تطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

أمر المهدي بضرب عنق رجل فقام إليه ابن السماك فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق قال: فما يجب عليه قال: تعفو عنه فإن كان من أجر كان لك دوني وإن كان وزر كان علي دونك.

فخلى سبيله.

مكتبة مشكاة الإسلامية

كلم الشعبي ابن هبيرة في قوم حبسهم فقال: إن كنت حبستهم بباطل فالحق يطلقهم وإن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم.

العتبي قال: وقعت دماء بين حيين من قريش فأقبل أبو سفيان فما بقي أحد وأضع رأسه غلا رفعه فقال: ما معشر قريش هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق قالوا: وهل شيء أفضل من الحق قال: نعم العفو فتهدان القوم واصطلحوا.

وقال هزيم بن أبي طحمة ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب: ما ظلم أحد ظلمك ولا نصر نصرك فهل لك في الثالثة نقلها قال: وما هي قال ولا عفا عفوك.

وقال المبارك بن فضالة: كنت عند أبي جعفر جالسا في السماط إذ أمر برجل أن يقتل فقلت: يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله: ألا من كانت له عند الله يد فليتقدم فلا يتقدم إلا من عفا عن مذنب.

فأمر بإطلاقه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب " وتقول العرب في أمثالها: ملكت فأسجج وارحم ترحم وكما تدين تدان ومن بر يوماً بر به.

بعد الهمة وشرف النفس دخل نافع بن جبيرة بن مطعم على الوليد وعليه كساء غليظ وخفان جاسيان فسلم وجلس فلم يعرفه الوليد فقال لخادم بين يديه: سل هذا الشيخ من هو.

فسأله فقال له: اعزب فعاد إلى الوليد فأخبره فقال: عد إليه واسأله فعاد إليه فقال له مثل ذلك.

فضحك الوليد وقال له: من أنت قال: نافع بن جبيرة بن مطعم.

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبيد الله ألا أوصي بك الأمير زياداً قال: يا أبت إذا لم يكن للحي إلا وصية فالحي هو الميت.

وقال معاوية لعمر بن سعيد: إلى من أوصى بك أبوك قال: إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي قال وبما أوصى إليك قال: أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه.

وقال مالك بن مسمع لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما في كنانتي سهم أنا به أوثق مني بك قال: وإنني لفي كنانتك! أما والله لئن كنت فيها قائماً لأطولنها ولئن كنت فيها قاعداً لأخرقنها.

وقال يزيد بن المهلب: ما رأيت أشرف نفساً من الفرزدق هجاني ملكاً ومدحني سوقة.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقدم عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عتاب بن ورقاء الرياحي - وهو والي خراسان - فأعطاه عشرين ألفاً فقال له: والله ما أحسنت فأحمدك ولا أسأت فألومك وإنك لأقرب البعداء وأحب البغضاء.

وعبيد الله بن زياد بن ظبيان هذا هو القائل: والله ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك بن مروان إذ أتته برأس مصعب بن الزبير فخر لله ساجداً أن لا أكون قد ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكين من ملوك العرب في يوم واحد.

ومن أشرف الناس همة عقيل بن علفة المري.

وكان أعرابياً يسكن البادية وكان تصهر إليه الخلفاء وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده فقال له: جنبني هجناء ولدك.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أمية كان له أخوال في بني مرة: قبح الله شبيهاً غلب عليك من بني مرة.

فبلغ ذلك عقيل بن علفة فأقبل إليه فقال له قبل أن يتدثه بالسلام: بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مرة فقلت: قبح الله شبيهاً غلب عليك من بني مرة وأنا أقول قبح الله الأم الطرفين ثم انصرف.

فقال عمر بن عبد العزيز: من رأى أعجب من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتمنا ثم انصرف فقال له رجل من بني مرة: والله يا أمير المؤمنين ما شتمك وما شتم إلا نفسه وقومه نحن والله الأم الطرفين.

أبو حاتم السجستاني عن محمد بن عبد الله العتبي قال: سمعت أبي يحدث عن أبي عمرو المري قال: كان بنو عقيل بن علفة بن مرة بن غطفان يتناقلون وينتجعون الغيث فسمع عقيل بن علفة بنتاً له ضحكت فشبهت في آخر ضحكها فاخترط السيف وحمل عليها وهو يقول: فرقت إني رجل فروق بضحكة آخرها شهيق وقال عقيل: إني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان وذود عشر أحب أصهاري إلي القبر وقال الأصمعي: كان عقيل بن علفة المري رجلاً غيوراً وكان يصهر إليه الخلفاء وإذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء معه.

قال: فنزلوا ديراً من ديرة الشام يقال لها دير سعد فلما ارتحلوا قال عقيل: قضت وطراً من دير سعد وطالماً على عرض ناطحنه بالجماجم ثم قال لابنه: يا عملس أجز فقال: ثم قال لابنته: يا جرباء أجز فقلت: كأن الكرى سقاها صرخدية عقاراً تمشى في المطا والقوائم قال: وما يدريك أنت ما نعت الخمر! فأخذ السيف وهوى نحوها فاستعانت بأخيها عملس فحال بينه وبينها.

قال: فأراد أن يضربه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

قال: فرماه بسهم فاختل فخذيه فبرك ومضوا وتركوه حتى إذا بلغوا أدنى ماء للأعراب قالوا لهم: إنا أسقطنا جزروا فأدركوها وخذوا معكم الماء فإذا عقيل برك وهو يقول: إن بني زملوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم من يلق أبطال الرجال يكلم والشنشنة: الطبيعة وأخزم: فحل معروف وهذا مثل للعرب ومن أعز الناس نفساً وأشرفهم همماً الأنصار وهم الأوس والخزرج إنا قبيلة لم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك وكتب إليهم تبع يدعوهم إلى طاعته ويتوعدهم إن لم يفعلوا أن يغزوهم.

فكتبوا إليه: العبد تبع كم يروم قتالنا ومكانه بالمنزل المتذلل إنا أناس لا ينام بأرضنا عض الرسول ببظر أم المرسل فغزاهم تبع أبو كرب فكانوا يقاتلونه نهراً ويخرجون إليه القرى ليلاً فتدمم من قتالهم ورحل عنهم.

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك فقال له: من أنت وتجهم له كأنه لا يعرفه: فقال له الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين قال: لا قال: أنا من قوم منهم أوفى العرب أسود العرب وأجود العرب وأحلم العرب وأفربس العرب وأشعر العرب: قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك ولأهدمن دارك قال: نعم يا أمير المؤمنين أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها: وأما أسود العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وقال: هذا سيد الوبر وأما أحلم العرب فعتاب بن ورقاء الرياحي وأما أفربس العرب فالحريش بن هلال السعدي أما أشعر العرب فأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين فأعتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره وقال: أرجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير.

فرجع الفرزدق وقال: أتيناك لا من حاجة عرضت لنا إليك ولا من قلة في مجاشع وقال الفرزدق في الفخر: بنو دارم قومي ترى حجاتهم عناقاً حواشيها رفاقاً نعالها وقال الأحوص في الفخر وهو أفرح بيت قالته العرب: ما من مصيبة نكبة أرمى بها إلا تشرفني وترفع شاني وإذا سألت عن الكرام وجدنتي كالشمس لا تخفى بكل مكان وقال أبو عبيدة: اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر فأخرج إليهم بردي محرق وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما فقام عامر بن أحيمر السعدي فاتزر بأحدهما وارتنى بالآخر فقال له النعمان: بم أنت أعز العرب قال: العز والعدد من العرب في معد ثم في نزار ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنني فسكت الناس.

ثم قال النعمان: هذه حالك في قومك فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك قال: أنا أبو عشرة وخال عشرة وعم عشرة وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الأرض ثم قال: من أزالها من مكانها فله مائة من الإبل.

فلم يقم إليه أحد فذهب بالبردين.

مكتبة مشكاة الإسلامية

ففيه يقول الفرزدق: فما ثم في سعد ولا آل مالك غلام إذا ما سيل لم يتهدل لهم وهب النعمان بردي محرق بمجد معد والعديد المحصل وفي أهل هذا البيت من سعد بن زيد مناة كانت الإفاضة في الجاهلية.

ومنهم بنو صفوان الذين ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجزوا آل صفوانا ما تطلع الشمس إلا عند أولنا ولا تغيب إلا عند آخرانا وقال الفرزدق في مثل هذا المعنى: ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا وكانت هنيذة بنت صعصعة عمة الفرزدق تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي يحل لها أن تضع خمارها عندهم فصرمتي لها: أبي صعصعة وأخي غالب وخالي الأقرع بن حابس وزوجي الزبرقان بن بدر فسميت ذات الخمار.

وممن شرفت نفسه وبعدت همته: طاهر بن الحسين الخراساني وذلك أنه لما قتل محمد بن زبيدة وخاف المأمون أن يغدر به امتنع عليه بخراسان ولم يظهره خلعه.

وقال دعبل بن علي الخزاعي يفخر بقتل طاهر بن الحسين محمداً لأنه كان مولى خزاعة ويقال إنه خزاعي: أيسومني المأمون خطة عاجز أوما رأى بالأمس رأس محمد توفي على روس الخلائق مثل ما توفي الجبال على رؤوس القردد إني من القوم الذين هم هم قتلوا أخاك وبشرفوك بمقعد وقال طاهر بن الحسين: غضبت على الدنيا فأنهبت ما حوت وأعتبتها مني بإحدى المتالف قتلت أمير المؤمنين وإنما بقيت عناء بعده للخلائف وأصبحت في دار مقيما كما ترى كأي فيها من ملوك الطوائف وقد بقيت في أم رأس فتكة فإما لرشد أو لرأي مخالف فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة: عتبت على الدنيا فلا كنت راضيا فلا أعتبت إلا بإحدى المتالف فمن أنت أو ما أنت يا فقع قرقر إذا أنت منا لم تعلق بكائف فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا كقول تهادي الموت عند التزاحف ستعلم ما تجني عليك وما جنت يداك فلا تفخر بقتل الخلائف وقد بقيت في أم رأسك فتكة سنخرجها منه بأسمر راعف وقال عبد الله بن طاهر: مدمن الإغضاء موصول ومديم العتب مملول أقصري عما لهجت به ففراغي عنك مشغول سائلي عنم تسائلني قد يرد الخير مسئول أنا من تعرف نسبه سلفي الغر بالبهايل سل بهم تنبيك نجدتهم مشرفيات مصاقيل كل عضب مشرب علقا وعرار الحد مفلول مصعب جدي نقيب بني هاشم والأمر مجبول وحسين رأس دعوتهم بعده الحق مقبول وأبي من لا كفاء له من يسامي مجده قولوا صاحب الرأي الذي حصلت رأيه القوم المحاصيل حل منهم بالذرى شرفاً دونه عز وتبجيل نفصح الأنبياء عنه إذا أسكت الأنبياء مجهول سل به الجبار يوم غدا حوله الجرد الأبايل وهبوا لله أنفسهم لا معازيل ولا ميل ملك تجتاح صولته ونداه الدهر مبذول نزعته منه تماثمه وهو مرهوب ومأمول وتره يسعى إليه به ودم يجنيه مطلول فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة وكان من أصحابه وأثرهم عنده ثم اعتذر إليه وزعم أنه لم يدعه إلى إجابته إلا قوله: من يسامي مجده قولوا فأمر له بمائة ألف وزاده أثرة ومنزلة: لا يرعك القال والقييل كل ما بلغت تضليل ما هوى لي كنت أعرفه بهوى غيرك موصول أيخون العهد ذو ثقة لا يخون العهد متبول حملتني كل لائمة كل ما حملت محمول واحكمي ما شئت واحتكمي فحرامي

مكتبة مشكاة الإسلامية

لك تحليل وبدت يوم الوداع لنا غادة كالشمس عطيول تتعاطى شد مئزرها ونطاق الخصر محلول شملنا إذ ذاك مجتمع وجناح البين مشكول ثم ولت كي تودعنا كحلها بالدمع مغسول أيها البادي بطيته ما لأغلاطك تحصيل قد تأولت على جهة ولنا ويحك تأويل إن دليلاك يوم غدا بك في الحين لضليل قاتل المخلوع مقتول ودم القاتل مطلول قد يخون الرمح عامله وسنان الرمح مصقول وينال الوتر طالبه بعد ما تسلو المثاكيل بأخي المخلوع طللت يداً لم يكن في باعها طول وبنعماء التي كفرت جالت الخيل الأبايل إن خير القول أصدقه حين تصطك الأقاويل مراسلات الملوك العتبي عن أبيه قال: أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قريشي.

فقدمت وأبو سفيان عروس بهند بنت عتبة فقال له: أيها الرجل لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك فقال لها: يا هذه دعي زوجك وما يختاره لنفسه والله ما نحرها غيري إلا نحرته.

فكانت في عقلها حتى خرج أبو سفيان في اليوم السابع فنحرها.

زهير عن أبي الجويرية الجرمي قال: كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قبلة له وعمن لا أب له وعمن لا عشيرة له وعمن سار به قبره وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم وعن شيء ونصف شيء ولا شيء وأبعث إلي في هذه القارورة ببزر كل شيء فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس.

فقال ابن عباس: أما مالا قبلة قبله له فالكعبة وأما من لا أب له فعيسى وأما من لا عشيرة له فآدم وأما من سار به قبره فيونس وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم: فكبش إبراهيم وناقته ثمود وحية موسى وأما شيء فالرجل له عقل يعمل بعقله وأما نصف شيء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول وأما لا شيء فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره وملا القارورة ماء وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية فبعث به معاوية إلى قيصر.

فلما وصل إليه الكتاب والقارورة قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة.

نعيم بن حماد قال: بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك والذي تحته ابنه ألف ملك والذي مربوطه ألف فيل والذي له نهران ينبتان العود والألوة والجوز والكافور والذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً أما يعد فإني قد بعثت إليك بهدية وما بهدية ولكنها تحية وأحببت أن تبعث إلي رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام والسلام يعني الهدية الكتاب.

الرياشي قال: لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كان صواباً فقد أخطأ أبوك وإن كان خطأ فما عذرك فكتب إليه: " [وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً](#) ".

مكتبة مشكاة الإسلامية

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة لأغزيناك جنوداً مائة ألف ومائة ألف.

فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتب إليه بما يقول ففعل فقال عبد الله بن الحسن: إن الله عز وجل لوحاً محفوظاً يلحظه كل يوم ثلثمائة لحظة ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة.

فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيف قلعية وكتاب سيورية وثياب من ثياب الهند فلما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الجديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق وأذن للرسل فدخلوا عليه فقال لهم: ما جئتم به قالوا: هذه أشرف كسوة بلدنا فأمر هارون القطاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرة لخياله فصلب الرسل على وجوههم وتذمموا من ذلك ونكسوا رؤوسهم ثم قال لهم الحاجب: ما عندكم غير هذا قالوا له: هذه سيوف قلعية لا نظير لها.

فدعا هارون بالصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب فقطعت به السيوف بين يديه سيفاً سيفاً كما يقط الفجل من غير أن تنثني له شفرة ثم عرض عليهم حد السيف فإذا لا فل فيه فصلب القوم على وجوههم ثم قيل لهم: ما عندكم غير هذا قالوا: هذه كلاب سيورية لا يلقاها سيع إلا عقرتة فقال لهم هارون: فإن عند سبعا فإن عقرتة فهي كما ذكرتم ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم: فلما نظروا إليه هالهم وقالوا: فترسلها عليه وكانت الأكلب ثلاثة فأرسلت عليه فمزقته فأعجب بها هارون وقال لهم: تمنوا في هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا قالوا: ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به سيوفنا قال لهم: ما كنا لنبخل عليكم ولكنه لا يجوز في ديننا أن نهاديكم بالسلاح ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم قالوا: ما نتمنى إلا السيف قال: لا سبيل إليه ثم أمر لهم بتحفة كثيرة وأحسن جائزتهم.

أبو جعفر البغدادي قال: لما انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حذره أدب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب وعلمه فنون العلم ثم أهداه إليه مع الطاف كثيرة من طرائف العراق وقد واطأه على أن يسمه وأعطاه سم ساعة ووعدته على ذلك بأموال كثيرة.

فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية قبل الهدية وأمر بإنزال الوصيف في دار وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النزلة وتركه أشهراً.

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه: يا سيدي إن كنت تقبلني فاقبلني وإلا فردني إلى أمير المؤمنين فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه.

مكتبة مشكاة الإسلامية

فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس وقد جلس على لبد أبيض وقرع رأسه وبين يديه مصحف منشور وسيف مسلول فقال: قد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك فإننا لا نقبلك وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين ولي عندي جواب أكتبه إلا ما ترى من حالي فأبلغ أمير المؤمنين السلام وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها.

فلما قدم الوصيف على المأمون وكلمه بما كان من أميره ووصف له الحال التي رآه فيها شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه فلم يعلمه واحد منهم فقال المأمون: لكنني قد فهمت معناه: أما تقريره رأسه وجلوس على اللبد الأبيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل وأما المصحف المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا وأما السيف المسلول فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك أغلقوا عنا باب ذكره ولا تهيجوه في شيء مما هو فيه.

فلم يهجه المأمون حتى مات طاهر بن الحسين وقام عبد الله بن طار بن الحسين مكانه فكان أخف الناس على المأمون.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في إطلاق بن السندي من حبسه وكان عامله على مصر فعزله عنها وحبسه فأطلقه له وكتب إليه: أخي أنت ومولاي فما ترضاه أرضاه وما تهوي من الأمر فإنني أنا أهواه لك الله على ذاك لك الله لك قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في مخاطبة الملوك ومقاماتهم وما تفتنوا فيه من بديع حكيمهم والتزلف إليهم بحسن التوصل ولطيف المعاني وبارع منطقتهم واختلاف مذاهبهم ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه في العلم والأدب فإنهما القطبان اللذان عليها مدار الدين والدنيا وقَرْقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية.

وهما مادّة العقل وسراج البدن ونور القلب وعماد الرُّوح وقد جعل الله بلطيف قُدْرته وعظيم سُلْطانه بعضَ الأشياءِ عَمَدًا لبعضٍ ومُتَوَلِّدًا من بعضِ فإِجالة الوَهم فيما تُدْرِكُه الحواسُّ تَبعثُ خواطرَ الذِّكرِ وخواطرَ الذِّكرِ تنبهُ رؤيةَ الفِكرِ ورويةَ الفِكرِ تثيرُ مكامِنَ الإرادةِ والإرادةُ تُحكِّمُ أسبابَ العملِ فكلُّ شيءٍ يقومُ في العقلِ ويُمثِلُ في الوهمِ يكونُ ذِكْرًا ثم فِكرًا ثم إرادةً ثم عملاً.

والعقل متقبل للعِلمِ لا يعملُ في غير ذلك شيئاً.

والعلم علمان: علم حُمِلَ وعلم اسْتُعملُ فما حُمِلَ منه ضرٌّ وما اسْتُعملَ نَفَع.

والدليل على أن العقل إنما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الألوان والسمع في تقبل الأصوات أن العاقل إذا لم يُعلم شيئاً كان كمن لا عقل له والطفل الصغير لو لم تعرّفه أدبا وثلقته كتابا كان كأبله البهائم وأصل الدواب فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلًا قليلَ العِلمِ: فهو يَسْتعملُ عقله في قلةِ علمه فيكون أشدَّ رأياً وأنبه فِطنةً وأحسنَ مواردَ ومَصَادِرَ من الكثير العِلمِ

مكتبة مشكاة الإسلامية

مع قَلَّةِ الْعَقْلِ فَإِنَّ حُجَّتَنَا عَلَيْهِ مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَمْلِ الْعِلْمِ وَاسْتِعْمَالِهِ فَقَلِيلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمَلُهُ الْعَقْلُ حَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ يَحْفَظُهُ الْقَلْبُ.

قِيلَ لِلْمُهَلَّبِ: يَمْ أَدْرَكَتَ مَا أَدْرَكَتَ قَالَ: بِالْعِلْمِ قِيلَ لَهُ: فَإِنْ غَيْرِكَ قَدْ عِلْمَ أَكْثَرَ مِمَّا عِلِمَتْ وَلَمْ يُدْرِكْ مَا أَدْرَكَتَ قَالَ: ذَلِكَ عِلْمٌ حُمِلَ وَهَذَا عِلْمٌ اسْتُعْمِلَ.

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: الْعِلْمُ قَائِدُ وَالْعَقْلُ سَائِقُ وَالنَّفْسُ دَوْدٌ فَإِذَا كَانَ قَائِدٌ بِلَا سَائِقٍ هَلَكْتَ " الْمَائِثِيَّةُ " وَإِنْ كَانَ سَائِقٌ بِلَا قَائِدٍ أَخَذَتْ يَمِينًا وَشِمَالًا وَإِذَا اجْتَمَعَا أَنَابَتْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا.

فَنَوْنَ الْعِلْمِ قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ الْمَأْمُونِ: مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ مَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتْرَعِبُوا فِيهِ وَقَدْ يَتْرَعِبُ عَنْ بَعْضِ الْعِلْمِ كَمَا يُرْغَبُ عَنْ بَعْضِ الْحَلَالِ فَقَالَ الْمَأْمُونُ: قَدْ يُسَمَّى بَعْضُ النَّاسِ الشَّيْءَ عِلْمًا وَلَيْسَ بِعِلْمٍ فَإِنْ كَانَ هَذَا أَرَدْتَ فَوَجَّهْهُ الَّذِي ذَكَرْتُ وَلَوْ قَلْبِي أَيْضًا: إِنَّ الْعِلْمَ لَا يُدْرِكُ غَوْرَهُ وَلَا يُسِيرُ قَعْرَهُ وَلَا يُبْلِغُ غَايَتَهُ وَلَا يُسْتَقَى أَصُولُهُ وَلَا تَنْضَبُطُ أَجْزَاؤُهُ صَدَقَتْ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَايْتَأَمَّرْ بِالْأَهْمِّ وَالْأَوْكَدِ فَالْأَوْكَدُ وَالْقَرَضُ قَبْلَ التَّعَلُّقِ يَكُنْ ذَلِكَ عَدْلًا قَصْدًا وَمَذْهَبًا جَمِيلًا.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَسْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ طَمَعًا فِي غَايَتِهِ وَالْوَقُوفَ عَلَى نَيْهَايَتِهِ وَلَكِنِ التَّمَاسَّ مَا لَا يَسَعُ جَهْلُهُ فَهَذَا وَجْهُ لِمَا ذَكَرْتُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: عِلْمُ الْمُلُوكِ وَالنَّسَبِ وَالْحَبْرِ وَعِلْمُ أَصْحَابِ الْخُرُوبِ دَرَسٌ كُتِبَ الْأَيَّامِ وَالسِّيَرِ وَعِلْمُ التَّجَارِ الْكِتَابِ وَالْحِسَابِ فَأَمَّا أَنْ يُسَمَّى الشَّيْءَ عِلْمًا وَيَنْهَى عَنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْأَلَ عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ مِنْهُ فَلَا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعِلْمُ عِلْمَانُ: عِلْمُ الْأَيْدِي وَالْعِلْمُ الْأَيْدِي.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ قُتَيْبَةَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا فَلْيَطْلُبْ فَنًّا وَاحِدًا وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَدِيبًا فَلْيَتَسَّعْ فِي الْعُلُومِ.

وَقَالَ أَبُو يُوْسُفَ الْقَاضِي: ثَلَاثَةٌ لَا يَسْلَمُونَ مِنْ ثَلَاثَةٍ: مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْفَلْسَفَةِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الزُّنْدَاقَةِ وَمَنْ طَلَبَ " الْمَالَ " بِالْكِيمِيَاءِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْفَقْرِ وَمَنْ طَلَبَ غَرَائِبَ الْحَدِيثِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْكُذْبِ.

وَقَالَ ابْنُ سَيْرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَفَاكَ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ أَنْ تَعْرِفَ مَا لَا يَسَعُ جَهْلُهُ وَكَفَاكَ مِنْ عِلْمِ الْأَدَبِ أَنْ تَتَرَوِيَ الشَّاهِدَ وَالْمَثَلَ قَالَ الشَّاعِرُ: وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَتَبَقَى كِتَابَتُهُ وَإِنْ فَنِيَتْ يَدَاهُ فَلَا تَكْتَبُ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسْرُكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ وَقَالُوا: مَنْ أَكْثَرَ مِنَ النَّحْوِ حَمَّقَهُ وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ الشَّعْرِ بَدَّلَهُ وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْفِقْهِ شَرَّفَهُ.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال أبو ثواس الحسن بن هانئ: كم من حديث مُعْجِبٍ عندي لكا لو قد نبذت به إليك لسركا مِمَّا تَخَيَّرَهُ الرواة مُهَذَّبٌ كالدَّرِّ مُنْتَضِماً يَنْخَرُ قَلْكََا أَتْبَعَ العُلَمَاءُ أَكْتَبُ عَنْهُمْ كَيْمًا أَحَدَّتْ من لقيتُ قَبِيضَها الحَضُّ على طَلَبِ العِلْمِ قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يزال الرجلُ عالماً ما طَلَبَ العِلْمَ فإذا ظَنَّ أنه قد عَلمَ فقد جَهِلَ.

وقال عليه الصلاة والسلام: الناسُ عالمٌ ومُتعلِّمٌ وسائرهم هَمَجٌ.

وعنه صلى الله عليه وسلم: إنَّ الملائكةَ لتَصَعُّ أجنحتَها لطالبِ العِلْمِ رِضاً بما يَطْلُبُ ولِمِدادِ جرت به أقلامُ العُلَماءِ خَيْرٌ من دماءِ الشُّهداءِ في سبيلِ الله.

وقال داود لابنه سُليمانَ عليهما السلام: لَفَّ العِلْمُ حَوْلَ عُنُقِكَ واكْتَبَهُ في ألواحِ قَلْبِكَ.

وقال أيضاً: اجعل العِلْمَ مالَكَ والأدبَ جِلْتِكَ.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يَحْسُنُ بالسَّيِّخِ أن يتعلَّم قال: إن كان يَحْسَنُ به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عُزوة بن الرُّبَيْرِ رحمه الله تعالى " لَبِنِيهِ " : يا بَنِيَّ اطلُبوا العِلْمَ فإن تَكُونوا صِغاراً " قوم " لا يُحْتَاجُ إليكم فَعَسَى أن تَكُونوا كِباراً قومٍ آخَرِينَ لا يَسْتَعْنِي عَنْكُمْ.

وقال ملكُ الهِنْدِ لولده وكان له أربَعونَ ولداً: يا بَنِي أَكثِرُوا من النَظَرِ في الكُتُبِ وازدادوا في كلِّ يومِ حَرفاً فإن ثَلَاثَةَ لا يَسْتَوْحِشُونَ في عُربَةٍ: الفِقيهِ العالمِ والبَطَلِ الشجاعِ والحُلُوِّ اللسانِ الكثيرِ مَخارجِ الرَأيِ.

وقال المُهَلَّبُ لَبَنِيهِ: إياكم أن تَجلِسوا في الأسواقِ إلا عندَ رَزَّادٍ أو وَرَّاقٍ أرادَ الرَزَّادِ للحربِ والوَرَّاقِ للعلمِ.

وقال الشاعر: نَعَمَ الأَنيِسُ إذا خَلُوتُ كِتابُ تَلهُو به إن خاتَكَ الأَحياِبُ لا مُفْشِياباً سِراً إذا اِبْتَدِعتَهُ وَتَفادِ مِنْهُ حِكمَةٌ وَصَوَابُ وقال " آخِر " : ولكلِّ طالِبٍ لَدَةَ مُتَنَرِّهِ وألْدُ نُزْهَةٍ عالِمٍ في كُتُبِهِ وَمَرَّ رَجُلٌ بِعَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ العَزيزِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو وَهُوَ جالِسٌ في المَقْصِرةِ وَبيدِهِ كِتابٌ فقال له: ما أَجَلِسُكَ هاهنا قال: إنَّهُ لا أُوْعِظُ " مِن " قَبْرِ ولا أَمْتَعُ من كِتابِ.

وقال رُؤبة بن العَجَّاجِ: قال لي النَسَّابَةُ البِكرِي: يا رُؤبة لعلكَ من قومٍ إن سَكَتُ عَنْهُمْ لَم يَسألوني وإن حَدَّثْتَهُمْ لَم يَفْهَموني قلتُ: إنِّي أَرجو أن لا أَكونَ كَذَلِكَ.

قال: فما آفةُ العِلْمِ وَتَكَدَهُ وَهُجِنَتَهُ قلتُ: تُخبرني قال: آفَتُهُ النَسِيانُ وَتَكَدَهُ الكَذِبُ وَهُجِنَتَهُ نَشْرُهُ عِنْدَ غيرِ أَهلِهِ.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما: مَنهُومان لا يَشْبَعان: طالب علم وطالب دنيا.

وقال: دَلَلْتُ طالباً فَعَزَزْتُ مطلوباً.

وقال رجل لأبي هُريرة: أريد أن أطلب العِلْمَ وأخاف أن أَضِيعَهُ قال: كفاك بترك طلب العِلْمِ إِضاعةً له.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل لا يُولد عالماً وإنما العِلْمُ بالتعلُّم.

وأخذه الشاعر فقال: تَعَلَّمْ فليس المرء يُولد عالماً وليس أخو عِلْمٍ كمن هو جاهلٌ ولاحر: ولاحر: ولم أر فرعا طال إلا بأصله ولم أر بدء العِلْمِ إلا تَعَلَّمَا وقال آخر.

العِلْمُ يُحْيِي قُلُوبَ المَيِّتِينَ كما تَحْيِي البلادُ إِذا هِما مَسَّها المَطَرُ والعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عن قَلْبِ صاحبه كما يُجْلِي سِوَادَ الظلْمَةِ القَمَرِ وقال بعضُ الحكماء: اقصد من أصناف العِلْمِ إلى ما هو أشهى لنفسك وأخفَّ على قَلْبِكَ فَإِنَّ نفاذَكَ فيه على حَسَبِ شَهْوَتِكَ له وسُهولتِه عليك.

فضيلة العلم

حَدَّثَنَا أيوب بن سُليمان قال حَدَّثَنَا عامر بن مُعاوية عن أحمد بن عِمْران الأحنس عن الوليد بن صالح الهاشمي عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي عن أبي مَخنف عن كميل التُّخعي قال: أخذ بيدي علي بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وجهه فخرج بي إلى ناحية الجَبَّانة فلما أسْحَرَتْ نَفْسَ الصُّعْداءِ ثم قال: يا كميل إِنَّ هذه القلوب أُوعِيَتْ فخيرها أو عاها فاحفظ عَنِّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربَّاني ومتعلم على سبيل تَجاهٍ وَهَمَجٍ رَعاعٍ أَتباع كلِّ ناعق مع كلِّ رِيح يَميلون لم يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ العِلْمِ ولم يَلْجأوا إلى رَكْنٍ وَثيقٍ.

يا كميل: العِلْمُ يَحْرُسُكَ وأنت تحْرُسُ المالَ والمال تَنقِصُه النِّفقةُ والعِلْمُ يَزكو على الإِنفاقِ وَمَنفعةُ المالِ تزول بزواله.

يا كميل: محبَّةُ العِلْمِ دينٌ يُدان به يَكسِبُ الإنسانُ الطاعةَ في حياته وَجَميلُ الأحدوثة بعد وفاته.

والعِلْمُ حاكمُ المالِ محكومٌ عليه.

يا كميل: مات حُزَّانُ المالِ وهم أحياءُ والعُلَماءُ بأقون ما بَقِيَ الدهرُ أعيانهم مَفقودةٌ وأمثالهم في القلوب مَوْجودةٌ.

ها إِنَّ هاهُنَا لِعِلْماً جما - وأشار بيده إلى صدره - لو وَجَدت له حَمَلَةٌ بلى أَجد لِقْناً غيرَ مأمونٍ يَسْتَعْمَلُ " آله " الدِّينَ لِلدُّنيا وَيَسْتَظْهَرُ بِنِعَمِ اللهِ على عِبادِهِ وَبِحُجَّجِهِ عليَّ أُولِيائِهِ أو مُنقاداً لِحَمَلَةِ الحَقِّ ولا بَصِيرَةَ له في أحنائه يَنْقَدِحُ الشُّكُّ في قَلْبِهِ لأوَّلِ عارضٍ من شَبْهَةٍ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء " أو مَنهُوماً

مكتبة مشكاة الإسلامية

باللذة سَلِسَ القياد للشهوة أو مُغرماً بالجمع والادخار " ليسا من رُعاة الدين " في شيء " أقربُ شَبهاً بهما الأنعامُ السائمة كذلك يموت العلم بموت حامليه اللهم بلى لا تخلو الأرضُ من قائم بحجة الله إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حَجج الله وبيئاته وكم ذا وأين أولئك " والله " الأقلون عدداً والأعظمون " عند الله " قدراً بهم يحفظ الله حُججَه " وبيئاته " حتى يُودعوها نُظراءهم ويُررعوها في قلوب أشباههم هَجَمَ بهم العلم على حَقيقة الإيمان حتى باشَّروا رُوح اليقين فاستلنا ما استخشن المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها مَعَلقة بالرفيق الأعلى.

يا كُميل: أولئك خُلفاء الله في أرضه والدُّعاة إلى دينه آه آه شَوْقاً إليهم انصرف " يا كميل " إذا شئت.

قيل للخليل بن أحمد: أيهما أفضل العلم أو المال قال: العلم.

قيل له: فما بالُ العلماء يزدحمون على أبواب الملوك والملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء قال: ذلك لِمَعْرِفة العلماء بحق الملوك وجَهْلِ الملوك بحق العلماء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ.

وقال عليه الصلاة والسلام: إِنْ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ كَمَا أَنَّ كَثِيرَهُ مَعَ الْجَهْلِ قَلِيلٌ.

وقال عليه الصلاة والسلام: يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ حَلْفٍ عُدُوَّهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تحريف القائلين وانتحال المُبطلين وتأويل الجاهلين.

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أنت يكونوا أرباباً وكلُّ عَزٍّ لم يُوكَد بعلم فإلى ذلِّ ما يصير.

وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حُكَّام على الدنيا والعلماء حُكَّام على الملوك وقال أبو قلابة: مَثَلُ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ مَثَلُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ مَنْ تَرَكَهَا صَلَّ وَمَنْ غَابَتْ عَنْهُ تَحَيَّرَ.

وقال سُفيان بن عُيينة: إِنَّمَا الْعَالَمُ مِثْلُ السَّرَّاجِ مَنْ جَاءَهُ اقْتَبَسَ مِنْ عِلْمِهِ وَلَا يَنْقُصُهُ شَيْئاً كَمَا لَا يَنْقُصُ الْقَائِسُ مِنْ نُورِ السَّرَّاجِ شَيْئاً.

وفي بعض الأحاديث: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْتُلُ نَفْسَ التَّقِيِّ الْعَالِمِ جُوعاً.

وقيل للحسن بن أبي الحسن البصري: لَمْ صَارَتْ الْجِرْفَةُ مَقْرُونَةً مَعَ الْعِلْمِ وَالثَرْوَةُ مَقْرُونَةً مَعَ الْجَهْلِ فَقَالَ: لَيْسَ كَمَا قُلْتُمْ وَلَكِنْ طَلَبْتُمْ قَلِيلاً فِي قَلِيلٍ فَأَعْجَزَكُمْ: طَلَبْتُمْ الْمَالَ وَهُوَ قَلِيلٌ " فِي النَّاسِ " فِي أَهْلِ الْعِلْمِ! وَهُمْ قَلِيلٌ " فِي النَّاسِ " وَلَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى مَنْ احْتَرَقَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ لَوَجَدْتُمُوهُمْ أَكْثَرَ.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وقال الله تبارك وتعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء " و " وَمَا تَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالَمُونَ ."

مَنْ مَنَعَ الْحِكْمَةَ أَرْبَابَهَا أَصْبَحَ فِي الْحُكْمِ لَهُمْ ظَالِمًا وَوَضَعَ الْحِكْمَةَ فِي غَيْرِهِمْ
 يَكُونُ فِي الْحُكْمِ لَهَا غَائِبًا سَمِعَتْ يَوْمًا مِثْلًا سَائِرًا وَكُنْتُ فِي الشَّعْرِ لَهُ
 نَاطِلًا: لَا خَيْرَ فِي الْمَرْءِ إِذَا مَا عَدَا لَا طَالِبًا عِلْمًا وَلَا عَالِمًا وَقِيلَ لِبَعْضِ
 الْعُلَمَاءِ: كَيْفَ رَأَيْتَ الْعِلْمَ قَالَ: إِذَا اغْتَمَمْتُ سَلَوْتِي وَإِذَا سَلَوْتُ لِدَانِي.

وَأَنشُدُ لِسَابِقِ الْبَرْبَرِيِّ: الْعِلْمُ رَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِسَابِقِهِ وَالْجَهْلُ وَالنَّوْكَ مَقْرُونَانِ
 فِي قَرْنٍ وَلِغَيْرِهِ: وَإِذَا طَلَبْتَ الْعِلْمَ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ جَمَلٌ فَأَبْصُرْ أَيَّ شَيْءٍ تَحْمِلُ
 وَإِذَا عَلِمْتَ بَأَنَّهُ مُتَفَاوِضٌ فَاسْغُلْ فَوَادَكَ بِالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: أَوَّلُ
 الْعِلْمِ الصَّمْتُ وَالثَّانِي الْاسْتِمَاعُ وَالثَّلَاثُ الْحِفْظُ وَالرَّابِعُ الْعَمَلُ وَالْخَامِسُ
 تَشْرُوه.

وَيُقَالُ: الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ وَالْبَاقِي هَمَجٌ.

وَأُنَبِّدُ: وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلَّمَهُ حَسَنَةٌ وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ
 وَبَدَلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ وَالْعِلْمُ مَنَارٌ سَبِيلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ فِي الْوَحْشَةِ
 وَالصَّاحِبُ فِي الْعُرْبَةِ وَالْمُحَدَّثُ فِي الْخَلْوَةِ وَالذَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءُ
 وَالزَّبْنُ عِنْدَ الْإِخْلَاءِ وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ قَوْمًا فَيَجْعَلُهُمْ قَادَةً أُمَّةً تُقْتَفَى آثَارُهُمْ وَيَقْتَدِي بِفَعَالِهِمْ.

وَالْعِلْمُ حَيَاةُ الْقَلْبِ مِنَ الْجَهْلِ وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَةِ وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ
 الضُّعْفِ يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ وَالذَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْفِكْرُ فِيهِ
 يَعْدِلُ الصِّيَامَ وَمُذَاكِرَتُهُ الْقِيَامَ وَبِهِ تُوَصَّلُ الْأَرْحَامُ وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ.

وَابْنُ طَبَّاطَبَا الْعَلَوِيُّ: " حَسُودٌ مَرِيضٌ الْقَلْبُ يُخْفِي أُنْبِيَّهَ وَيُضْحِي كُنْيبَ الْبَالِ
 عِنْدِي حَزْبَتُهُ يَلُومُ عَلَى أَنْ رُحْتُ فِي الْعِلْمِ طَالِبًا أَجْمَعَ مِنْ عِنْدِ الرَّجَالِ فُنُونُهُ
 فَأَمْلِكُ أَبْكَارَ الْكَلَامِ وَعُوتَهُ وَأَحْفِظُ مِمَّا اسْتَفِيدُ عُيُونَهُ وَبِرْغَمِ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَجْلِبُ
 الْغِنَى وَيُحْسِنُ بِالْجَهْلِ الذَّمِيمِ طُنُونَهُ قِيًّا لِأَنِّي دَعْنِي أَعَالٍ بِقِيَمَتِي فَقِيْمَةٌ كُلُّ
 النَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ " قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا هَذَا
 الْعِلْمُ الَّذِي بَنَتْ بِهِ عَنِ الْعَالَمِ قَالَ: كُنْتُ إِذَا أَخَذْتُ كِتَابًا جَعَلْتَهُ مِدْرَعَةً.

وقيل لرقبة بن مصقلة: ما أكثر شكك قال: مُحَامَاةٌ عَنِ الْيَقِينِ.

وَسَأَلَ شُعْبَةُ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ عَنِ حَدِيثِ فَقَالَ: أَشُكُّ فِيهِ.

فَقَالَ: شُكُّكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ يَقِينِي.

وقال أيوب: إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ أَرْتَجِي بَرَكَةَ دُعَائِهِ وَلَا أَقْبَلُ حَدِيثَهُ.

وقالت الحكماء: عِلْمٌ عِلْمُكَ مَنْ يَجْهَلُ وَتَعَلَّمَ مَنْ يَعْلَمُ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ
 حَفِظْتَ مَا عَلِمْتَ وَعَلِمْتَ مَا جَهِلْتَ.

مكتبة مشكاة الإسلامية

وسأَل إبراهيم التَّخَعِيُّ عامراً الشَّعْبِيَّ عن مَسْأَلَة فقال: لا أَدْرِي فقال: هذا والله العالم سئِلَ عَمَّا لا يَدْرِي فقال: لا أَدْرِي.

وقال مالك بن أنس: إذا تَرَكَ العالم لا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: مَنْ سئِلَ عَمَّا لا يَدْرِي فقال: لا أَدْرِي فقد أَحْرَزَ نِصْفَ الْعِلْمِ.

وقالوا: الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: حَدِيثٌ مُسْنَدٌ وَآيَةٌ مُحْكَمَةٌ وَلا أَدْرِي.

فَجَعَلُوا لا أَدْرِي مِنَ الْعِلْمِ إِذْ كَانَ وَقَالَ الْخَلِيلُ بن أحمد: إِنَّكَ لا تَعْرِفُ حَطَأَ مُعَلِّمِكَ حَتَّى تَجْلِسَ عِنْدَ غَيْرِهِ.

وكان الخليلُ قد عَلَبَتْ عَلَيْهِ الإباضية حتى جالَسَ أَيُّوبَ وقالوا: عَوَاقِبُ الْمَكَارِهِ مَحْمُودَةٌ.

وقالوا: الْحَيْرُ كُلُّهُ فِيمَا أُكْرِهَتْ النَفُوسُ عَلَيْهِ.

▲ انتحال العلم

قال بعض " الحكماء ": لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْتَحِلَ الْعِلْمَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: " وَمَا أَوْتِئْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " .

وقال عز وجل: " وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " .

وقد ذُكِرَ عن موسى بن عِمْران عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَكَلِيمًا وَدَرَسَ التَّوَارَةَ وَحَفِظَهَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَعْلَمَ مِنْهُ.

فَهَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ بِالْخِصْرِ عَلَيْهِ السَّلَامِ.

وقال مُقاتِل بن سُلَيْمان وقد دَخَلَتْهُ أَهْبَةُ الْعِلْمِ: سَلُونِي عَمَّا تَحْتَ الْعَرْشِ إِلَى أَسْفَلِ الثَّرَى.

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ: مَا نَسَأَلُكَ عَمَّا تَحْتَ الْعَرْشِ وَلا أَسْفَلَ الثَّرَى وَلَكِنْ نَسَأَلُكَ عَمَّا كَانَ فِي الْأَرْضِ وَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَحْبَرَنِي عَنْ كَلْبِ أَهْلِ الْكَهْفِ مَا كَانَ لَوْثُهُ فَأَفْحَمَهُ.

وقال قَتَادَةُ: مَا سَمِعْتُ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا حَفِظْتُهُ وَلا حَفِظْتُ شَيْئًا قَطُّ فَتَسَيْتُهُ ثُمَّ قَالَ: يَا غَلامَ هَاتِ نَعْلِي فَقَالَ: هُمَا فِي رِجْلَيْكَ فَفَضَحَهُ اللَّهُ.

وَأَنشَدَ أَبُو عَمْرٍو بِنُ الْعِلَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى: مَنْ تَخَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَصَحَّتْهُ شِبْهاتُ الامْتِحَانِ مَنْ تَخَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ شَانَ مَا فِي يَدَيْهِ مَا يَدَّعِيهِ وَإِذَا قَلَّ الدَّعَاوَى لِمَا فِي هِ أضافوا إِلَيْهِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَمَمَكُ الْعَتَى سِيظَهْرُ لِلنَّاسِ وَإِنْ كَانَ دَائِبًا يُحْفِيهِ يَحْسَبُ الَّذِي ادَّعَى مَا عَدَّاهُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْتَرِيهِ وَقَالَ

مكتبة مشكاة الإسلامية

شبيب بن شيبه لفتى من دوس: لا تُتازع من فوقك ولا تُقل إلا بعلم ولا تتعاط ما لم تبذل ولا يخالف لسائلك ما في قلبك ولا قولك فِعْلَكَ ولا تدع الأمر إذا أقبل ولا تطلبه إذا أدبر .

وقال قتادة: حَفِظْتُ ما لم يَحْفَظْ أَحَدٌ وأنسيْتُ ما لم يَنْسَ أَحَدٌ حَفِظْتُ القرآن في سبعة أشهر وقَبِضْتُ على لِحْيَتِي وأنا أريد قَطْعَ ما تحت يدي فقطعتُ ما فوقها.

ومرَّ الشَّعْبِيُّ بالسُّدِّيِّ وهو يفسر القرآن فقال: لو كان هذا الساعة نشوان يُضرب على استه بالطبل أما كان خَيْراً له وقال بعض المنتحلين: يُجَهِّلُنِي قَوْمِي وفي عَقْدٍ مئزري تَمَتُّونَ أمثالاً لهم مُحْكَمُ العِلْمِ وما عَنَّ لي من غامض العِلْمِ غامض مَدَى الدَّهْرِ إلا كُنْتُ منه على فَهْمٍ وَعَلِمْتُ حَتَّى ما أسأل عالماً عَن عِلْمٍ واحدةٍ لكي أُرَدِّدَها شرائط العلم وما يصلح له وقالوا: لا يكون العالم عالماً حتى تكونَ فيه ثلاثُ خِصال: لا يَحْتَقِرَ مَنْ دونه ولا يَحْسُدَ مَنْ فوقه ولا يأخذ على العِلْمِ تَمَنًّا.

وقالوا: رأسُ العِلْمِ الخُوفُ " من " الله تعالى.

وقيل للشَّعْبِيِّ: أَفْتَنِي أَيُّها العالم فقال: إئِما العالمَ مَنْ اتَّقَى الله.

وقال الحسن: يكون الرجلُ عالماً ولا يكون عابداً ويكون عابداً ولا يكون عاقلاً.

وكان مُسلم بن يسار عالماً عابداً عاقلاً.

وقالوا: ما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أفضلَ من جِلْمٍ إلى عِلْمٍ ومن عَفْوٍ إلى قُدْرَةٍ.

وقالوا: من تمام آلة العالم أن يكون شديدَ ألَهِيَّةِ رَزينِ المَجْلِسِ وَفُوراً صَمُوتاً بطيء الالتفات قليلَ الإشارات ساكنَ الحَرَكات لا يَصْحَبُ ولا يَعْضِبُ ولا يُبْهَرُ في كلامه ولا يَمسحُ عُثُونَه عند كلامه في كلِّ حين فإنَّ هذه كلها من آفات العيِّ.

وقال الشاعر: ومَدَحَ خالدُ بن صَفْوان رجلاً فقال: كان بديع المنطق جَزَل الألفاظ عربيّ اللسان قليلَ الحَرَكات حَسَنَ الإشارات حُلُوَ الشمائل.

كثير الطلّاة صَمُوتاً وَفُوراً يهنا الجرب ويُدَاوي الدبر ويُقَلِّ " " الحزَّ ويُطَبِّق المَفْصِلَ لم يكن بالزَّيرِ المُرْوءة ولا الهذير المنطبق متبوعاً غير تابع.

كأنه عَلم في رأسه نازٍ وقال عبد الله بن المُبارك في مالك بن أنس رضي الله عنه: يأتي الجوابَ فما يُراجِعُ هَيْبَةً فالسائلون تَوَakis الأذقان هَدْيِ الوَاقِرِ وعِرُّ سُلطانِ التُّقى فهو المَهيبُ وليسَ دَا سُلطانِ وقال عبد الله بن المُبارك فيه أيضاً: صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ رَينَ أهله وَفَتاقُ أباكار الكلام المُحْتَمِّ وَعَى ما

مكتبة مشكاة الإسلامية

وَعَى الْقُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ وَسَيِّطَتْ لَهُ الْآدَابُ بِاللَّحْمِ وَالذَّمَّ وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلِيَّ
عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَكَانَ لَا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمًا فَقَالَ
لَهُ: أَنْبِيَ لَكَ هَذَا فَقَالَ: لَمْ أَمْنَعْ قَطُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمًا أَفِيدَهُ وَلَمْ أَحْتَقِرْ
عِلْمًا أَسْتَفِيدَهُ وَكُنْتُ إِذَا لَقَيْتُ الرَّجُلَ أَخَذْتُ مِنْهُ وَأَعْطَيْتُهُ.

وقالوا: لو أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُؤُوا عِلْمَهُمْ لَسَادُوا أَهْلَ الدُّنْيَا لَكِنْ وَصَّوهُ غَيْرَ
مَوْضِعِهِ فَقَصَّرَ فِي حِفْظِ الْعِلْمِ وَاسْتَعْمَالِهِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: تَعَلَّمُوا
فَإِذَا عِلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا.

وقال مالكُ بن دينارٍ: الْعَالِمُ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ يَعْلَمُهُ رَزَلَتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ كَمَا
يَزِلُّ الْمَاءُ عَنِ الصِّفَاءِ.

وقالوا: لَوْ الْعَمَلُ لَمْ يُطَلَبِ الْعِلْمُ وَلَوْ الْعِلْمُ لَمْ يُطَلَبِ الْعَمَلُ.

وقال الطائفيُّ: وَلَمْ يَحْمَدُوا مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ وَلَمْ يَحْمَدُوا مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ
عَالِمٍ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّهَا النَّاسُ تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ
تُعَرِّفُوا بِهِ وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ.

وقالوا: الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ
اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْأَذَانَ.

وَرَوَى زَيْدٌ عَنْ مَالِكٍ قَالَ: كُنْ عَالِمًا أَوْ مَتَعَلِّمًا " أَوْ مُسْتَمِعًا " وَإِيَّاكَ وَالرَّابِعَةَ
فَإِنَّهَا مَهْلِكَةٌ وَلَا تَكُونُ عَالِمًا حَتَّى تَكُونَ عَامِلًا وَلَا تَكُونَ مُؤْمِنًا حَتَّى تَكُونَ
تَقِيًّا.

وكان الشَّعْبِيُّ وَالرُّهْرِيُّ يَقُولَانِ: مَا سَمِعْنَا حَدِيثًا قَطُّ وَسَأَلْنَا إِعَادَتَهُ.

رفع العلم وقولهم فيه قال عبد الله بن مسعود: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ
النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لما أُورِيَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي
قَبْرِهِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَرَى كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ فَهَكَذَا يُقْبَضُ.